د. أحمد إلياس حسين

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الثاني

السّكّان حتى القرن الخامس عشر الميلادي

هذا الكتاب

هذه الدراسة ليست دراسة متخصّصة عن السكان، بل عبارة عن مقدّمات عامة تسعى إلى التعرُّف على المجتمع السوداني والمؤثّرات التي أدّت إلى تكوينه، ومدى ارتباطه بالحلقات السابقة للقرن السابع الميلادي. آمل أن تسهم هذه الدراسة في تسليط بعض الأضواء على تلك الجوانب، وتفتح شهية الباحثين للتنقيب والبحث في تاريخ هذه الفترة. فتاريخ هذه الفترة يمثّل أساس البناء الذي كوّن المجتمع السوداني المعاصر.

ولكي يتسنّى لنا إدراك هُويَّتنا، وفهم واقعنا المعاصر فهماً صحيحاً؛ علينا إعادة قراءة تاريخنا بتأنٍّ وصبر. وللقيام بذلك ينبغي تضافُر جهود الباحثين في التاريخ والجغرافيا والآثار والأنثروبولوجيا والأدب والثقافة، وكل ما يتعلّق بتراثنا الماضي، لكي نتعرَّف على ذواتنا، وربطها بذلك التراث، وبتراب هذه الأرض التي احتضنت تراث ورفات أجدادنا منذ القِدَم.

يتناول هذا الكتاب سكان السودان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. وقد شهدت هذه الفترة تغيُّرات سياسية واقتصادية ودينية، وتحرُّكات سكانية أدّت إلى رسم خريطة جديدة لمعظم أجزاء القارة الأفريقية قبل القرن الخامس عشر.

(من مقدمة المؤلف)

ردمك ISBN 978 - 99942 - 62 - 24 - 3


شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

السودادة

الوعي بالذات وتأصيل الهُويَّة

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان
305.8927624 أحمد الياس حسين، 1943 –
أ ا. و
الوعي بالذات وتأصيل الهوية/ أحمد الياس حسين. – الخرطوم: 2012.
ص؛ 24 سم.
ردمك: 3 - 24 - 62 - 99942 - 978
1. المجتمع السوداني. 2 السودان – الأحوال السياسية. 3. المجتمعات الحضرية– السودان. أ. العنوان.

السودان

الوعيُ بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الثاني

السّكّان حتى القرن الخامس عشر الميلادي

د. أحمد إلياس حسين


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

الفهرست

المقدّمة

أقدِّم للقراء الكرام كتاب (السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي)، وهو الجزء الثاني من كتاب (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهُويَّة)، وهو يتناول سكان السودان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. وقد شهدت هذه الفترة تغيُّرات سياسية واقتصادية ودينية، وتحرُّكات سكانية أدّت إلى رسم خريطة جديدة لمعظم أجزاء القارة الأفريقية قبل القرن الخامس عشر.

وقد نال السودان قسطاً كبيراً من تلك التحوُّلات التي أدت إلى رسم خريطته السياسية والدينية والثقافية بعد القرن الخامس عشر، كما شهدت هذه الفترة في الوقت ذاته توفُّر قدر معقول من المادة المكتوبة عن أوضاع السودان في المصادر العربية مكّنت من التعرُّف على كثير من أوضاعه قبل القرن الخامس عشر الميلادي.

ويهدف هذا الجزء من الكتاب إلى تسليط الضوء على السكان ونشاطاتهم وأوضاعهم الدخلية، ويعتمد اعتماداً كبيراً في ذلك على ما ورد من معلومات في المصادر العربية. أما الأوضاع السياسية وصلات السودان بالمسلمين في مصر والعالم الخارجي؛ فسوف يتم تناولها، إن شاء الله، في جزء مستقل.

وقد سبق نشر موضوعات هذا الكتاب في موقع (sudanile.com) الإلكتروني، ما عدا القليل منها، كما نشرت بعض أجزائه في صحيفة (الصحافة). وقد قمت بجمعه وإدخال بعض التعديلات عليه، لكنه حافظ -في صورته العامة- على الترتيب الذي ظهر به فى الموقع الإلكتروني.

وكما ذكرت، في مقدّمة الجزء الأول من هذا الكتاب، فإن هذه الدراسة ليست دراسة متخصّصة عن السكان، بل عبارة عن مقدّمات عامة تسعى إلى التعرُّف على المجتمع السوداني والمؤثّرات التي أدّت إلى تكوينه، ومدى ارتباطه بالحلقات السابقة للقرن السابع الميلادي. آمل أن تسهم هذه الدراسة في تسليط بعض الأضواء على تلك الجوانب، وتفتح شهية الباحثين للتنقيب والبحث في تاريخ هذه الفترة. فتاريخ هذه الفترة يمثّل أساس البناء

الذي كوّن المجتمع السوداني المعاصر.

ولذلك فإنه لكي يتسنّى لنا إدراك هُويَّتنا، وفهم واقعنا المعاصر فهماً صحيحاً؛ علينا إعادة قراءة تاريخنا بتأنٍّ وصبر. وللقيام بذلك ينبغي تضافُر جهود الباحثين في التاريخ والجغرافيا والآثار والأنثروبولوجيا والأدب والثقافة، وكل ما يتعلّق بتراثنا الماضي، لكي نتعرَّف على ذواتنا، وربطها بذلك التراث، وبتراب هذه الأرض التي احتضنت تراث ورفات أجدادنا منذ القِدَم.

ورأيت أن أصدِّر الكتاب بمدخل عن الهُويَّة في صورتها العامة؛ كيف كان مفهوم الهُويَّة في تراثنا الإسلامي؟، وهل كان هناك إحساس بالانتماء بين مواطني السودان في حدوده الحالية، عبر تاريخه الطويل قبل فترة الاستعمار؟، وكيف اكتسبنا هُويَّتنا الحالية؟، ومدى الإحساس بالانتماء إليها؟.

يبدأ الفصل الأول بمحاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة. وتهدف الفصول الثلاثة الباقية إلى التعرُّف على المواطن السوداني وارتباطه بالأرض، طيلة القرون الثمانية التي سبقت ظهور المسمّيات القبلية الحالية في شرق ووسط السودان وغربه. من كان على تراب هذه الأرض قبل القرن الخامس عشر الميلادي؟، وماذا ترك لنا من تراث؟، وكيف نظر إليه جيرانه وبخاصة في الشمال؟، وماذا كتبوا عنه؟.

يعالج الفصل الثاني بلاد وقبائل شرق السودان. ويركِّز الفصل الثالث على الصحراء الغربية والتحرُّكات السكانية التي شكّلت الخريطة السكانية لمناطق النيل عبر العصور. ويتتبّع الفصل اسم (النوبا) الذي شاع إطلاقه على سكان السودان قبل ظهور اسم (النوبة) في المصادر العربية، كما يتعرّض لاسم (النوبة) وتطوُّر مفهومه وارتباطه باسم (مريس).

يتناول الفصل الرابع ما توفَّر من معلومات عن بلاد وسكان مملكتي مقُرة وعلوة، وكيف كانت أوضاع المواطنين في مملكة مقُرة التي أصبح الكثير من تراثها تحت مياه بحيرة النوبة. وقبل معالجة ما ورد عن مملكة علوة رأيتُ أن أتعرّض سريعاً لكوش والكوشيين. فرغم البُعْد الزمني الذي يُخرج هذا التناول عن فترة الدراسة، إلا أنني أردت تحرير مفهوم كوش من نطاقه التقليدي المكاني الضيِّق في شمال السودان، وإبراز ارتباط كوش والكوشيين بمنطقة وسط وشرق وغرب السودان، وهو ارتباط تسنده الأدلة، كما يتّضح في الدراسة. ثم عالج الفصل ما توفّر من معلومات عن بلاد علوة وسكانها.

وأودّ أن أشير هنا إلى أنني استفدت كثيراً من كتاب مصطفى محمد مسعد؛ (المكتبة العربية السودانية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى)، وهو مصدر مهمٌ يوفّر مادة كثيرة وغنية للباحثين، لكنه مع عظمه وفائدته يحتاج إلى مواصلة جهودهم، إذ هناك الكثير من النصوص عن السودان في المصادر العربية غير مضمّنة في كتاب مسعد. وإلى جانب ذلك استفدت كثيراً من المكتبة الشاملة في موقع (الوراق) الإلكتروني، وقد رجعت إلى هذا الموقع وجمعت المادة التي رجعت إليها هنا في عام 2005م.

الفصل الأول

تأملات في الهُويّة

- الهُويّة والمواطنة ومفهوماهما القديمان
- مفهوما المواطنة والهُويّة في التراث الإسلامي
- مفهوما المواطنة والهُويّة في عصر تعدُّد الدول الإسلامية
- الهُويّة والوطن والقومية
- كيف كان مفهوما المواطنة والهُويّة في ممالك السودان قبل الغزو التركي؟
- الهُويّة القومية؛ كيف اكتسبنا هُويّتنا الحالية؟ وهل هي هُويّة زائفة؟
- أصل ومعنى ومفهوم كلمة هُويّتنا «سوداني»
- اللامُنتمي وانفصام الهُويّة
- عرب أم أفارقة؟
- البحث عن الجذور
- نحو إعادة التركيب

«الهُويَّة» و«المواطنة» ومفهوماهما القديمان

سألني أحد الإخوة الإعلاميين في نهاية ورشة عمل بعنوان (المؤرّخون السودانيون) أقامها مركز التنوير المعرفي، في مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم، عن مشكلة التاريخ السوداني وعدم ارتباط وإحساس المواطن بالعمق الزماني والمكاني، وعدم شعوره بالانتماء إلى ما في السودان من آثار تعكس بعض فترات ذلك التاريخ. وبالطبع فإن إجابتي لم تقنع السائل، ولم أجد أنا أيضاً فيها ما يلقي، ولو القليل، من الضوء على مثل تلك التساؤلات، وذلك لأن طبيعتي الزمان والمكان لم تكونا تسمحان بغير ذلك القدر. ولكنني أحسست بضرورة زيادة الاهتمام بالقضية.

وأرى أن مثل تلك الأسئلة مهمة وضرورية، وتحمل في طياتها مشكلة المواطن السوداني الكبرى المتعلِّقة بهُويَّته عبر العصور. كيف كانت هُويَّة المواطنين على تراب هذه الأرض عبر عصوره القديمة قبل نحو أربعة آلاف سنة؟ ماذا حدث للهُويَّة بتحول وتغيّر الأوضاع السياسية والدينية والثقافية خلال العصور المتعاقبة على تاريخ هذه البقاع؟ هل تأثرت أو تغيرت هُويَّات المواطنين بتلك التغيّرات؟ وهل لأولئك البشر الذين عاشوا على تراب هذه الأرض عبر تاريخها صلة بالمواطنين الحاليين؟ وما هي الصلة بين هُويَّة أولئك السكان وبين هُويَّة المواطنين الآن في حدود السودان الحالية؟ وكيف اكتسبنا هُويّاتنا الحالية؟

ولأننا نود الحديث عن الهُويَّة وتأصيلها والرجوع بها إلى تراثنا الماضي، أعتقد أنه من الضروري أن نبدأ بمدخل عن الهُويَّة ومفهومها عند بعض الشعوب القديمة، لكي نتعرف على خلفياتها عبر العصور، حتى وصولها إلينا. وبالطبع فإنه لا سبيل في هذه المقدمة إلى الحديث بالتفصيل عن هذه القضية، ولكن يمكن تناولها باختصار؛ بالقدر الذي يساعدنا في البحث عن هُويَّتنا عبر العصور.

المفهوم الذي نعرفه اليوم للهُويَّة يختلف عما كان عليه الوضع قبل قرنين من الزمان. فمفهوم الهُويَّة السائد اليوم يرجع إلى ظهور وسيادة القوميات والدولة القومية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي. فالشخص الآن ترتبط هُويَّته بكيانه السياسي، أي بحدود الدولة السياسية التي يعيش داخلها، بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه. ولنأخذ بعض

الأمثلة من أوروبا الغربية دون الدخول في اختلافات المفاهيم حول القومية والدولة القومية. وقد اخترنا أوروبا الغربية لأن الشعوب هناك هي التي اختارت حدودها السياسية، بخلاف أغلب الشعوب الأخرى، وبخاصة شعوب قارتي آسيا وأفريقيا التي فرضت عليها حدودها السياسية.

ففي بريطانيا - الآن - مثلاً تعيش مجموعات سكانية متباينة لغة وعرقاً وديناً، وكلها تنتمي إلى هُويَّة واحدة. وفي سويسرا مثلاً، تعيش ثلاث مجموعات سكانية يتحدث أفرادها اللغات الألمانية والإيطالية والفرنسية، ويتمتعون بهُويَّة واحدة. وفي بعض المناطق الأخرى في أوروبا الغربية تتضمن القوميات سكاناً ينتمون إلى عرق واحد ويدينون بدين واحد ويتحدثون نفس اللغة ويتمتعون بهُويَّة واحدة. ومثل كل هذه النماذج متعددة في أوروبا. فالهُويَّة مرتبطة بالحدود السياسية للدولة بغض النظر عن العرق والدين واللغة.

فالانتماء إلى الوطن بحدوده السياسية الثابتة - أو المفترض فيها الثبات - والارتباط بهُويَّته ظاهرة حديثة. غير إن الإحساس بالعوامل الرابطة بين الشعوب؛ مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث والتاريخ المشترك، التي نطلق عليها حالياً «قومية»؛ ظاهرة قديمة في التاريخ. فالجماعات البشرية القديمة ذات الصلات العرقية واللغوية والتراث المشترك وتسكن في منطقة واحدة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، تحس بترباط بينها، يميزها عن الجماعات المجاورة التي لا تتفق معها في ما ذكر، وهذا الإحساس هو ما نطلق عليه اليوم الرابطة القومية. ولا يقتصر ذلك الإحساس أو الرابط على قبيلة أو جماعة واحدة، بل يجمع عدة قبائل وجماعات لها تلك السمات المشتركة.

وإذا رجعنا إلى التاريخ - بإيجاز ودون الدخول في المصطلحات والتعريفات العلمية - في عصوره القديمة؛ نجد مثلاً أن المصريين والفينيقيين واليونانيين والصينيين والهنود، شعوب جمعت بينها بعض الروابط، مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث، وكان الإحساس والرابط بين كل واحد من تلك الشعوب قوياً. ويرى كل شعب أنه متميز بذاته إلى جانب الشعوب أو الجماعات الأخرى. وإذا استخدمنا لغة اليوم، يمكن أن نقول إن الشعور القومي هو العامل الذي ربط كلاً من تلك الشعوب.

والهجرات الكبرى القديمة التي شكلت كثيراً من شعوب العالم القديم، ارتبط فيها الشعب المهاجر، في مواطن استقراره، بسمات مشتركة. خلقت تلك السمات الإحساس بالتقارب والانتماء، وحمل الشعب المهاجر سماته إلى مناطق استقراره؛ فغيرت الجماعات

حدودها القديمة إلى حدود جديدة، ولم يعد لتلك الجماعات ارتباط بأوطانها الأم رغم بقاء السمات المشتركة لعدة أجيال. وصبغت الجماعات الوافدة أماكن إقاماتها الجديدة بسماتها، وانصهرت فيها العناصر المحلية. وبمرور الزمن تفرعت تلك الشعوب وتطورت سمات جديدة أدت إلى خلق كيانات جديدة كما حدث مثلاً في الهجرات الآرية أو الجرمانية.

وإذا نظرنا إلى اليونانيين القدماء؛ وجدنا أن العوامل المشتركة بينهم ربطتهم بالإحساس بالوطن المطلّ على البحر المتوسط في جنوب أوروبا كاليونان. ثم انتشروا على سواحل البحر المتوسط بحثاً عن مواطن أخرى لاستقرارهم، فأصبحت لهم مستوطنات متعددة على سواحله. وسواء استقروا في المناطق الجديدة منفردين أم استقروا إلى جانب الشعوب المحلية؛ فإنهم احتفظوا بسماتهم المشتركة التي ربطتهم بالوطن الأم رغم تغير المكان. ورغم استيطانهم في تلك المناطق لأجيال متعاقبة؛ احتفظ اليونانيون بسماتهم الرئيسة، مثل اللغة والدين، وانتسب بعض السكان المحليين إلى السمات والثقافة الوافدة.

وهاجر بعض الفينيقيين أيضاً من موطنهم الأصلي – منطقة لبنان الحالية – واستوطنوا جزر وسواحل البحر المتوسط، واحتفظوا بسماتهم المشتركة التي ربطتهم بالوطن الأم في عصور الأجيال الأولى. غير أن ذلك لم يدم طيلة فترة استيطانهم، فأصبحت الروابط بالوطن الأم ضعيفة، مما أدى إلى التخلّي عنها والارتباط بالأوطان الجديدة، بخلاف اليونانيين. وانتشر الصينيون والهنود انتشاراً واسعاً في المناطق المجاورة لهم في شرق وجنوب شرق آسيا، واحتفظوا بسماتهم المشتركة مع الوطن الأم، وفي الوقت ذاته ارتبطوا ارتباطاً كاملاً بمواطنهم الجديدة.

فالروابط القديمة – أو قل القوميات والهُويَّات القديمة – لم تحكمها قواعد أو قوانين أو مفاهيم عامة اشتركت فيها تلك الشعوب، بل خضعت للمفاهيم والقواعد المحلية التي ارتضتها تلك الشعوب. ولذلك لم يكن ضرورياً ارتباط القوميات والهُويَّات بالحدود السياسية كما هو الحال الآن. ولو أخذنا مثالين في دولتين، كمثالين للفترات الأخيرة من العصور القديمة، وهما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية؛ أمكننا ملاحظة اختلاف أوضاع المواطنة والهُويَّة في كل منهما.

الإمبراطورية الرومانية كانت عاصمتها روما، وشملت حدودها كل سواحل البحر المتوسط، وامتدت في وسط وشمال أوروبا حتى إنجلترا، وانهارت في القرن الخامس الميلادي. كان المواطنون فيها ينقسمون إلى قسمين متميّزين؛ القسم الأول: المواطنون

الرومان Roman Citizens والقسم الثاني: المواطنون غير الرومان، ويتضمن كل قسم درجات متفاوتة، تتفاوت طبقاتهم وامتيازاتهم داخل حدود الدولة.

القسم الأول هم المواطنون الذين يتمتعون بدرجة المواطن الروماني (الهُويّة الرومانية) وما يتبعها من امتيازات تختلف باختلاف طبقاتهم. فالمواطن الذي يتمتّع بدرجة المواطنة الرومانية هو الذي يتحدّث اللغة الرومانية (اللاتينية)، ويعبد الآلهة الرومانية، ويسير على نمط الحياة الرومانية؛ أي يتطبّع بطابع الحياة والثقافة الرومانية، سواء أكان رومانيّ العرق أم من أيّة سلالة أخرى داخل حدود الإمبراطورية. ولذلك فإن الشخص غير الروماني، الذي ينتمي إلى منطقة فرنسا الحالية، أو ينتمي إلى منطقة شمال أفريقيا، يمكن أن يتمتّع بدرجة المواطنة الرومانية. ويضم القسم الثاني المواطنين الذين لا يتحدّثون اللغة الرومانية، ولا يعبدون الآلهة الرومانية، ولا يتطبّعون بطابع الحياة والثقافة الرومانية.

فالمواطنة لم ترتبط في الإمبراطورية الرومانية بالعِرْق، بل ارتبطت بالعوامل اللغوية والثقافية والدينية المشتركة. فاليهودي، مثلاً، داخل حدود الإمبراطورية، الذي لا يعبد آلهة الرومان، ولا يسير على نمط حياتهم وثقافتهم؛ لا يتمتّع بالمواطنة الرومانية، بل يَتْبَع ويُنسَب إلى عرقه، فيُعرف باليهودي، أي أن هُويّته يهودية، وهكذا أوضاع بقية السكان غير الرومانيين. ولذلك فالسكان داخل حدود الإمبراطورية يندرجون تحت هُويّات متعدِّدة وليست هناك هُويّة واحدة تجمع كل السكان تحت مظلتها. فالعامل السياسي لم يكن عاملاً حاسماً في تحديد المواطنة عند الرومان، بل كان واحداً من شروط المواطنة، ولا بدّ من توفُّر الشروط الأخرى؛ الدين واللغة والثقافة.

وإذا انتقلنا إلى مكان آخر، وهو الإمبراطورية الفارسية، التي قامت في مناطق العراق وإيران وأفغانستان وبعض مناطق شبة الجزيرة العربية الحالية، وانتهت بظهور الإسلام، لوجدنا وضعاً مختلفاً. فالسكان في الدولة الفارسية يُعرفون وينسبون إلى أعراقهم، من فرس وعرب وهنود وغيرهم، وتتفاوت درجاتهم وامتيازاتهم في الدولة وفقاً لأعراقهم. فالمواطنة هنا مرتبطة بالعرق. والهُويّة الفارسية يتمتّع بها السكان ذوو الأصول الفارسية فقط، أما باقي السكان داخل الحدود الفارسية فلا يعتبرون فرساً، ويُعرَّفون بأعراقهم. فالعرق هنا هو الفيصل والشرط الأساس في مسألة الهُويّة.

واكتسبت الهُويّة لوناً جديداً عند اليهود، عندما ارتبطت ارتباطاً قويّاً بالدين والعرق، وفي بعض الأوقات بالدين والعرق والدولة. ورغم تعرُّض الهُويّة اليهودية في فترات متعاقبة

إلى القليل من التعديل؛ لمواكبة الأوضاع السياسية التي عاصرها اليهود عبر تاريخهم، إلا أن الدين والعرق ظلا يمثّلان محور قوميتهم، وإن لعب العرق دوراً كبيراً في التمييز بين الأفراد داخل المجتمع اليهودي.

أما في المسيحية فالوضع يختلف كليّاً في ما يتعلّق بالمواطنة والهُويَّة. فالمسيحية لم تُؤسِّس قومية خاصة بها عبر تاريخها، وذلك لانعدام ارتباطها المباشر بالدولة والوضع السياسي. فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية نشأت تحت ظل السلطة السياسية. ورغم صراع الكنيسة الغربية الكاثوليكية مع السلطة السياسية في العصور الوسطى الأوروبية؛ إلا أن نفوذها السياسي ظل محدوداً. فأصبحت المسيحية رابطاً دينيّاً يحسُّ به أتباعه بفِرَقهم المختلفة، ولكنَّ انتماءهم الوطني ظل، ولا يزال، منفصلاً عن معتقدهم حسب أوضاعهم المحلية الخاصة بهم.

فانتشار المسيحية الواسع في أوروبا، بعد القرن الخامس الميلادي، لم يؤثِّر على أوضاع المواطنة، بل ارتبطت المواطنة بالأوضاع السياسية التي أفرزت نظام الإقطاع. فأصبح انتماء المواطنين محليّاً مرتبطاً بكياناتهم السياسية، وكلما اتّسعت رقعة الكيان السياسي؛ ازداد عدد السكان التابعين له. وتطوَّر ذلك بقيام الإمبراطوريات والأسر المشهورة التي حكمت أوروبا في عصرها الوسيط، مثل أسر آل بوربون وآل هابسبيرج وآل هوهنزلرن ورومانوف وغيرها. توزَّع سكان أوروبا بين تلك الأسر، التي كانت حدودها وعدد الشعوب التابعة لها تتأرجح بين الزيادة والنقصان وفقاً لقوتها العسكرية وقدرتها على المحافظة على توسُّعاتها.

وظل الوضع هكذا حتى العصر الحديث. فشعوب في أوروبا حتى القرن التاسع عشر لم تكُن تعيش تحت ظل دول قومية، بل كانت تابعة للأسر التي حكمتها. فكيف كان مفهوم المواطنة في التراث الإسلامي؟

مفهوما «المواطنة» و«الهُويَّة» في التراث الإسلامي

وإذا انتقلنا إلى غرب آسيا – حيث شبه جزيرة العرب – قبل الإسلام؛ نجد أن الهُويَّة كانت قبلية. فالفرد ينتمي إلى القبيلة، ولم يكن هناك كيان سياسي واحد يضم سكان شبه الجزيرة. حتى الممالك التي نشأت هناك – باستثناءات قليلة في الجنوب – قامت على

أسس قبلية. فالقبيلة كانت محور الحياة في شبه الجزيرة، يتمتَّع المنتمي إلى القبيلة بالأمن والحقوق المتعلِّقة بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية كافة.

والانتماء إلى القبيلة ليس من الضروري أن يكون عبر صلة الدم، فالقبيلة بصورة عامة تنتمي إلى جدٍّ واحد يرجع إليه نسب أفرادها. ولكن لم تكن رابطة الدم شرطاً في الانتماء إلى القبيلة. فقد تضم القبيلة شخصاً لا صلة له بها، ويعرف ذلك بنظام الولاء، ويتمتّع الفرد فيه بحقوق الأفراد الآخرين كافة الذين يتمتعون بصلة الدم في القبيلة.

فالعرق هنا، رغم أهميته، لم يكن ركناً حاسماً في الانتماء. والانتماء إلى العروبة كهُويَّة جامعة - كما يقول المؤرّخ العراقي المشهور والمتخصّص في تاريخ العرب القديم جواد علي□- لم يحدث إلا في القرون القليلة السابقة للإسلام، وكانت الهُويَّة قبل ذلك هُويَّة قبلية. ويضيف الدكتور السيد عبد العزيز سالم□: «ولا نعرف على وجه الدقة متى استخدم لفظ (عرب) للدلالة على معنى قومي يتعلّق بالجنس العربي، والقرآن الكريم هو أول مصدر - ولا يرتقي عن الإسلام إلى عهدٍ جدّ بعيد - استخدم فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن الجنس العربي».□

حدث تغيّر كبير لمفهوم المواطنة بعد ظهور الإسلام، فبقيام دولة المدينة بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) توحّدت الانتماءات العرقية والقبيلة القديمة في شبه الجزيرة، في هُويَّة جديدة، هي الانتماء إلى الأمة، بغضِّ النظر عن العرق أو اللغة أو الدين. فسكان المدينة من عرب ويهود وغيرهم من فرس وروم وحبش، مسلمين وغير مسلمين، أصبحوا جميعاً مواطنين في دولة المدينة.

فالمواطنة أصبحت حقاً يتمتّع به كل المواطنين، وفقاً لنصوص وثيقة المدينة التي جاء فيها: «هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلَحِقَ بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس (...). وأنه من تبعنا من يهود فإن له النَّصر والأُسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم (...). وأن يهود

□. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، 1993م، ج 1 ص 22-23.

□. عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت)، ص 44.

□. تمت مناقشة هذه الموضوعات في كتاب للمؤلف بعنوان: السودان؛ الوعي بالذات وتأصيل الهُويَّة، كاجي قرافيكس، كوالالمبور، ماليزيا، 2008م، ص 10 - 14.

بنِي عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثِم فإنه لا يُوتغ (أي يهلك) إلا نفسه. وأن ليهود بني النجار (...)، وليهود بني الحارث (...)، وليهود بني ساعدة (...)، وليهود بني جُشَم (...) وأن ليهود بني الأوس (...)، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف.»[1].

وقد وضعت وثيقةُ المدينة – أو دستورُ دولة المدينة كما يُطلق عليها أيضاً – أسسَ الدولة التي تأسَّست بالمدينة مباشرة عَقِب وصول الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليها. وأطلقت الوثيقة على سكان دولة المدينة اسم (الأمة)، وأوضحت أن الأمة تكوَّنت من المهاجرين من قبيلة قريش، ومن سكان مدينة يثرب، وكان هذا هو اسمها الذي تغير بعد هجرة الرسول إليها إلى المدينة (مدينة الرسول).

وأوضحت الوثيقة أن سكان المدينة نواة الأمة، التي تكوّنت في بدايتها من العرب (قريش وعرب المدينة) ومن اليهود. وإلى جانب هؤلاء كان هناك بعض العناصر والأفراد الآخرين من غير العرب واليهود، مثل مواليهم الذين أشارت إليهم الوثيقة باعتبارهم جزءاً من الأمة، بالإضافة إلى العناصر والأفراد الآخرين الذين لم تُشِر إليهم الوثيقة صراحة، مثل الفرس ممثَّلين في سلمان الفارسي، والحبش ممثَّلين في بلال الحبشي، والروم ممثَّلين في صهيب الرومي. فقد انتمى هؤلاء بحكم الواقع للأمة. وفُتِح باب تكوين الأمة – كما نصّت الوثيقة – لمن لحق بهؤلاء، والمقصود بذلك من سينضم إلى الأمة في مراحل تكوينها التالية، لأن حدود الأمة في ذلك الوقت كانت منحصرة في المدينة فقط.

وقد عالجت نصوص الوثيقة أوضاع المواطنين (أفراد الأمة) في الدولة، ولم تميِّز بين عرق وآخر، فالكل ينتسب إلى الأمة، بغضِّ النظر عن عرقه ودينه ولغته وثقافته. وهناك من يرى أن الأمة تتكوَّن من المسلمين فقط. وليس هذا بصحيح بناءً على نصِّ وثيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي أوضحت أن لليهود التابعين للأمة دينهم، ولم تلزمهم بالإسلام، كما لم تلزمهم بالخروج من حدود الأمة. وقد أجلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليهود من المدينة لأنهم نقضوا شروط وثيقة المدينة، وظل بقية اليهود شمالي المدينة مقيمين في مواطنهم حتى عصر الخليفة عمر بن الخطاب.

وتوسّعت دولة المدينة في العقود التالية لعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى

---

[1]. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م، ص 61.

وصلت إلى الهند شرقاً والأندلس غرباً، وسارت الدولة على نهج وهدي وثيقة المدينة، وأصبح الانتماء الأول لكل المواطنين للأمة. ولأن مجتمع الأمة مجتمع عالمي، انتظم أجناساً وديانات ولغات وثقافات متعدِّدة، فقد اعترف بالانتماءات المحلية والعرقية والقبلية ولم يُلْغها إلغاءً كاملاً، بل جعلها تعريفاً وهُويَّة ثانوية، أو صغرى، تابعة للانتماء إلى الأمة.

ولذلك نجد بعض الألقاب مثل الأندلسي والبغدادي والقرشي. تلك الألقاب أشارت إلى تعريف يأتي في مرتبة تالية للهُويَّة العامة. فالمواطنة من وجهة النظر الإسلامية انتماء عام إلى الأمة بغضِّ النظر عن العرق أو الدين أو اللغة. وكل السكان داخل حدود الخلافة في المراحل المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية حتى القرن الثالث الهجري، تمتعوا بكامل حقوق المواطنة. ومنذ القرن الثالث تعرضت الأوضاع السياسية لظروف جديدة، وقامت العديد من الدول الإسلامية، فماذا حدث للمواطنين ولمفهوم المواطنة بعد تلك التغيُّرات؟.

وقبل الإجابة على هذا السؤال نتوقف قليلاً مع بعض القواميس العربية المبكرة لنرى كيف أتى معنى (أمة) فيها. عرّف الخليل بن أحمد الأمة بأنها: «جماعةٌ أرسل إليهم رسولٌ سواء آمنوا أو كفروا. وقال الليث كل قوم نسبوا إلى نبس فأضيفوا إليه فهم أمته»[1]. وعرف الزبيدي الأمة بأنها: «كلّ قوم نُسِبُوا إلى نبيٍّ وأضيفوا إليه فهم أمّته.. وقد يجيءُ في بعض الكلام أنّ أمّة محمّد صلّى اللهُ عَليه وآله وسلّم هم المسلمون خاصّة، وجاء في بعض الحديث أنّ أمّته من أُرسل إليه ممن آمَن به أو كفر به، فهم أمّته في اسم الأمّة لا الملّة»[2].

ووفقاً لتعريفات التراث، فإن مفهوم الأمة يبدو واسعاً يتعدّى حدود الدولة. فرسالة الإسلام عالمية، والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أرسل إلى الناس كافة، وبناءً على تعريف الخليل والزبيدي فأمة محمد تتمثّل في كل من أرسل إليهم، وبما أن الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم) أرسل إلى الناس كافة؛ فأمته تصبح ممثَّلة في كل الشعوب منذ عصر بداية الدعوة حتى الوقت الحاضر. وبالطبع كان هذا هو المفهوم القديم للأمة. فكان مفهوم الأمة والمواطنة في تراثنا لا يرتبط بالحدود بل يتعدّاها إلى المجتمع العالمي.

وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية الحديثة؛ لوجدنا تعريفاً مختلفاً تماماً عن المعاني التي وردت في القواميس المبكرة. فالمعجم الوجيز الذي أعدّه مجمع اللغة العربية بمصر

---

[1]. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، (موقع الوراق)، ج 2 ص 212.

[2]. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ج 1 ص 7609.

يعرِّف الأمة بأنها: «جماعةُ الناس الذين يكوّنون وحدة سياسية، وتجمع بينهم وحدة الوطن واللغة والتراث والمشاعر»[1]. جاء هذا التعريف معبراً عن واقع المسلمين المعاصر، فالمسلمون اليوم يعيشون في دول عديدة.

ودول المسلمين اليوم قامت على نمط الدول القومية الأوروبية التي تجعل من الحدود سدّاً منيعاً أمام تحرك السكان من دولة إلى أخرى، ولا يتمتع السكان خارج حدود دولتهم بحقوق المواطنين في الدولة الأخرى، حتى ولو اشتركوا مع سكان تلك الدولة في العرق واللغة والدين والتاريخ المشترك كما هو الحال في الدول العربية، أو دول عالم الملايو في جنوب شرق آسيا. ومن الجدير بالملاحظة أن أوروبا – التي أتت بالدولة القومية وقوانينها – بدأت في التخلي التدريجي عن تلك القوانين، وأصبح الحسّ القومي ضعيفاً، حلّ محله الانتماء القاري الواسع.

ووفقاً لتعريف القواميس الحديثة للأمة؛ فهناك عدد كبير من الأمم بعدد الدول الإسلامية. فكل جماعة من الناس تضمها وحدة سياسية، وتجمع بينها وحدة الوطن واللغة التراث والمشاعر تكون أمة. فهناك الأمة السعودية، والأمة العراقية، والأمة الغانية، والأمة الماليزية، وهكذا. فنحن إذن لدينا تعريف جديد للأمة يجعلها أمماً، ويعني هذا إلغاء مفهوم الأمة في تراثنا، وتبنّي مفهوم الأمة القائم على مفهوم الدولة القومية.

وإذا حدث أن تغيّرت حدود بعض السكان؛ امتدّ ذلك التغيُّر إلى هوياتهم. فعلى سبيل المثال لو ضُمّت حلايب للحدود المصرية؛ لتغيّرت هُويَّة المواطنين من سودانيين إلى مصريين، ولو وضع الإنجليز إقليم وادي حلفا ضمن الحدود المصرية؛ لكان سكانه الآن مصريين. فالمواطنة مرتبطة ارتباطاً أساسياً بالدولة. فهل دولنا القومية الحالية مثل الدول الإسلامية في تراثنا؟ وكيف نفسِّر تعريف الأمة الواحدة مع تعدُّد الدول الإسلامية في تراثنا؟ وهل تغيّرت هُويَّة السكان واختلفت حقوقهم بتعدُّد الدول الإسلامية؟.

مفهوما «المواطنة» و«الهُويَّة» في عصر تعدُّد الدول الإسلامية

قد يبدو مفهوم الأمة والمواطنة واضحاً داخل حدود الدولة أو الخلافة في طورها المبكر؛ في

---

[1]. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، حرف الهمزة.

عصر الخلافة الراشدة والخلافة الأموية وبداية الخلافة العباسية، عندما كان كل أفراد الأمة منضوين تحت لواء دولة واحدة، وكان انتماء كل المواطنين في حدودها. فماذا حدث للأمة وانتماء المواطنين بعد أن تعدّدت الدول الإسلامية التي عاش تحت ظلها أفراد الأمة؟.
فقد شهدت الأوضاع السياسية والإدارية في الدولة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) تغيّراً كبيراً يشار إليه في العادة بعصر ضعف الخلافة وقيام الدول المستقلة، ويسمى بالعصر العباسي الثاني.
ضعفت سلطة الخلافة السنيّة في بغداد منذ ذلك الوقت، وظهرت دول في الشرق والغرب أقوى عسكريّاً من الخلافة في بغداد، مثل الدولة السمنانية التي نشرت الإسلام في مناطق التركستان (الأجزاء الشمالية من وسط آسيا) في القرن الثالث الهجري، ومثل الدولة الغزنوية التي نشرت الإسلام في الهند في القرنين الـ3 والـ4 الهجريين (الـ9 و10 الميلاديين)، والدولة الحمدانية التي سجّل المتنبي وغيره أخبارها في أشعارهم، وهي التي ألحقت بالإمبراطورية البيزنطية العديد من الهزائم، وكدولة الأغالبة في تونس الحالية التي هزمت تحالف البيزنطيين والبابا وبعض ممالك أوروبا الجنوبية في القرن الثالث الهجري، وكالدولة الأيوبية وانتصاراتها على التحالف الأوروبي الصليبي في عصر صلاح الدين في القرن السادس الهجري (12 الميلادي)، وكدولة المماليك التي أوقعت أول هزيمة بالمغول في غزوهم للعالم الإسلامي.

وأعتقد أننا لو نظرنا إلى قوة هذه الدول وغيرها في ذلك الوقت، لحكمنا بأن الأمة كانت لا تزال قوية بعد القرن الثالث الهجري. والذي تجب الإشارة إليه هو أن كل هذه الدول التي ذكرناها اعترفت بالخليفة العباسي، وأعلنت ذلك رسميّاً في الدعوة إليه في مساجدها، وبإرسال قدر من المال إليه سنوياً، وكان لا بد من الحصول على موافقة الخليفة عند تسمية ولي العهد وتعيين الحاكم الجديد. ويدلُّ ذلك على أن الخليفة -رغم ضعفه الإداري وعدم ممارسته سلطة فعلية على تلك الدول- ظل يحتفظ بنفوذ روحي قويٍّ خوّل له تلك المكانة السامية بين حكام تلك الدول.

ويمكن أن نصف هذا الوضع بالنظام غير المركزي. فالنظام في الخلافة تغيّر منذ القرن الثالث الهجري من مركزي إلى لا مركزي. وحافظ المسلمون على قوتهم العسكرية والاقتصادية، بل بلغت الحضارة الإسلامية قمة مجدها في هذه الفترة، ولا بد أن ذلك تحقَّق تحت أوضاع مستقرة. إذن ليس من الإنصاف وصف أوضاع الخلافة بعد القرن الثالث

بالضعف والتفتُّت، فما حدث هو تغيُّر أسلوب الحكم من مركزي إلى لا مركزي.

ومن جانب آخر ظهرت دول مستقلة قوية لم تعترف بسلطة الخليفة العباسي السني، وكان بعض تلك الدول سنياً، مثل الدولة الأموية بالأندلس ودول المرابطين والموحِّدين والحفصيين بالمغرب، وبعضها كان شيعياً مثل الدولة الفاطمية في مصر والشام والحجاز، وبعضها الأخر كان إباضياً مثل الدولة الرستمية في الجزائر، والإمامة الإباضية في عُمان. وكانت تلك الدول قوية في أوضاعها العسكرية والاقتصادية والثقافية.

فإذا صحَّ استنتاجنا أن الأمة ما بين الهند والأندلس كانت لا تزال قوية في كل النواحي تحت النظام اللا مركزي، وتحت حكم الدول التي لم تتبع النظام العباسي اللا مركزي، فكيف كانت أوضاع المواطنة والهُويَّة في تلك الدول؟، هل تغيرت أوضاع المواطنين وانتماءاتهم بعد القرن الثالث الهجري؟، هل أصبح المواطنون في الأندلس أمويين، وفي شمال أفريقيا فاطميين، وفي غرب آسيا والمشرق الإسلامي عباسيين، وفقاً لحدود الدول وتغيّر الأوضاع السياسية التي عاشوا تحت ظلها؟، ثم ماذا حدث للسكان في الأندلس، مثلاً، في القرن الخامس الهجري بعد سقوط الأمويين وقيام المرابطين؛ هل تغيّرت هُويَّتهم من أمويين إلى مرابطين؟، وما الذي حدث في مصر بعد سقوط الفاطميين وقيام الأيوبيين: هل تغيّرت هُويَّة السكان من فاطميين إلى أيوبيين، ثم إلى مماليك، ثم إلى عثمانيين؟.

في واقع الأمر لم تتغيّر أوضاع الأمة والمواطنين التابعين لتلك الدول، وما حدث هو تمدُّد مفهوم الأمة والمواطنة ليشمل أفراد الأمة في ما وراء الحدود، وهو المفهوم الذي أشار إليه كل من الخليل بن أحمد والزبيدي. وكان انتماء المواطنين في مصر وفي الأندلس وفي العراق وإيران والهند وعُمان، للأمة. وكان الإحساس بالمواطنة العامة قوياً لدرجة لم يشعر معها أي مواطن - بغضِّ النظر عن عرقه أو دينه - بالغربة في أي مكان في البلاد الإسلامية.

كانت حدود كل تلك الدول - السنية والشيعية والإباضية، التابعة للخلافة وغير التابعة لها - مفتوحة أمام كل أفراد الأمة، يتجوَّلون حيث شاءوا، يستقرّون في أيِّ مكان في الدول الإسلامية، ويتمتّعون بكل الحقوق والواجبات المتساوية في كل منطقة. وهذه الأوضاع لا تتحقَّق اليوم للمواطنين إلا تحت ظلّ الوحدة السياسية. فالمواطن في الدول الإسلامية قبل الاستعمار كان يتمتّع بكل الامتيازات التي توفِّرها اليوم الوحدة السياسية، ولذلك فإنه لم تكن هناك صلة في الدول الإسلامية - في تراثنا - بين الحدود السياسية وامتيازات المواطنين. فهذه الظاهرة -التي ربطت بين حقوق المواطنة والحدود السياسية- وليدة الدولة

القومية التي ظهرت حديثاً في الغرب، ولا صلة لها ولمفاهيمها بتراثنا الإسلامي.

كان شعور الانتماء إلى الوطن الإسلامي الكبير -إذن- قوياً، فالبخاري من آسيا الوسطى لم يشعر بعدم الانتماء أو بالغربة وهو يعيش في مكة ويؤلف كتابه في الحديث. والشعور بالمواطنة والانتماء هو الذي مكّن ابن بطوطة من الاستقرار والعمل قاضياً في الهند، رغم أنه أتى من المغرب. والإحساس العالمي بالمواطنة والتمتُّع بالحقوق الكاملة، في أية بقعة من الوطن الإسلامي الكبير، هو الذي أدّى إلى انتشار شركات اليهود التجارية من الأندلس إلى شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي وفارس والهند، حتى جنوب شرق آسيا.

كان الشخص يعرف في السابق بانتمائه المحلي مثل البغدادي والطبري والبخاري، أو بانتمائه الإقليمي مثل الأندلسي والمغربي، أو بانتمائه القبلي مثل القرشي أو الجهني، أو بانتمائه المذهبي مثل المالكي والشافعي. لكنّ انتماءه العام الثابت الذي لا يتغيّر بتغيُّر الحدود السياسية كان إلى الأمة، فهو مواطن يتمتّع بكل حقوق المواطنة في أية دولة من دول الأمة.

والخلاصة، أن هُويَّة المواطن في المفهوم الإسلامي عالمية لا تعرف الحدود، فقد ارتبطت خلال القرون الثلاثة الأولى بالحدود السياسية، لأن دولة الخلافة كانت تمارس سلطاتها المركزية على كل أراضي الخلافة. ثم عبَّرت المواطنة والهُويَّة العالمية في عصر اللا مركزية وتعدُّد الدول منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) عن نفسها بحرية الحركة وبالمساواة في الحقوق في الوطن الإسلامي الكبير. ومن نافلة القول إن هذا المفهوم كان سائداً والشعور بالانتماء العالمي كان قويّاً بين أفراد الأمة إلى ما قبل امتداد الاستعمار إلى الدول الإسلامية.

ولعله من المفيد ومما يساعد في زيادة توضيح مفهوم الهُويَّة والوطنية، معرفة كيف كانت دلالات بعض المصطلحات المتعلقة بهذه القضية في اللغة العربية في تلك الأوقات المبكرة، مثل الهُويَّة والوطن والقومية، للوقوف على مدى اختلاف دلالاتها السابقة عن الدلالات الحالية.

الهُويَّة والوطن والقومية

لا صلة البتة بين معنى الهُويَّة في اللغة العربية المبكرة بمعنى الهُويَّة الحالي. فالهُويَّة، كما

عرفها الجوهري، «موضع يَهوي مَن عليه، أي يسقُط».[1] وقد ارتبط معناها الاصطلاحي عند الجرجاني بـ«الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. والهُويَّة السارية في جميع الموجودات».[2] وعن الوطن جاء في (لسان العرب): «الوَطَنُ يعني المَنْزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحله، والجمع أَوْطان، وأَوْطَنْتُ وَطْناً لم يكن من وَطَني.. قال ابن بري في شعر رؤبة:

أَوْطَنْتُ أَرضاً لم تكن من وَطَني   كَيْما تَرَى أَهلَ العِراقِ أَنني

وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ: أَقام، وأَوْطَنَهُ: اتخذه وَطَناً. يقال: أَوْطَنَ فلانٌ أَرض كذا وكذا أَي اتخذها محلاً ومسْكَناً يقيم فيها.. والمَوْطِنُ مَفْعِلٌ منه، ويسمى به المَشْهَدُ من مشاهد الحرب وجمعه مَوَاطن، وفي التنزيل العزيز: «لقد نصَركُمُ اللهُ في مَوَاطن كثيرة»، وقال طَرَفَةُ:

على مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتَى عنده الرَّدَى   متى تَعْتَرِكْ فيه الفَرائصُ تُرْعَدِ

وأَوطَنْتُ الأَرض ووَطَّنْتُها تَوطِيناً واسْتَوْطَنْتُها: أَي اتخذتها وَطَناً».[3]

وقد تردّد معنى الوطن بهذه الصورة في القواميس العربية الأخرى، مثل (الصحاح في اللغة) للجوهري، و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي، و(المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد. ولم يرد لكلمة (الوطنية) في القواميس المشار إليها ما نفهمه اليوم من معنى هذه الكلمة. فعلى الباحثين في اللغة العربية تتبُّع تاريخ الكلمة ومتى بدأ شيوع هذا المفهوم عند متحدّثي اللغة العربية. فالوطن في تراثنا لم يرتبط بضرورة الإقامة الدائمة، وتبديل الوطن يخضع لحكم الشخص، ولا تحدّده قواعد إقامة أو قوانين هجرة، كما هو الحال اليوم. وعن القومية يقول ابن دريد: إن القُوميّة معناها «القَوام أو القامة. قال الراجز:

أيّامَ كنتُ حَسَنَ القُوميّةْ   ترى الرجالَ تحت مَنْكِبَيَّهْ»[4]

وذكر الخليل بن أحمد: «فلان ذو قومية على ماله وأمره. وهذا الأمر لا قومية له، أي: لا قوام له، قال:

---

[1]. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، (موقع الوراق)، ج 1 ص 458.

[2]. الجرجاني، الشريف علي بن محمد، التعريفات، (موقع الوراق)، ج 1 ص 83.

[3]. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، ج 13 ص 451.

[4]. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، (موقع الوراق)، ج 2 ص 51.

ألم تر للحق قوميّةً... وأمراً جلياً به يهتدى»[1].

ولم يرِدْ غير هذه المعاني للقومية في المعاجم العربية المبكرة.

وكذلك كلمة قُطْر بمعناها السياسي الحالي الذي يدل على بلد معيّن بحدود سياسية معلومة – مثل القطر السوداني والمصري- لم تكن معروفة بهذا المعنى في اللغة العربية المبكرة. جاء في لسان العرب: «القُطْر بالضم: الناحية، والجانب والجمع أَقْطار، وفي التنزيل العزيز: «من أَقطار السموات والأَرض». أقطارُها: نواحيها، واحدها قُطْر. أقطار الخيل والجمل: ما أَشْرَفَ من أَعاليه. وأَقطارُ الفَرس والبعير: نواحيه».[2]

فمثل هذه المصطلحات الغربية الحديثة لم تكن معروفة في تراثنا بمفاهيمها المعاصرة نفسها. وقد تطوَّرت هذه المفاهيم في الغرب في العصر الحديث نتيجة تطوُّرات سياسية واجتماعية واقتصادية استمرّت عدة قرون، تولّدت عنها في النهاية هذه المصطلحات لتعبِّر تعبيراً وافياً وصادقاً عن أوضاع تلك المجتمعات.

علينا التعرُّف على تلك المصطلحات ومن أين أتت إلينا، لا لرفضها أو شجبها، ولكن للتمكّن من التعامل معها، فهي أساساً وجدت لمعالجة أحوال مجتمعات مختلفة، في كل أوضاعها، عن أوضاعنا الحالية. ومن الضروري وضع هذه الحقيقة في حسباننا، أي يجب أن نفهم كيف أدّت الأوضاع هناك إلى وجود دولة مثل سويسرا تعيش في حالة استقرار سياسي واجتماعي وهي تتكوّن من مجموعات عرقية ولغوية مختلفة. فهم يعيشون ذلك لأنه جزء من تراثهم واختيارهم. أما نحن فلا نعيش تراثنا ولَم نختر أوضاعنا الحالية – اسم دولتنا وحدودها – لأن الإنجليز هم الذين اختاروها لنا. فكيف كان مفهوم المواطنة قبل عصر الاستعمار؟.

كيف كان مفهوما «المواطنة» و«الهُويّة» في ممالك السوان قبل الغزو التركي؟

ذكرنا في ما سبق أن الهُويّات بمفهومها الحالي وليدة الفكر الأوروبي الحديث، فكيف اكتسبنا هذا المفهوم للهُويَّة؟. لا بدّ أيضاً من معرفة كيف كان الوضع عندنا قبل أن يصل إلينا هذا

[1]. الخليل بن أحمد، معجم العين، مرجع سابق، ج 1 ص 416.

[2]. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 5 ص 105.

المفهوم الغربي؟. وضعنا الحالي هو امتداد لما بعد حلول الأجنبي أرض السودان وانتهاء فترة الحكم الوطني، ويبدأ الحكم الأجنبي في السودان بالغزو التركي عام 1821م، فكيف كان الوضع في السودان قبل الغزو التركي؟.

كانت هناك الممالك المعروفة في التاريخ، التي حكمت ما يعرف اليوم بالسودان الشمالي وهي: سلطنة دارفور، وسلطنة المسبعات، ومملكة تقلي، وسلطنة سنار والمناطق التابعة لها شمالاً وشرقاً. أما في جنوب السودان فكانت هناك التنظيمات السياسية للقبائل النيلية الكبرى التي كانت على صلات بممالك الشمال، نلمسها في صلات وامتداد سلطنة دارفور نحو الجنوب والجنوب الشرقي، كما نلمسها في صلات وامتداد سلطنة سنار نحو الجنوب. فكيف كان مفهوم المواطنة والهُويَّة بين سكان تلك الممالك؟.

سنهتمُّ هنا بإلقاء نظرة سريعة على السكان في تلك الممالك التي حكمت السودان الشمالي من حيث الانتماء، للتعرُّف على أوضاع المواطنين وتلمُّس هُويَّتهم. بالتأكيد لم تكن سمات المواطنة بينهم كما هي اليوم، لأن سمات المواطنة اليوم لم تكن قد سادت – قبل الغزو التركي للسودان – في أوروبا نفسها، ولذلك لا سبيل لوصولها إلى السودان في ذلك الوقت. وبما أن السودان الشمالي قبل الغزو التركي كانت تحكمه ممالك إسلامية؛ فنفترض أن يكون أساس المواطنة هو ما كان مفهوماً وسائداً بين المسلمين منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، أي منذ عشرة قرون قبل الغزو التركي؛ ذلك المفهوم الذي لا يربط المواطنة بالدولة والحدود السياسية. فهل كان ذلك المفهوم سائداً بين سكان الممالك الإسلامية في السودان قبل الغزو التركي؟.

نرجع هنا فقط إلى ما سبق أن وضحناه، وهو أن المواطنة في التراث الإسلامي لم تعرف الحدود السياسية، وأن كل السكان يتمتَّعون بحقوق متساوية أينما حلّوا في الدول الإسلامية، وأن شعور الانتماء كان قويّاً بينهم. وسنكتفي بإعطاء بعض الأمثلة من كتاب (الطبقات) لمحمد النور بن ضيف الله، لتساعد على توضيح أن هذه المفاهيم كانت سائدة بين السكان في الممالك الإسلامية قبل الغزو التركي. فالتصفُّح السريع للكتاب يشير بوضوح إلى الصلات القوية التي ربطت السكان في كل المنطقة الواقعة من سواحل البحر الأحمر شرقاً والممتدة إلى ما وراء حدود دارفور الحالية غرباً. تلك الصلات التي لم ترتبط أو تتأثَّر بالحدود السياسية للممالك والدول التي قامت في هذه المنطقة.

ومن المعروف أن ترجمات ود ضيف الله انحصرت «على الجزء الشمالي من الجزيرة خاصة شواطئ النيل الأزرق، والمنطقة الممتدة بين دنقلا وملتقى النيلين، وتطابق هذه المنطقة دائرة نفوذ العبدلاب السياسي»[1]. وبالرغم من أن مناطق التراجم محدودة، واقتصرت فقط على جزء من مملكة سنار، ولم تتعدَّ إلى مناطق وممالك السودان الأخرى؛ إلا أنها عكست صورة جلية للشعور القوي بالانتماء العام الذي لا تفصله الحدود ولا تحدّه الدول. وقد تتبَّعتُ سريعاً الإشارات التي وردت في كتاب (الطبقات) عن المناطق المجاورة لسلطنة سنار شرقاً وغرباً، التي يدخل جزءٌ كبير منها في حدود جمهورية السودان الحالية، وضمّنتها الجدول التالي.

- **جدول رقم (1) تكرار ذكر المناطق في كتاب (الطبقات):**

اسم المنطقة	عدد المرات		
	مباشر في النص	غير مباشر في النص	المجموع الكلي
غرب السودان وما جاوره غرباً	45	56	101
شرق السودان وما جاوره شرقاً	22	16	38
جنوب السودان	6	2	8
جبال النوبة		2	7
المجموع	78	76	154

الجدول من إعداد المؤلف

يوضح الجدول عدد الإشارات التي وردت عن تلك المناطق بصورة مباشرة في النص، مثل: كردفان، المسبّعات، النيل الأبيض، البحر الأحمر، سواكن، الشلك، الفور، كنجارة، برنو، برقو، التنجور، دار صليح، جبال النوبة، وتقلي، وكذلك الإشارات التي وردت بصورة غير مباشرة وارتبطت بتلك المناطق، ووضحت الحاشية انتسابها، كما سيتضح في بعض الأمثلة التالية. لكن أنبِّه إلى أن الأرقام الواردة في الجدول لا تمثِّل إحصاءً دقيقاً، فهي

---

[1]. محمد النور ود ضيف الله، الطبقات، تحقيق: يوسف فضل حسن، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، الطبعة الثالثة، 1985م، مقدمة المحقِّق، ص 20.

عبارة عن مسح عام لإلقاء نظرة سريعة على المادة التي وردت عن تلك المناطق.

عدد المرات التي ورد فيها ذكر للمناطق أدناه في كتاب (الطبقات):

المجموع الكلي للإشارات (154)، وهذا الرقم الكبير يشير إلى الصلات القوية التي ربطت منطقة سنار بالمناطق المجاورة لها. ونأخذ بعض الأمثلة لتلك النصوص. ورد عن الصلات بالمنطقة الشرقية في ترجمة الشيخ إدريس محمد الأرباب[1] الذي ولد بالعيلفون وتوفي بها عام 1060هـ أن الشيخ محمد ود فايد حوار الشيخ إدريس «يأتي في كل عام من البحر المرّ وتحضر معه قبائل الشرق عرب أُكُد وعرب التاكة وغيرهم لزيارة شيخه». والشيخ محمد بن فايد[2] ولد بساحل البحر الأحمر ربما بالقرب من مصوع وأخذ الطريق من الشيخ إدريس.

وعن الصلات بالمنطقة الغربية ورد أن الشيخ إدريس أخبر «أن دار الغرب يملكها سرايا فور من الحرازة أم قَد إلى الكنيسة الرقطاء، وفي رواية من الترعة الخضراء»[3]، وعلّق المحقّق أن الإشارة هنا إلى تغلُّب قبيلة الكنجارة وبسط نفوذها على قبائل الفور وما جاورها[4]. ويرى المحقّق أنه لو صحت «رواية الترعة الخضراء التي قيل إنها على النيل الأبيض شمال الدويم، فإن الإشارة ربما انصرفت إلى موضع حديث إذ لم يثبت أن نفوذ مملكة الفور قد بلغ الدويم»، وبالطبع لم يثبت أيضاً أن نفوذ مملكة الفور - ربما في بعض الأوقات - لم يصل إلى منطقة الدويم.

كما ورد عن الشيخ أرباب بن علي بن عون[5] المتوفى بسنار عام 1102هـ أن عدد طلبته بلغ ألف طالب ونيِّف من دار الفونج إلى دار برنو. وقد انتقل الشيخ أبو سرور الفضلي الجعلي الذي ولد بالحلفايا إلى دارفور ودرس فيها. ثم انتقل إلى دار صليح ودرس وتوفي فيها[6]. وفي ترجمة الشيخ القدال[7] (النيل الأبيض) ذُكِر أن عدد طلبته بلغ ألف طالب، وقيل ألفين، وقد

---

[1]. المرجع نفسه، ص 57.

[2]. المرجع نفسه، ص 323.

[3]. المرجع نفسه، ص63.

[4]. المرجع نفسه، ص 63، حاشية رقم 12 و13.

[5]. المرجع نفسه، ص 100.

[6]. المرجع نفسه، ترجمة رقم 38 ص 105.

[7]. المرجع نفسه، ترجمة الشيخ القدال رقم 20 ص 80.

بلغ عدد الطلبة التكارير أكثر من ألف طالب.

تقع دار برنو ودار صليح ودار التكارير التي وردت في النص إلى الغرب من دارفور. والمفهوم العام بين السودانيين يخلط أحياناً بين هذه المناطق. ومن المعروف أن دار صليح تجاور دارفور غرباً. أما بلاد البرنو فقد كانت تمثّل الجزء الشرقي من مملكة كانم -برنو الإسلامية- التي تأسّست في تشاد في القرن الثاني الهجري (الـ8 الميلادي)، ولا يزال الاسم يعيش إلى اليوم في ولاية برنو في دولة نيجيريا.

أما بلاد التكرور فهي المنطقة الواقعة على نهر السنغال في غرب أفريقيا. قال ياقوت الحموي: «تكرُورُ، براءين مهملتين: بلاد تنسب إلى قبِيل من السودان في أقصى جنوب المغرب»[]. والتّكرور هم أول الشعوب التي أسلمت في المنطقة، وقد تأسّست في بلادهم دولة المرابطين المشهورة في التاريخ الإسلامي. ومن جبال النوبا جاء في ترجمة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة بن الشيخ مكي الدقلاش «أن أمه خَيرة سَقرناوية أهداها للشيخ مكي سلطان تقلي فحملت منه... وولدت إسماعيل، فقال لطلبته يا دقالشة جاكم شيخكم»[]، والسقرناويون هم ملوك مملكة تقلي في إحدى الروايات.

وجاء في ترجمة الشيخ الإمام تاج الدين البهاري خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه ولد في بغداد وقَدِم إلى السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (أواسط القرن الـ16 الميلادي)، وأقام بالجزيرة سبع سنين، وسلّك خمسة رجال منهم الشيخ محمد الهميم، والشيخ بان النقا الضرير، وحجازي باني أربجي ومسجدها، وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية، والشيخ عجيب الكبير... وقيل سلّك أربعين إنساناً... وقيل سافر إلى تقلي[].

وعن الشلك جاء في ترجمة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة قصة الصبي الذي خطفه الشلك وطلبت والدته من الشيخ إرجاعه. وبعد وقت قصير وجدوا الصبي بينهم، وعندما سألوه عن كيفية قدومه قال لهم: «أنا هذه الساعة باكُل مع أولاد شُلُك في لحم سمك في مركب جاءني عُصار وجابني هنا»[].

[]. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، معجم البلدان، (موقع الوراق)، ج 1 ص 419.

[]. ود ضيف الله، الطبقات، مرجع سابق، ترجمة رقم 29 ص 91.

[]. المرجع نفسه، ترجمة رقم 56 ص 127.

[]. المرجع نفسه، ص 92.

ومن أمثلة الإشارة غير المباشرة إلى المسبعات في ترجمة[1] الشيخ مختار بن محمد جودة الله حينما نصح الفقيه سلطان دارفور بعدم حرب دكيم حاكم كردفان من قبل الفونج. كما ورد أن «الشيخ عبد الله بن العجوز... أعطاه الله القبول التام عند الخاص والعام... ولد بدار الغرب وأصله من بني محمد توفي بموية جبل معروف بالصعيد في أيام الملك بادي ولد نول، وقبره ظاهر يزار»[2]. ويقول محقِّق الطبقات: «بني محمد فرع من قبيلة ثعلبة، ولهم صلة قربى بالمسيرية. موطنهم الآن مديرية كردفان خاصة الجزء الشمالي الغربي منها، حول بارا والمزروب والأبيض. وجبل موية غرب سنار»[3]. ويرى يوسف فضل أن الشيخ عبد الله عاش في عهد السلطان بادي الرابع أبو شلوخ بن نول 36 – 1175 هـ / 24 – 1762م.

لعل هذه الأمثلة البسيطة توضح كيف كانت العلاقات الثقافية بين أفراد الممالك الإسلامية في السودان قبل الغزو التركي. فالطلبة والشيوخ من مختلف المناطق ما بين دارفور والمناطق الواقعة غربيها إلى سواحل البحر يوجدون في دور العلم (الخلاوي والمسايد) والشيوخ يتنقلون من مكان إلى آخر، كل ذلك يحدث دون الحاجة إلى أوراق ثبوتية أو تأشيرات دخول أو إجراءات إقامات أو تحويلات مالية. فماذا يعني هذا غير الشعور القوي بالانتماء، الشعور بالمواطنة والهُويَّة التي لا تعرف الحدود السياسية والعرق والدين واللغة؟، ما الذي حدث لهذا الإحساس بعد نهاية تلك الممالك؟.

الهُويَّة القومية، كيف اكتسبنا هُويَّتنا الحالية؟ وهل هي هُويَّة زائفة؟

رأينا في ما سبق أن المواطن في الممالك التي قامت في السودان قبل الغزو التركي كان ينتسب إقليمياً أو قبليّاً مثل سناري أو دارفوري أو سقرناوي، وإلى جانب هذا الانتساب كان هناك إحساس بالانتساب أيضاً إلى مناطق وممالك الجوار. ولم يكن المواطن الدارفوري يعتبر غريباً في سنار، والحقوق نفسها يتمتّع بها المواطن السناري في دارفور، فالإحساس بالانتماء للمواطن الدارفوري أو السناري لم يرتبط بحدود الممالك، بل كان ارتباطاً عاماً تعدّى حدود الدولة. فكأننا أمام هُويَّة عامة تمتّع بها مواطنو الدول المتجاورة، مثل سنار ودارفور

[1]. المرجع نفسه، ص 346.

[2]. المرجع نفسه، ص 270.

[3]. المرجع نفسه، ص 271، حاشية 1و2.

والمسبّحات وتقلي. كيف ومن أين أتى هذا الإحساس بالانتماء العام؟. الجواب بسيط كما ذكرنا سابقاً؛ من أن وظيفة الحدود السياسية بين الدول في تراثنا السابق للعصر الاستعماري اختلفت عن وظيفة الحدود السياسية التي قامت بعد الاستعمار كما سيتضح ذلك.

أنهى الغزو التركي تلك الممالك المحلية في السودان، ثم تلت فترة الأتراك سنوات قليلة من حكم الدولة المهدية، ثم جاء الغزو الإنجليزي المصري الذي عرف بالحكم الثنائي، إلى أن استقل السودان عام 1956م. وقد أزالت فترات الاحتلال التركي والإنجليزي الحدود بين تلك الممالك المحلية، وأضافت إليها بعض المناطق في الجنوب، مكوِّنة الدولة التي وجدنا أنفسنا داخلها بعد الاستقلال. ومن المفترض أن لا تكون هناك مشكلة في الهُويّة، لأن كل السكان الذين تكوّنت منهم الدولة الوليدة كانوا يحسون بالانتماء العام والهُويَّة المشتركة وهم يعيشون في ممالك مختلفة، فمن المفترض أن يَقوى الإحساس بالانتماء والشعور بالهُويَّة الواحدة، لأنهم الآن أصبحوا يعيشون في دولة واحدة.

فهل تحقّق ذلك؟. لم يتحقَّق ذلك لأسباب كثيرة يمكن أن نجملها في نتائج التحولات العالمية والإقليمية والمحلية الكبيرة التي شهدها العالم في القرن العشرين. تعرَّضت الهُويَّة في الدولة الواحدة إلى هزّات قوية تحت ظل الإدارة الاستعمارية، فأدّت إلى إضعاف الشعور العام بالانتماء، وترتّب على ذلك فقدان الإحساس بالهُويَّة العامة، مما أدى إلى تطوُّر الهُويَّتين المحليتين؛ القبلية والإقليمية، اللتين مهَّد لهما الاستعمار وشجَّع على نموِّهما وتطوُّرهما. فما تلك الهزات القوية التي أضعفت الانتماء والهُويَّة العامة؟.

كانت تلك الهزات القوية نتائج للتحوُّلات العالمية الكبرى منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، المتمثِّلة في الصراع الغربي الذي انتهى بحربين عالميتين. ولم ينحصر تأثير تلك الأزمات والحروب على الغرب فقط، بل انعكست بطرق مباشرة وغير مباشرة على كل الشعوب، وبخاصة تلك التي كانت خاضعة للاستعمار.

وقد كانت لقارة أفريقيا – إلى جانب المؤثِّرات السياسية والاقتصادية العالمية – أوضاعها الإقليمية الخاصة. فروّاد حركات التحرُّر من الاستعمار في أفريقيا، وهم يخوضون نضالهم للتخلُّص من المستعمر، تأثَّروا بعاملين مهمين أثَّرا تأثيرات كبيرة، بل وجَّها سياسات وبرامج دول أفريقيا بعد الاستقلال. أحد هذين العاملين يتمثَّل في الأثر الكبير للأوضاع الاجتماعية والثقافية لمجموعات كبيرة من السكان ذوي الأصول الأفريقية في الغرب، وبخاصة في أمريكا ومنطقة الكاريبي. فقد أدَّت حياة الرق التي خضعوا لها لمدة طويلة إلى

اهتمامهم بأوضاع القارة الأفريقية باعتبارها القارة الأم، وتوثيق صلاتهم بها، وقاد مثقَّفوهم تلك التحرُّكات التي تمخَّضت - إلى جانب جهود المثقفين الأفارقة - عن ظهور دعوات تمجيد اللون الأسود، وأفريقيا للأفريقيين، والنضال من أجل القارة.

العامل الثاني هو وجود أعداد كبيرة من المستوطنين البيض في أفريقيا جنوب الصحراء، الذين كانوا - إلى جانب سيطرتهم على الموارد الاقتصادية - يمارسون سياسة تمييز وفصل عنصري حادة، جرَّدت المواطنين من كل الحقوق. فأصبح المواطنون عمالاً وأجراء في منازل ومزارع ومصانع البيض. وترتب على ذلك ظهور الآراء التي لم تنادِ فقط بحقوق المواطنين الأفارقة، بل نادى كثير منها بإجلاء البيض من القارة الأفريقية.

أثَّر هذان العاملان تأثيراً مباشراً على أفكار وسياسات قادة أفريقيا بعد الاستقلال، وبخاصة التغنّي باللون الأسود، وتبنّي شعارات الأفريقية أو الأفريقانية، وأفريقيا للأفريقيين، وإجلاء البيض من أفريقيا. يلاحظ أن شمال أفريقيا رغم وقوعه تحت الاستعمار إلا أن أوضاعه اختلفت عن باقي أوضاع القارة الأفريقية، فشعوبه لم تتعرَّض للاسترقاق، ولم يمارَس فيه التمييز والفصل العنصريين بالدرجة التي مورس بها في أفريقيا جنوب الصحراء.

إلى جانب كل تلك المؤثِّرات الخاصة بالقارة الأفريقية، كان هناك أيضاً أثر آخر قوي، ولا يزال يؤثِّر على أوضاع الهُويَّة؛ ذلك هو قيام الدول القومية بعد الاستقلال. فعندما توِّج النضال ضد الاستعمار بالاستقلال، كان أول الأسئلة الصعبة التي واجهت القادة هو اسم هذا الكيان السياسي الذي تكوَّن بعد الاستقلال. مع ضرورة ملاحظة أن أغلب الكيانات السياسية التي تكونت بعد الاستقلال لم يعتمد قيامها على كيانات سياسية سابقة، سواء أكان في حدودها السياسية أم في أسمائها.

فمثلاً عندما استقل السودان واجَه روّاد الاستقلال مشكلة الاسم؛ ما اسم هذا الكيان السياسي الوليد؟. الاسم الذي وجدوه هو (السودان) ولا صلة لهذا الاسم بأية دولة قامت على تراب هذه الأرض في تاريخها. هل يأخذوا هذا الاسم أم يرجعوا إلى الأسماء التي عُرِفت في تاريخنا؟، هل يأخذوا اسم سنار أم كوش أم ماذا؟. ويبدو أنهم لم يكونوا قد درسوا الأمر دراسة مسبقة، ولم يعطوه ما يستحقه من الاهتمام إلا عندما واجهتهم المشكلة. وأخيراً رجّحت الأغلبية الأصوات التي نادت باختيار اسم السودان، وهو الاسم الذي اختاره الإنجليز لمستعمرتهم التي وضعوا حدودها السياسية وأطلقوا عليها السودان

الإنجليزي المصري. وكانت هناك مستعمرة أخرى فرنسية اسمها (السودان الفرنسي) إلى الغرب من السودان الإنجليزي، كانت لا تزال تحمل ذلك الاسم عندما حقَّق سكان السودان الإنجليزي استقلالهم.

وهكذا اخترنا لدولتنا القومية الاسم الذي اختاره الاستعمار الإنجليزي وهو (السودان) بحدوده السياسية التي رسمها الاستعمار الإنجليزي. وبحكم مفهوم الدولة القومية التي تربط هُويَّة المواطن بحدود دولته، فقد أصبحنا سودانيين، هُويَّتنا سودانية. من أين جاءتنا هذه الهُويَّة؟، أو من أعطانا هذه الهُويَّة؟، أو كيف اكتسبنا هذه الهُويَّة؟. الإجابة بسيطة وسهلة وهي: الاستعمار الإنجليزي. هل نحن فخورون جدّاً بهذه الهُويَّة؟.

الهُويَّة في عالمنا المعاصر مرتبطة بالدولة القومية التي أتتنا من الغرب. وقد أتت الدولة القومية في الغرب نتيجة صراعات سياسية ودينية واقتصادية، وخاضت أوروبا الكثير من الحروب إلى أن استقرّت فيها أوضاع الدولة القومية بحدودها التي حاربوا من أجلها وخططوها بأنفسهم وفقاً لعوامل كثيرة مثل العرق واللغة والعقيدة والتاريخ والجغرافيا. أما الدولة القومية في أفريقيا -مثلاً- فهي كيان خططه المستعمر بالتراضي مع المستعمر الآخر، ووفقاً لمصالحه الخاصة.

لم يراعِ المستعمر أوضاع السكان المحليين كثيراً في تخطيط حدود الدول. فالقبيلة تقسم بين دولتينِ كما حدث في كل حدود السودان الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية. هل اختار أهل حلفا مثلاً أن يكونوا سودانيين؟ لا، لو ضم الإنجليز منطقة حلفا إلى مصر لكان الحلفاويون اليوم مصريين، ولكانوا فخورين بكونهم مصريين. هذه الحدود التي أعطتنا هوياتنا يُطلَق عليها في الغرب الحدود الزائفة؛ لأنها لا تعبِّر تعبيراً صادقاً عن واقع الناس. وقد قبلت الدول تلك الحدود الآن إقراراً للأمر الواقع وخوفاً من الحروب. ولكنها فعلاً حدود زائفة، وما دامت هذه الحدود - التي رسمها الاستعمار - هي التي أعطتنا هويَّاتنا؛ فهويَّاتنا هُويَّات زائفة. هويَّاتنا قابلة للتغيّر في أي وقت، لو انسلخ -مثلاً- جزء من حدودنا الشرقية وانضم إلى دولة إريتريا ستصبح هُويَّة المواطن إريترية بدلاً من سودانية، والعكس صحيح. وما دامت هناك مشاكل حدود بين كل دول الجوار، فاحتمال حدوث مثل هذا الأمر وارد، وبالتالي احتمال تغيّر الهُويَّات وارد أيضاً.

ونعود إلى مشكلة هُويّتنا، ما هو أصل ومعنى كلمة (سوداني)؟ وهل نجد حلاً لمشكلة هُويَّتنا في التاريخ؟ وأين هو تاريخنا؟ وكيف نحس به؟.

أصل ومعنى ومفهوم كلمة هُويَّتنا «سوداني»

دعونا نتعرَّف على هويَّتنا في كلمة (سوداني) التي وصفناها بالزائفة. لماذا أطلق الإنجليز على مستعمرتهم اسم (السودان الإنجليزي المصري)؟، ولماذا أطلق الفرنسيون أيضاً على مستعمرتهم -في غرب أفريقيا- اسم (السودان الفرنسي)؟. كلنا يعلم أن اسم السودان هو المقابل العربي لكلمة Ethiopians ذات الأصل اليوناني التي أطلقت على الشعوب ذات اللون الأسود، وأصبحت علماً على كل سكان أفريقيا جنوب الصحراء ما بين المحيط الأطلنطي غرباً والبحر الأحمر والمحيط الهندي شرقاً. وعندما جاء العرب بعد الإسلام أطلقوا كلمة السودان (جمع سود) عَلَماً على سكان أفريقيا السود، وعرفت بلادهم ببلاد السودان.

ولذلك أطلق الفرنسيون على الجزء الذي احتلوه من بلاد السودان اسم السودان الفرنسي. وبعد هزيمة الإنجليز للدولة المهدية أطلقوا على مستعمرتهم اسم (السودان الإنجليزي المصري). فالإنجليز كانوا مسيطرين على مصر، وأدخلوا اسم مصر معهم في حكم السودان لأسباب معروفة لا تدخل معنا في ما نحن بصدده هنا. وهكذا أصبح اسم السودان علماً على المناطق التي كانت تحت حكم سلطنات دارفور والمسبعات وتقلي وسنار، إلى جانب مناطق الشمال حتى وادي حلفا ومناطق الجنوب الحالية.

وقد ارتبطت كلمة السودان في المصادر والكتابات العربية، في فترة ما قبل الاستقلال؛ بالرقيق الأسود. فقد عرف العالم في تلك الأوقات الرقيق الأبيض والرقيق الأسود. واشتهر الرقيق الأسود بين العرب، وبخاصة في المناطق الوسطى والجنوبية لشبه الجزيرة العربية؛ لقربها من سواحل أفريقيا الشرقية، فكان أغلب رقيقهم من اللون الأسود، ولذلك ارتبط هذا اللون في أذهان العرب بالرق. وأعتقد أن أغلب السكان في سوداننا الحالي – وبخاصة خارج المدن – لم يكونوا على علم بأن الإنجليز أطلقوا على بلدهم هذا الاسم، وربما لم يكن اسم (السودان) يعنيهم كثيراً في بداية الأمر، فكان تعريف المواطن في هذه المناطق – إن احتاج إلى ذلك – عن طريق قبيلته أو منطقته، مثل: هدندوي، أو حلفاوي.

فماذا كانت تعني كلمة (سودان) لسكان منطقة السودان المصري الإنجليزي؟.

لست أدري ما كانت تعنيه كلمة (سودان) لسكان وسط وشرق وغرب المستعمرة الإنجليزية المصرية، أو كما يرى البعض، وأنا منهم؛ «المستعمرة الإنجليزية التركية» وهذا أمر

جدير بالبحث والتوثيق ممن عاصروا تلك الفترة في تلك المناطق. لكنني أعرف ماذا كانت تعني كلمة (سودان) عند جيل النصف الأول من القرن العشرين في شمال السودان.

وكانت كلمة (سوداني) في الشمال -حتى العقد الأول بعد الاستقلال وصيرورتها هُويّة للمواطنين- لا تزال تعني بالنسبة للبعض (الرقيق). فكبار السن من أجيال ما قبل الاستقلال -في الشمال- لم يكونوا متحمّسين لتعريف أنفسهم بـ(سوداني) لما تحمله هذه الكلمة من دلالات الرق في مخيلتهم، ولم يكونوا يحبّون وصفهم بالسوداني. ولم يرَ بعض سكان الشمال أنهم يندرجون تحت هذه الهُويّة (السوداني) رغم تبعيتهم لحدودها الجغرافية. فمثلاً كنا نسمع من أهلنا الحلفاويين عندما كنا طلبة في طريقنا إلى مصر في ستينيات القرن الماضي حين يصل قطار الخرطوم إلى حلفا يقولون: «قطر السودان وصل».

هكذا كان فهم وإحساس كثير من سكان الشمال بهُويّتهم الجديدة التي اختارها أولاً الإنجليز اسماً لمستعمرتهم، ثم اختارها من بعدهم رواد الاستقلال علماً لهُويّتهم. اسم هذه الهُويّة الجديدة لم يكن مرغوباً فيه عند البعض ومحتقراً عند البعض الآخر. وكان محور عدم قبول ذلك الاسم هو عدم الإحساس بالانتماء إليه أو بتعبيره عنهم. صحيح أن ألوانهم سوداء، ولكن ليس هذا بالأمر الذي يجذبهم للانتماء إليه. لم يكونوا يحسون برابط آخر أو صلة أخرى تربطهم بهذا الاسم، وأظن أن موقفهم ذلك يمكن فهمه، فلا يعقل أن تقول لشخص أنت تنتمي إلى اسم (السودان) لأن الإنجليز اختاروا هذا الاسم لهذا المكان ولأن لونك أسود كما يدل عليه الاسم.

هذا على كل حال ما أراه أنا. إذ لم أرَ أيَّ رابط يقنع ذلك الجيل بقبول اسم السودان هُويّة له. لو قلنا له سنار أو دارفور أو النوبا أو علوة لوجدنا رابطاً نستند إليه في إقناع ذلك الجيل بما يربطه بالهُويّة الجديدة التي اخترناها له، لكن (السودان أو السود) ليس فيه ما يربط بالتراث أو ما يقنع أو ما يجذب. هذا كان حال الأجيال حتى منتصف القرن العشرين. فكيف كان وضع جيل ما بعد الاستقلال؟.

أنا لا ألوم من اختاروا تلك الهُويّة، ولا أقصد أنهم لم يحسنوا الاختيار أو لم يبحثوا عن اسم يرتبط بتراث الناس وله صلة قوية بالأرض التي يعيشون عليها، كل ما أودّه هو أن أنظر إلى واقع الأمور كما حدثت لمحاولة فهمها في ذلك الوقت ومحاولة التعرف على ما صاحب بروز هذه الهُويّة (السوداني) من ملابسات ومدى تأثيرها على مفهوم الهُويّة وقبولها في ذلك الوقت.

وآمل أن يشارك القارئ في إلقاء المزيد من الضوء على مفهوم أجيال ما قبل الاستقلال لمعنى (سودان) وإلى أيٍّ مدى كان إحساس تلك الأجيال بالانتماء إلى هذه الهُويَّة أو بتعبيرها عنهم. وأرجو أن نتعرّف على مدلول ومعنى وإحساس أجيال ما قبل الاستقلال بكلمة (سودان) في باقي مناطق السودان الأخرى. ثم بعد ذلك نأتي إلى كيف فهمت وقبلت أجيال ما بعد الاستقلال هذه الهُويَّة.

اللامُنْتمي وانْفصام الهُويَّة

اقتَطعت صفة (سوداني) جزءاً من مفهوم ذي دلالة عامة - وهو السودان الكبير الممتد ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر - لتكون هُويَّة لمجموعة صغيرة من ذلك الامتداد الجغرافي الواسع، وهم السكان الذين كانوا تحت الاستعمار الإنجليزي المصري، فأصبح السودان اسماً لدولتنا وهويتنا. قَبِل الشعب هذه الهُويَّة في ذلك الوقت إقراراً بالأمر الواقع، إذ لم يكن هناك استفتاء أو تداول وجهات نظر أخرى بصورة يشترك فيها سكان المنطقة عامة. لم يكن لهذه الهُويَّة الجديدة عمق زماني يرتبط بالشعب الذي كوّنته الحدود السياسية بعد الاستقلال.

فللسودان عمق زماني ومكاني يرجع إلى أكثر من ألفي سنة، لكن ارتبط بكل سكان أفريقيا جنوب الصحراء، فكان علماً لسكانها. فما هي الخصوصية التي جعلت صفة (السوداني) ترتبط فقط بسكان سوداننا الحالي؟. لا أرى أن هناك أي خصوصية، فكل سكان أفريقيا جنوب الصحراء ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر كانوا يحملون ذلك الاسم ويعرفون بالسودان، ويدين بعضهم بالإسلام ويتحدَّثون اللغة العربية، إلى جانب لغاتهم وديا ناتهم الأخرى، كما هي الحال عندنا في الدولة التي تسمّت باسم السودان.

والشعوب الأفريقية جنوب الصحراء عندما استقلت اتخذت هُويَّات خاصة بها عبَّرت عن خصوصياتها المحلية التي ارتبطت بتراثها وتاريخها، أو بمعالم مناطقها الطبيعية، مثل السنغاليين والماليين والنيجريين والغانيين وغيرهم. والشعبان الوحيدان في أفريقيا جنوب الصحراء اللذان تمسكا باسم السودان - دون أي خصوصيات محلية - هما شعب السودان الحالي والشعب الإثيوبي. اختار أهلنا هنا الاسم العربي (السودان)، واختار أهلنا في إثيوبيا الاسم الإفرنجي لكلمة السودان وهو إثيوبيا، مع ملاحظة أن الشعبين في كلا القطرين لم يشاركا في اختيار هذا الاسم، بل جاء اختياره عن طريق قياداتهما العليا.

وأذكر أنني عندما كنت أتجول في عام 1975م في جنوب تونس والجزائر والمغرب في دراسة ميدانية لموضوع دراستي للماجستير بعنوان (الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادي)؛ كان كل من سألني من أين أنا يقع في خلط، فعندما أقول لهم: «أنا من السودان»، يقولون لى: «أنت من مالي»، فأقول: «لا»، فيقولون: «من نيجيريا»، فأقول: «لا»، فيقولون: «من السنغال»، فأقول: «لا». وأعرفهم بأنني من السودان جنوب مصر، فيقول لي بعضهم: «أنت من السودان العربي»، ويقول البعض الأخر: «من السودان المصري». وفي واقع الأمر كانت تلك هي أول مرة أراجع فيها هذا الاسم باحثاً عن دلالته على هويتى. وبدأ ينتابني الخلط نفسه الذي أحسه من كان يسألني عن هويتي في الشمال الأفريقي، وبدأت الكثير من الأسئلة تدور في ذهني بحثاً عن الخصوصية التي جعلتنا نختار اسم السودان دون بقية الشعوب التي عرفت بهذا الاسم.

وعلى كل حال فإنه من الواضح أن اسم السودان لا يحمل أيَّ شيء خاص بسكان السودان الحالي يميِّزهم ويؤهِّلهم أو يميِّز منطقتهم بأخذ هذا الاسم دون غيرهم من السودانيين ومناطقهم في أفريقيا جنوب الصحراء. فاسم مالي – مثلاً – اختاره السودانيون في تلك المنطقة وأصبح اسماً لدولتهم وهُويَّة لهم لما يتضمنه من عمق زماني ومكاني وارتباطهم بذلك. فاسم مالي يرجع إلى المملكة الإسلامية المشهورة في التاريخ الأفريقي قبل القرن الخامس عشر الميلادي، التي ظهرت صورة ملكها على خرائط أوروبا المبكرة كأغنى ملك في العالم.

وعندما حقَّق السودانيون في ما كان يعرف بالسودان الفرنسي استقلالهم عام 1960م اختاروا اسم مالي لدولتهم التي قامت على بعض أراضي تلك المملكة الإسلامية الكبرى، فظهرت دولة مالي إلى الوجود. فالمواطنون السودانين هناك اختاروا اسم مالي لارتباطه بتاريخهم وتراثهم في تلك المنطقة، فهُويَّتهم الجديدة ارتبطت بعمق زماني ومكاني على الأرض التي يعيشون عليها. فالإحساس بالانتماء إلى المكان والارتباط به قوي، مما جعل للهُويَّة مكانة سامية في نفوس المواطنين يحترمونها ويلتفون حولها.

وإذا أخذنا دولة غانا كمثال آخر للسودانيين في أفريقيا جنوب الصحراء وكيف بحثوا عن هُويَّة تربطهم بالتراث والتاريخ بعد الاستقلال، نجد أن المنطقة التي كانت تعرف بساحل العاج قبل الاستقلال، اختارت اسم غانا؛ المملكة المشهورة في التاريخ الأفريقي التي سبقت مالي في قيامها وازدهارها. ورغم بُعْد حدود مملكة غانا القديمة عن منطقة ساحل

العاج إلا أنهم رأوا فيها ارتباطاً بتاريخهم الأفريقي بعمقه الزماني وهو تراث يفتخرون بالانتماء إليه.

أما الهُويَّة التي اخترناها لنا (السوداني والسودان) فهي ذات عمق زماني ومكاني كما ذكرنا منذ أكثر من ألفي سنة، لكن ذلك البُعد يتعدّى حدودنا الجغرافية ويدخل معنا كل سكان أفريقيا جنوب الصحراء. فنحن نتبع لهُويَّة لا خصوصية لها، لا ترتبط بتراب أرضنا ولا تخلق فينا الإحساس بالانتماء إليها، فهي هُويَّة بلا أصالة. هذا الإحساس بفقدان الأصالة والتراث أدى بالمواطن في سوداننا الحالي إلى البحث عن العمق الزماني والمكاني. قبل المواطن صفة السوداني لكنه وجدها خاوية لا خصوصية لها ولا ارتباط مباشراً لها بالمكان وتاريخه وتراثه، ولم يجدْ فيها ما يشدّه إلى التراث ويربطه بالأرض، ولم يتّضح له أصل ومصدر الانتماء.

أصبحت الهُويَّة مهزوزة في داخله، ولم يحدث الانسجام الداخلي للمواطن. يرى المواطن التاريخ والتراث أمامه فلا يدري هل تعبر هُويَّته عن ذلك التراث؟، وما هي الصلة بين هُويَّته والمكان؟، هل كون لونه أسود فقط يكفي ليعطيه الانتماء إلى السود الذين عاشوا على هذه الأرض منذ آلاف السنين؟. برزت مثل هذه الأسئلة في أذهان الكثير من المواطنين، واختلفت الإجابات عليها، واختلفت ردود الفعل الناتجة عن ذلك، وتطوَّر عدم الانسجام الداخلي تجاه الهُويَّة والشعور بعدم الانتماء، وبدا ما يمكن أن نصفه بظاهرة انفصام الهُويَّة في التفشّي بين كثير من المواطنين؛ فأصبح المواطن لامنتمياً مما زاد شعوره بذلك الانفصام.

عرب أم أفارقة؟

زاد انتشار التراث المحلي الذي يدّعي الانتساب إلى العرب الفجوة بين معنى الهُويَّة وواقع حال المواطن. وازداد توسُّع الفجوة بانضمام السودان إلى جامعة الدول العربية، فعزَّزت الشعور بالانتماء إلى العرب، وأصبح أغلب الشعب السوداني يبحث عن هُويَّته وأصوله خارج حدود إقامته. عمَّق كل ذلك ضعف الانتماء والإحساس بالهُويَّة الداخلية، وأدى البحث عن الانتماء إلى بروز التساؤل عند كثير من المواطنين – ما عدا القليل من المناطق – هل نحن عرب أم أفارقة؟. وارتبط الانتماء في الأذهان بين هذين الخيارين؛ عربي وأفريقي. وزاد المشكلة تعقيداً عدمُ الوعي الكامل بمعنى أفارقة؛ إذ إن أغلب الناس يعتقدون أن الأفريقي هو ذو اللون الأسود، ولما كان اللون الأسود يرتبط في الأذهان بالرق

- كما وضّحنا- فقد أصبحت صفة الأفريقي غير جاذبة، أو قل غير مستحبة، والانتماء إليها غير مرغوب فيه. وبحث أغلب المواطنين عن الانتماء بعيداً عنها، وذهبوا تلقائياً إلى الخيار الثاني وهو الانتماء إلى العرب.

فإذا كان الانتماء إلى العرب يعني الانتماء إلى الجنس العربي؛ فإن الانتماء إلى الأفريقي لا يعني الانتماء إلى جنس محدَّد، لأن الأفريقية ليست جنساً يُنتمى إليه. الأفريقي صفة لسكان القارة الأفريقية مثل الآسيوي صفة لسكان قارة آسيا. ففي آسيا الكثير من الأجناس مثل العرب والهنود والصينيين والأتراك وغيرهم، وفيها الألوان الأصفر والأبيض والأسمر، وكلهم آسيويون، وكلٌّ منهم ينتمي إلى جنسه الخاص، ولا يوجد جنس آسيوي واحد. وكذلك الأفريقي صفة لسكان القارة الذين يتكوّنون من أكثر من جنس ولون واحد. فيوجد في أفريقيا الجنس الزنجي، والجنس الذي اصطلح على تعريفه بالجنس الحامي، وخليط من هذين الجنسين وغيرهما. وتتفاوت ألوان الأجناس في أفريقيا، فيوجد بينها اللون الأبيض واللون الأسمر واللون الأسود.

فإذا ألقينا نظرة سريعة وعامة على سكان أفريقيا لوجدنا الجنس الزنجي الذي يتميَّز بقصر القامة وطول الأطراف والأنف الأفطس والشفاه الممتلئة إلى جانب الشعر الصوفي واللون الأسود. وأعداد الزنوج في القارة الأفريقية قليلة جداً مقارنة بالأجناس الأخرى، وهم محصورون في أماكن قليلة في الغابات الاستوائية. والغالبية العظمى من سكان أفريقيا تتكوّن ممن يعرفون بالحاميين وخليط من الحاميين والزنوج، وهم الذين يمثِّلون شعوب مناطق شمال أفريقيا والصحراء الكبرى وشعوب ما بين الصحراء والغابات الاستوائية وجنوبيها. وهم متداخلون في كل هذه المناطق، مثل السنغاليين والماليين والنيجريين والشلك والنوير والدينكا والإثيوبيين والماساي والأمازيغ في شمال أفريقيا والطوارق والزغاوة والمحس والبجا والصوماليين والإريتريين، ولون كل هؤلاء يتدرَّج بين الأسود والأسمر والأبيض.

فالسود والبيض والسمر في أفريقيا كلهم أفارقة ينتمون إلى القارة، ولهم أجناسهم الخاصة بهم. وسكان السودان أفارقة بوصفهم سكان القارة الأفريقية مثل المغاربة والمصريين واليوغنديين والكينيين والصوماليين، وينتمون إلى الجنس الأسمر الذي سكن منطقة وادي النيل منذ آلاف السنين، وحفظت لنا الآثار المصرية والسودانية القديمة سماته. فالمقابلة بين عرب وأفارقة مقارنة خاطئة، لا ينبغي أن نقول: هل نحن عرب أم أفارقة؟.

ينبغي أن نحذف كلمة أفارقة ونضع في مكانها اسم جنس مثل حامي أو زنجي أو خليط من هذا وذاك. ويقودنا ذلك إلى البحث عن الجنس الذي ننتمي إليه في أفريقيا. ومن الجانب الآخر فإن (سوداني) ليست جنساً، وإنما صفة لأجناس كثيرة يجمعها اللون الأسود، كما أوضحنا سابقاً. نحن في الواقع لا ندري بالتحديد ما ننتمي إليه، وما هي هُويَّتنا، وإلى أيِّ جنس ننتمي.

البحث عن الجذور

البحث عن الانتماء يعني البحث عن الأصول والجذور، هل لنا جذور على تراب الأرض التي نعيش عليها؟، وما هي؟. ويقودنا ذلك إلى التعرُّف على من عاش على تراب هذه الأرض التي نعيش عليها عبر العصور: ما هي أصولهم؟، وهل هناك صلة تربطنا بهم؟، وهل تمتد جذورنا إليهم؟. أرى أننا لو استطعنا الإجابة على مثل هذه الأسئلة لتمكنًّا من الوصول إلى جذورنا والتعرُّف على أصولنا وتأصيل هُويَّتنا بغضِّ النظر عن اسمها.

قام الكاتب الأمريكي المشهور أليكس هالي، ذو الأصول الأفريقية، في كتابه المشهور (الجذور) بالبحث عن جذور الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، بدايةً من جيله وراجعاً إلى الوراء في أمريكا، ثم في أفريقيا، إلى أن ربط جيله بجذوره الأفريقية. فكان منهج بحثه من الحاضر إلى الماضي، لأن الماضي كان غائباً عنه وغير معروف لديه.

أما نحن فسيكون سبيلنا في البحث بعكس ما قام به أليكس هالي، سنبدأ بحثنا من الماضي قادمين إلى الحاضر، لأن الماضي ماثلٌ أمامنا، لنرى هل لنا صلة بذلك الماضي؟، وهل ننتمي إليه؟. فإذا وجدنا أن هناك صلة بيننا وبين ذلك الماضي، وأن لنا صلة بالمواطنين الذين عاشوا منذ آلاف السنين على تراب هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم، وأننا ننتمي إليهم؛ لَعَرِفنا جذورنا وأصّلنا هويتنا. وإذا وجدنا أننا لا ننتمي إليهم فيعني ذلك أننا لا نزال لامنتمين، وعلينا القيام بالمزيد من عمليات البحث عن جذورنا.

ولكي نتمكّن من التعرُّف على الماضي وفهمه بصورة جليّة، ينبغي علينا أولاً التعرُّف على جغرافيا المكان الذي نودُّ دراسة تاريخه. فالأوضاع الجغرافية – باختصار شديد – تلعب دوراً كبيراً على التركيبة السكانية. وبدون الدخول في تفاصيل ومصطلحات جغرافية يمكن أن نتناول السودان من خلال ثلاث مناطق: 1. منطقة الجنوب 2. مناطق شرق النيل الأبيض ونهر النيل 3. مناطق غرب النيل الأبيض ونهر النيل.

1. المناطق الواقعة إلى الجنوب من نهر السوباط وبحر الغزال وبحر العرب: تتميَّز هذه المنطقة بالسدود والمستنقعات والغابات الكثيرة، مما جعل كثيراً من سكانها من القبائل النيلية (الشلك والدينكا والنوير) يتحرَّكون بين وقتٍ وآخر إلى خارج المنطقة، وكانوا يتحرَّكون بصورة منتظمة نحو الشمال. وقد رصدت الآثار المصرية القديمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة وصولهم شمالاً حتى الحدود المصرية الحالية، وكانوا يستقرون على طول هذه المنطقة. لذلك ينبغي البحث والتعرُّف على آثار تلك القبائل النيلية وعلى التركيبة السكانية في السودان الشمالي.
2. مناطق شرق النيل الأبيض ونهر النيل: تمتد هذه المنطقة شمالاً حتى مناطق البجا على الحدود المصرية. وتبدأ من نهر السوباط وتمتد في أرض الجزيرة ما بين النيلين الأبيض والأزرق، وامتداد المنطقة حتى الهضبة الإثيوبية. ثم تتابع المنطقة امتدادها شمال النيل الأزرق من نهر النيل غرباً وحتى الهضبة الإثيوبية والبحر الأحمر شرقاً. وتتميَّز هذه المنطقة بفروع الأنهار والأودية التي ربطت بين كل أطرافها حتى أصبحت منطقة متجانسة في طبيعتها وسكانها، مثل نهر ستيت شمال الهضبة الإثيوبية وامتداده نهر عطبرة في السودان، وخور مارب في إريتريا وامتداده خور القاش في السودان، وخور بركة وامتداده في إريتريا والسودان.

ومن الواجب أن يتّجه البحث لدراسة التكوين السكاني للمناطق الواقعة شرقي النيل الأبيض ونهر النيل لكل عناصر السكان الحاليين من صوماليين وإريتريين وإثيوبيين وسودانيين، للتعرُّف على تكوينهم المبكر وأصولهم. ويلاحظ استقرار السكان النسبي على هذه المناطق نسبة لقلّة التقلبات المناخية الكبيرة كما حدث في المنطقة التالية.

3. مناطق غرب النيل الأبيض ونهر النيل: تقع هذه المنطقة ما بين بحري الغزال والعرب جنوباً حتى الحدود المصرية شمالاً. تعرّض الجزء الأوسط والشمالي من هذه المنطقة للتغيُّر المناخي الكبير الذي ضرب ما يعرف الآن بالصحراء الكبرى منذ الآلاف القليلة السابقة للميلاد. ونتج عن ذلك التحوُّل التدريجي للمنطقة من غابات وبحيرات ومراعٍ وأنهار إلى الصحراء التي نراها اليوم.

وقد أدّى ذلك الجفاف التدريجي إلى نزوح السكان نحو المناطق الغنية بموارد المياه. وكان نهر النيل من أكبر المناطق التي استقبلت المهاجرين الوافدين من المناطق الغربية.

ويعني ذلك أن هناك عاملين أثّرا على تحرُّك وتكوين السكان في هذه المنطقة؛ أولهما الجفاف التدريجي الذي اجتاح المناطق الغربية، وثانيهما تحركات القبائل النيلية من الجنوب.

وكما ذكرنا فقد كان الجفاف تدريجيّاً، فوادي هوار، مثلاً، كان لا يزال نهراً دائم الجريان يلتقي بالنيل عند منطقة حلفا حتى القرون القليلة التي سبقت قيام حضارة وادي النيل. وواحة سليمة وبحيرة لقية -غربي حلفا- كانتا مصدرين دائمين للمياه. وبالقدر نفسه يمكن النظر إلى وادي الملك الذي يجري من شمال كردفان ويصب في النيل عند منطقة الدبة، ووادي المقدم الذي يصب في منطقة كورتي، وغيرهما من الأودية.

فالمنطقة الصحراوية الحالية كانت مناطق اتصال سكاني مثل منطقة الجزيرة والبطانة إلى عهد ليس بالبعيد في عمر تكوين الشعوب. ومن الواجب، ونحن نبحث عن السكان وأصولهم والمؤثِّرات التي طرأت على تكوينهم، وضع هذه الاعتبارات في حسباننا. فإنه من غير الممكن التعرُّف على سكان النيل دون ربطهم بالتحرُّكات السكانية التي أتت من الصحراء. ولعل المثل الواضح في ذلك الهجرة التي أتت من الجنوب واجتاحت مملكة مروي وأدّت إلى ضعفها وانهيارها في القرن الرابع الميلادي تحت ضربات مملكة أكسوم، وكذلك الهجرة الصحراوية التي دخلت منطقة حلفا في القرن الثالث الميلادي وكوَّنت مملكة نوباتيا المسيحية.

فالسكان في منطقة السودان الحالي ربطتهم، عبر التاريخ، روابط طبيعية أدّت إلى الصلة الدائمة بينهم، فكوّنوا عبر التاريخ السكان الذين عاشوا وخلَّفوا لنا تراثهم. يجب بحث تلك الروابط والتحقُّق من ذاك. مثلاً عند الحديث عن حضارة كرما ينبغي البحث عن جذورها وربطها بشمال دارفور عبر وادي هور. وعند الحديث عن مروي ينبغي البحث عن صلتها بشمال كرفان التي تقول بعض الروايات المحلية في الشمال إن إحدى عواصمها كانت في منطقة زانكور بشمال كردفان. وعند الحديث عن قيام سلطنة سنار ينبغي البحث عن أثر سكان أعالي النيل الأزرق وغرب النيل الأبيض في قيامها وازدهارها.

نحن نقع الآن تحت تأثير الوضع المناخي الحالي فننظر إلى حضارة كرما مثلاً باعتبارها وليدة شمال السودان فقط، وننظر إلى تراث السودان القديم باعتباره وليد المنطقة الواقعة ما بين الخرطوم وحلفا كما توضحه الخرائط في كتب تاريخ السودان القديم، باستثناء القليل منها. وقد أدّى هذا إلى أن بعض السكان يرون أنهم لا ينتمون إلى ذلك التراث. قراءة تاريخنا تتطلَّب قراءة الوضع الجغرافي أيضاً، وبالقراءتين معاً يمكن التعرُّف على التاريخ،

وبالتالي التعرُّف على أصول التركيبة السكانية ومؤثِّراتها.

نحو إعادة التركيب

هذه تأمُّلات، والتأملات ليست ممنوعة في مجال التاريخ، ولكن لا يعني هذا أن التاريخ خيال وتأمُّلات. وهذه التأمُّلات محاولة للوصول إلى فرضيات تؤدي إلى الربط بين الأحداث ومحاولة فهمها، ثم تأتي مرحلة البحث في تلك الفرضيات لإثباتها أو نفيها، أو تركها معروضة للدراسة إذا تعذَّر التوصُّل إلى أدلة الإثبات أو النفي. وأدلة الإثبات أو النفي تعتمد على المعلومات أو المادة المستخدمة، فكلما كانت المعلومات أو المادة المستخدمة محل ثقة، مثل الوثائق أو الأدلة الأثرية؛ كانت النتائج موثوقاً بها ومقبولة، أما إذا كانت المادة المستخدمة في حاجة إلى البحث عن مدى صحتها وإمكانية قبولها – مثل الروايات الشفاهية أو المادة المدوّنة غير المعتمدة على مصادر موثوق بها– فإن العمل يتطلَّب الكثير من الجهد، ويجب أولاً إخضاع المادة للدراسة لمعرفة إمكان الاطمئنان إليها من عدمه.

ولما كان مشوار الكتابة في التاريخ طويلاً وصعباً؛ كانت التأمّلات الميدانية أكثر سهولة. وقد يظن البعض أن هذه التأمُّلات هي التاريخ – كما هو الحال في تأمّلاتنا في نسب القبائل العربية – وهذا خطأ كبير. وقد بدأت بهذه المقدمة لأنني أريد أن أتأمّل في تاريخ السودان، وأضع فرضيات لما يمكن أن يمثِّل مساراً لتاريخ السودان عبر العصور في ثلاث مراحل؛ الأولى: المرحلة المبكرة ما قبل عصر كوش. الثانية: عصر كوش وحتى العصر المسيحي. الثالثة: من دخول الإسلام وحتى العصر الحاضر. وستقتصر التأمُّلات هنا على الفترتين الأولى والثانية كما يلي.

▪ المراحل المبكرة ما قبل عصر كوش

الإنسان في القارة الأفريقية أصيل لم يهاجر إليها من القارات الأخرى، بل النظريات المقبولة الآن والمستندة على الأبحاث العلمية الحديثة ترى أن الإنسان بدأ حياته في السافنا الأفريقية، ومنها هاجر إلى باقي القارات، وأطلقوا عليه اسم San-like man، لأن أقدم ممثّل له الآن هم شعب السان في جنوب أفريقيا. وكان لون بشرة ذلك الإنسان سمراء تتناسب والبيئة التي ترعرع فيها، وهو لون البشرة نفسه للسكان الحاليين في السافنا الأفريقية.

- تفرَّع سكان أفريقيا من هذه السلالة (مثل الزنوج والنيليين وسكان الصحراء الذين عرفوا في ما بعد بالحاميين)، واكتسبت كل جماعة الخصائص الجسمانية واللونية التي

اقتضتها أوضاع بيئاتهم.

- أصول سكان السودان كلهم من سلالة ذلك الإنسان.

وينبغي قبل الحديث عن أجدادنا القدماء - سلالة السان - التعرُّف على الأوضاع المناخية في المنطقة المعنية بالتأمُّلات - قبل بداية الحضارة المصرية - وهي المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً وتمتد غرباً حتى المنطقة الممتدّة بين نَبتا Nabta - الواقعة شمالي شرقي حلفا - وجبل العوينات شمالاً إلى منطقة السدود جنوباً. ونلاحظ أن مناخ هذه المنطقة لم يكن كحاله الآن، بل كانت به بحيرات وأنهار ويتمتّع بالغطاء النباتي الغني (مثل بحيرات نبتا وميرجا جنوبي نبتا، والنهر الأصفر (وادي هوار) وربما أنهار أودية جبرة والملك والمقدم وغيرها).

- أتأمّل دراسة جيولوجية للنيل وروافده الجارية والجافة.

وأتأمّل دراسة بداية المرحلة المبكرة لتاريخ أجدادنا منذ استقرارهم على طول هذه المنطقة، قبل بداية مرحلة الجفاف التي أوجدت الصحراء الكبرى منذ نحو سبعة آلاف سنة، والتعرّف على طبيعة حياتهم المبكرة في مراحل الصيد على ضفاف البحيرات والأنهار. فعلى سبيل المثال كان امتداد بحيرة تشاد أكبر بكثير من حجمها الحالي، وإقليم السدود على النيل الأبيض يمتد أحياناً إلى منطقة الخرطوم الحالية. تُرى كيف مارس أجدادنا صيد ورعي الحيوان؟، وكيف تطوَّرت أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية في الفترات المبكرة؟ (على سبيل المثال فإن الأنظمة الاجتماعية في منطقة نبتا Nabta شمال غرب وادي حلفا سبق تطوُّرها نظيرتها على نهر النيل في السودان ومصر)، وكيف كانت العلاقات بين سكان هذه المناطق؟، وإلى أيِّ مدىً أثّروا على بعضهم؟. (على سبيل المثال وُجدث آثار الزراعة واستئناس الحيوان والتحنيط في المناطق الصحراوية الداخلية غربي النيل قبل انتشارها بين قدماء المصريين).

- أتأمّل دراسة عصر الجفاف منذ بدايته قبل نحو سبعة آلاف سنة في المناطق الغربية من وادي النيل للوقوف على نتائجه على وضع السكان وأنشطتهم في المنطقة. وبداية تجمُّعات السكان على مصادر المياه على جانبي النيل، وقيام الثقافات المبكرة في تلك المناطق، وبداية الاحتكاك بينها وبين مجتمعات النيل.

- أتأمَّل دراسة النظريات التي ترى أن الاحتكاك والعلاقات بين سكان المناطق الواقعة حول النيل شرقاً وبخاصة غرباً (التحدي والاستجابة) هو سبب تطوُّر الأنظمة على النيل وقيام حضارته، بما في ذلك الحضارة المصرية.

- أتأمَّل دراسة النظريات التي ترى انتقال الحضارة من الصحراء إلى وادي النيل، وبدايات

التحنيط المبكرة في الصحراء والأصول الصحراوية للآلهة الفرعونية مثل الإله آمون والنظريات التي ترى انتقال الحضارة من جنوب الوادي إلى الشمال.

- أتأمَّل تتبُّع الثقافات المبكرة، ما هو معروف لدينا على نهر النيل، وما ينبغي البحث عنه في كل مناطق السودان الأخرى، وبخاصة الصحارى الشرقية والغربية والأودية الجافة.
- تتبُّع العلاقات المصرية السودانية المبكرة المدوَّنة على الآثار المصرية للتعرُّف على سكان المنطقة.
- علاقات السودان المبكرة بسكان وثقافات الصحراء الكبرى، مجتمعات نبتا ومناطق تبستي والجرمانت جنوبي ليبيا.
- كيف يمكن تصوُّر أوضاع السودان كله – وليست الأوضاع على نهر النيل ما بين الخرطوم والشلال الأول فقط – وأوضاع سكانه وعلاقاتهم الداخلية والخارجية وتطوُّر أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؟.
- هل من الممكن تصوُّر أن سكان السودان الأوائل، سلالة السان، قد اختلطوا بالسلالات المحيطة بهم جنوباً وشرقاً وغرباً وعاشوا بكل الأماكن متوفِّرة الموارد في حدود السودان الحالي، الذين أوضحت بعض آثارهم التي تم الكشف عنها أنهم كانوا سود البشرة قبل قيام حضارة كرما وقيام الحضارة المصرية (لا يوجد في السودان زنوج بما في ذلك جنوب السودان)، وأن أولئك السكان انتشروا على أحواض الأنهار والأودية المعروفة حالياً، وأن مناطق غربي النيل كانت امتدادهم الحيوي، هذا الشعب كوّن الثقافات والحضارات المبكرة التي كشف عن بعضها شمالي الخرطوم، وأن أولئك السكان هم الذين وردت أسماؤهم وأسماء بعض مناطقهم في الآثار المصرية مثل: تاستي، تانحسي، واوات، إيام، إرثت، مجا، وكوش؟.
- أرى أن نتائج هذه الدراسات ستقودنا إلى التعرُّف على سكان ولغات وحضارات السودان المبكرة، وربما ساعد التعرّف على لغات ولهجات البجا وسكان جبال النوبا وشمال كردفان في فك رموز لغة السودانيين القديمة.
- وأخيراً كيف نتصور العلاقة بين أولئك السكان القدماء وبين السكان الذين أسَّسوا حضارة كوش ومروي؟، هل هم الذين تجدَّدت دماؤهم وثقافاتهم ولغاتهم وأنتجوا لنا حضارة كوش، أم أين ذهبوا؟.

■ المرحلة الثانية: عصر كوش وحتى العصر المسيحي

هذه المرحة أوفر مصادراً وأسهل تناولاً من المرحلة المبكرة، ومع ذلك فمعرفتنا بها محدودة، وجاءت التأملات عنها في شكل تساؤلات، فكل ما نصبو إليه هو أن تتوفَّر لنا المعلومات التي تعرِّفنا وتربطنا بذلك التراث، وتمكِّننا من الإجابة على الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام في أذهاننا مثل:

- ماذا يعني اسم كوش ونبتا؟، ولماذا عرفت المملكة بذلك؟.
- معنى لفظ إثيوبيا - والعلاقة بينه وبين لفظ السودان - وعلى من أطلق؟.
- إلى أيٍّ مدى تغيَّرت سمات المجتمع السوداني القديم قبل كوش؟، وكيف برزت سمات المجتمع الكوشي الجديد؟.
- من هم أولئك السكان الذين أسّسوا المجتمع الكوشي الجديد؟.
- هل كان ذلك المجتمع الجديد استمراراً للجماعات والثقافات القديمة؟.
- إلى أيٍّ مدى امتدت الحدود الداخلية للممالك التي قامت في السودان؟.
- ما هي اللغات التي كان يتحدَّث بها أهل السودان في تلك الأوقات؟.
- هل انقرضت تلك اللغات؟، وكيف؟.
- هل انقرض متحدِّثو تلك اللغات؟، كيف ولماذا؟.
- لماذا لا نجد اللغة المروية في لغات سكان شمال السودان الحاليين؟.
- ما هو ارتباط حضارة كوش - بحقبها المتعاقبة - بالشعوب المجاورة لها شرقاً وغرباً؟.
- ما هي السمات المشتركة بين سكان السودان في ذلك الوقت وبين التبو والجرمانتيين في جنوب ليبيا (لغوياً وحضارياً وعرقياً)؟.
- لماذا توجد العديد من السلات في منطقة جبال النوبا مع صغر حجم المنطقة؟.
- لماذا يوجد في منطقة جبال النوبا ذلك العدد الكبير من اللغات واللهجات؟.
- ما هي العلاقة بين البليميين المستقرين على النيل والبجا البدو؟.
- هل هناك علاقة بين البليميين والبجا من ناحية، وسكان كردفان ودارفور من الناحية الأخرى؟.
- ما هي العلاقة بين سكان النيل وسكان المناطق الواقعة شمالي الهضبة الإثيوبية والبحر

الأحمر؟.

- إذا كان البليميون والبجا سلالة واحدة، أين كان مقرّهم الأصلي؟، وما سبب انقسامهم؟.
- هل هناك علاقة بين لغة البليميين واللغة المروية؟.
- إلى أين امتدت حدود الممالك المسيحية في السودان؟، هل هي نفسها حدود الدولة المروية؟، وما هي علاقتها بحدود السودان الحالية؟.
- هل أدّى قيام المماك المسيحية في السودان إلى تغيير الدين من وثني إلى مسيحي فقط؟، أم كانت هناك تغييرات عرقية ولغوية؟، وإن كان كذلك كيف تم ذلك؟.
- إلى أيٍّ مدى انتشرت المسيحية في السودان؟.
- من هم سكان السودان في العصر المسيحي؟.
- كيف كان شكل الحكومة والإدارة في الممالك المسيحية؟.
- كيف كانت علاقة الممالك المسيحية ببعضها وعلاقاتها بالعالم الخارجي؟.
- ما هي العلاقة بين سكان ولغات السودان في العصر المسيحي وسكان ولغات السودان في العصر السابق له؟.
- ما هي اللغات التي كان يتحدث بها السكان في العصر المسيحي؟، وما هي اللغة الرسمية في كل مملكة؟.
- ما هي العلاقة بين السكان الحاليين ولغاتهم في مناطق أعالي النيل الأزرق والنيل الأبيض ونهر عطبرة وخور القاش وبركة وبقية مناطق البجا وجبال النوبا وغرب السودان وبين سكان ولغات الممالك المسيحية؟.
- أيُّ نوع من المادة نقدِّمها في مراحل التعليم قبل العالي عن تارخ السودان؟، وما هي أهدافها؟.

أرى أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة ستمكّننا من فهم واقعنا المعاصر الذي هو امتداد لتلك المراحل. ولمّا كان العصر المسيحي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً وقريباً – انتهى قبل نحو خمسة قرون – بالعصر الذي نعيشه الآن، فإن أحداثه تداخلت وتفاعلت في المرحلة الأخيرة من تاريخ السودان، وهي المرحلة الإسلامية. فموضوع العروبة وقضايا النسب العربي في السودان بدأت في العصر المسيحي، ولذلك ستقتصر تساؤلاتنا في العصر المسيحي إلى هذا الحد لتدخل بقية التأمُّلات عن العصر المسيحي في المرحلة الإسلامية.

الفصل الثاني

بلاد وسكان شرق السودان

- أرض البجا ومواردها
- من هم أسلاف البجا؟
- قبائل شرق السودان
- قبيلة الحدارية
- قبيلة البليين
- قبيلة الزنافجة
- قبيلة الخاسة
- قبائل البجا في الداخل: قبيلة (قصعة، بواتيكة، كديم، باتين وبازيه)
- قبيلة الحلنقة
- خاتمة

أرض البجة ومواردها

نبدأ دراستنا للسكّان بشرق السودان، وسنتناول أرض البجة وقبائلها، كما جاءت في المصادر العربية المؤلّفة بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (الـ9 – 15 الميلاديين)، ويلاحظ أن تلك المصادر التي تناولت البجة وأرضها، انحصرت معلوماتها بصورة عامة في المجموعات الشمالية لقبائل البجة. فقد بدأت صِلات المسلمين من مصر مبكراً بتلك المناطق بحكم مجاورتها لهم؛ وكانت تلك الصِلات سلمية في بعض المرات، وحربية مراتٍ أخرى – كما سنفصِّل ذلك لاحقاً – حتى بداية اشتغال المسلمين في التعدين في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، والذي امتد حتى بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (14 الميلادي)، وكان اتصال المسلمين طيلة هذه الفترة مستمراً بأرض البجة وبالمجموعات الشمالية.

كان تحديد بلاد البجة في المصادر العربية المبكرة تحديداً واسعاً، يتعدّى في كثير من الأحيان حدودها الشمالية الحالية، وبالقدر نفسه جاء استخدام لفظ البجة عاماً وواسعاً، فشمل في بعض الأحيان أقواماً وقبائل لا تُعرف اليوم بهذا الاسم؛ وسنحاول فيما يلي التَعرُّف على بلاد البجة وسكّانها من خلال أعين أولئك الكُتّاب.

تبدأ بلاد البجة من الشمال؛ من منطقة الصحراء الشرقية الممتدة من الأقصر على النيل غرباً، وحتى البحر الأحمر شرقاً. يقول ابن سُليم الأسواني: «أول بلد البجة من قرية تُعرف بالخربة من معدن الزُمُرُّد في صحراء قوص، وبين هذا الموضع وبين قوص ثلاث مراحل»[1]، وتقع مدينة قوص إلى الشمال قليلاً من مدينة الأقصر الحالية. يوضح هذا أن حدود بلاد البجة كانت تمتد في الصحراء شمالاً إلى مناطق أبعد بكثير من امتداد مناطقها الحالية.

جعل ابن سليم حد البجة الجنوبي بأول بلاد الحبشة حيث قال: «وآخر بلاد البجة، أوَّل بلاد الحبشة». غير أن الحدود بين بلاد الحبشة وبلاد البجة، لا تبدو واضحة المعالم

---

[1]. ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، أخبار النوبة، نقله عنه المقريزي. انظر: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة فرع الخرطوم، الخرطوم، 1972م، ص 105.

في المصادر العربية، بل لم يرد اتفاق حول تحديدها. فابن سليم مثلاً يرى أن ساحل البجة يمتد حتى جزيرة سواكن، وباضع، ودهلَك. في حين يذكر الحميري: «أن باضع تقع على ساحل البجة والحبشة»[1].

وجعل ابن حوقل الحدود الجنوبية لبلاد البجة أعالي خور بَرَكَة بالقرب من باضع؛ حيث بطون قصعة[2]، وهي من أجلِّ قبائل البجة، أما اليعقوبي فقد ذكر تحت عنوان (مملكة البجة) أن «لهم عدة ممالك»، وتتبعها من الشمال إلى الجنوب، فكانت آخر ممالكهم، وهي السادسة، «مملكة النجاشي.. وساحلهم دهلَك»[3].

وهكذا تبدو حدود البجة الجنوبية غير واضحة المعالم في المصادر العربية المبكّرة، ولكن يبدو واضحاً أنهم اعتبروا أن ديار البجة تمتد حتى منطقة السهل الشمالي للهضبة الإثيوبية. وقد جاء وصف هذه المناطق في تلك المصادر بما يوضح تمتُّعها بوفرة الموارد الطبيعية، مثل موارد المياه المتنوِّعة الجارية والجوفية والمطرية. وتحدَّثت المصادر عن الموارد الزراعية والنباتية والحيوانية والمعدنية، كما تناولت السكَّان وأنشطتهم التجارية. ومن الطبيعي أن تساعد كل هذه الموارد على كثافة السكان وتعدُّد النشاطات، وقيام المراكز، والمدن، والممالك، وتطوُّر أساليب الادارة. وفيما يلي سنتتبَّع ما تيسَّر الاطلاع عليه من نصوص متعلِّقة بهذه الموضوعات في تلك المصادر.

وقد ترك لنا ابن حوقل معلومات قيِّمة ودقيقة في وصفه للمناطق الواقعة على حوض نهر عطبرة، وخوري القاش وبَرَكَة. وتكتسب معلوماته عن هذه المناطق أهمية خاصة لأنها استندت على مشاهدة عيانية ورحلات ميدانية؛ فقد أبحر ابن حوقل في البحر الأحمر، وزار بعض مناطق بلاد البجة وسواحلها، وجمع مادته عن المنطقة بطريق مباشر، واعتمد على الروايات في المناطق التي لم يزُرها ووضّح كيف أنه كان يدقِّق في جمعه هذه المعلومات.

تناول ابن حوقل بلاد البجة وسكَّانها من الجنوب إلى الشمال؛ فبدأ بوصف المناطق الغنية بمواردها المائية، والنباتية، والحيوانية، والسكّانية، في المنطقة السهلية التي ذكر أنها

---

[1]. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق)، ج 1 ص 333.

[2]. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، ص 59، نقلاً عن: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق.

[3]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، تاريخ اليعقوبي، المعروف بتاريخ ابن واضح، (موقع الوراق)، ص 21.

منتهى ما يصله تجّار المسلمين من أرض البجة، وعرّفها بمنطقة قلعيب، وما جاورها من منطقة ملاحيب. قال ابن حوقل: «نواحي قلعيب، وهي مواضع ذات مياه في أودية متصلة بجبل يُعرف بـ ملاحيب، وأكبر أوديته وادي بَرَكَة، وبين قلعيب وبَرَكَة غياضٌ عادِيَّةٌ ذات أشجار، وربما كان دائرة الشجرة من أربعين ذراعاً إلى خمسين ذراعاً، أو إلى ستين ذراعاً، وأفنيتها مراتع الفيلة، والزرافات، والكركدن، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش، سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها. ويتصل بحد ملاحيب من شقّه الشرقي وادٍ يُعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً، والشجر، والحُمُر، والوحش»[1].

غياضٌ عادِيَّةٌ، يقصد بها أماكن قديمة تتجمّع فيها المياه وينبت فيها الشجر. قال الزبيدي في معنى غياض: «والغَيْضَة مَغيضُ ماءٍ يجتمع فيَنْبت فيه الشجر، وجمعها غِياضٌ وأَغْياضٌ». وقال في معنى عادِيَّةٌ: «شَجَرة عادِيَّةٌ، أي قَدِيمة كأَنها نُسِبَت إِلى عادٍ، وهمْ قومُ هودٍ النبيِّ صلى الله عليه».

ويقول كراوفُورد: «إن إقليم قلعيب وملاحيب يقع في جنوب أرض البجة»، ويرى إمكان الربط بين قلعيب وبين بيت مالي Malé وهو اسم جبل شمال Agere Mageran على خريطة موزنجر[2]، وهو اسم لقبيلة؛ وموضح على خريطة Legean ويرجح كراوفُرد أن Agere Mageran تقع بالقرب من الحدود الشمالية الغربية الإرتيرية.

ويواصل ابن حوقل واصفاً منطقة جبل ملاحيب، ودلتا القاش، وأواسط نهر عطبرة، قائلاً: «يتصلِ بجبل ملاحيب من شقه الشرقي وادٍ يُعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً، والشجر، والحُمر، والوحوش.. وكأن هذا الجبل آخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن (دلتا القاش). وهي أرض مزارع أحواف، يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة، ومن يحضر معهم من البجة»[3].

ويرى كراوفورد أن دلتا القاش عرفت ببلاد التاكا، يقول Sapeto إن الحبش أطلقوا على سكان دلتا القاش Makidaovi، وقد عُرِّفت مملكة دُجن أو دُكن بدلتا القاش. وربما كانت دلتا القاش موطناً لسكّانٍ قدماء أطلق عليهم بليني اسم الـMathetae والذين ربما

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 59.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester، 1959، p. 104.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

كان اسمهم لا يزال عائشاً في اسم Mitatib شمال أروما واسم Temitatei على نهر عطبرة، شمال جوز رجب. وربما ارتبط Mathetae باسم قبيل المتت، الذين ورد ذكرهم في وثيقة أكسومية ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد؛ مما يوضح أن منطقة دلتا القاش كانت مأهولة بالسكان منذ العصور السابقة للميلاد[1].

ويواصل ابن حوقل وصف المنطقة: «النهر المعروف بسنسابي، ويفرع إلى النيل، وأصله من ناحية الحبشة. والنهر المعروف بالدُجن يأتي من بلد الحبشة، فينقطع في أعمال دُجن ومزارعها، ودُجن هذه قرى متصلة ذوات مياه مشاجر وزرع وضرع.. وقد تقدّم أن وادي بَرَكَة يجري من بلد الحبشة، مجتازاً على بازين، وآخذاً إلى ناحية البجة، ويصب بين سواكن وباضع في البحر المالح»[2].

ونهر سنسابي – كما يرى كراوفُورد – ربما هو (مارب – قاش)، والذي يعرف في منطقة البازين، كما ذكر موزنجر، بـSona or soba والدجن أو الدكن هي دلتا القاش. ويقول ابن سليم عن بلاد البجة: «والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم، وبقرهم حسان معلّمة بقرون عظام، ومنها جُمٌّ، وكِباشهم كذلك منمّرة ولها ألبان». الجُم هي التي لا قرون لها.

وذكر كراوفورد أن الباحثين عرّفوا دُكن بدلتا القاش، كما عرفت ببلاد التاكا. وقد كانت تنتج نوعاً جيداً من القمح؛ كان يحمل إلى سواكن وجدة، وكان سعره في جدة أغلى من القمح المصري. وكان قمح دلتا القاش يتحمّل التخزين في المطمورات، أكثر من أيِّ نوع آخر من القمح، وفي بعض الأحيان تصل مدة التخزين إلى خمس سنين، يظل القمح فيها جيداً.

وقد وصف ابن سعيد المغربي الجزء الشمالي من الهضبة الإثيوبية، والمنطقة السهلية الممتدة شماليها، فوضّح وفرة المياه، ووجود الحيوانات، مثل، الكركدن، والأسود، والفيلة، والغزلان.[3] وهكذا تبدو منطقة خور بَرَكَة، والقاش، ونهر سنسابي، وامتدادها حتى سواحل البحر الأحمر، غنية بالموارد. وإلى جانب ما ورد عن وفرة المياه والزراعة، تناولت المصادر أيضاً تنوُّع الأشجار، وكثرة الثروة الحيوانية، فيقول: «وفي أوديتهم شجر

---

[1]. Crawford، op، p. 96.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 61.

[3]. ابن سعيد المغربي، أبو الحسن على بن موسى، كتاب الجغرافيا (موقع الوراق) ج 1 ص 22.

المقل، والإهليلج، والإذخر، والشيح، والسنا، والحنظل، وشجر البان.. وغير ذلك. وبأقصى بلدهم، النخل، وشجر الكرم، والرياحين.. وغير ذلك مما لم يزرعه أحد.. وفيها سائر الوحش من، السباع، والفيلة، والنمور، والفهود، والقردة، وعناق الأرض، والزباد، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت. ومن الطيور، الببغاء، والنقيط، والنوبي، والقماري، ودجاج الحبش، وحمام بازين.. ومثل، الكركدن، والأسود، والفيلة، والغزلان، والزرافات، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش سائمة راتعة والخيل والماشية»[1].

ويواصل ابن سليم: «وتعظم الحيَّات ببلدهم، وتكثر أصنافها، ورُئِيَتْ حية في غدير ماء، قد أخرجت ذنبها والتفَّت على امرأة وردت فقتلتها، فرؤي شحمها قد خرج من دبرها من شدّة الضغطة، وبها حيَّة ليس لها رأس، وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة، إذا مشى الإنسان على أثرها مات، وإذا قُتلت وأَمسك القاتل ما قتلها به من عود أو حربة في يده، ولم يلقه من ساعته مات، وقتلتْ حيَّة منها بخشبة، فانشقت الخشبة، وإذا تأمّل هذه الحيَّة أحد، وهي ميتة أو حيَّة أصابه ضررها. وفي البجة شر وتسرُّع إليه»[2].

ومن هذا الوصف يتضح أن المنطقة الواقعة بين دَهلك، وباضع، وسواكن، على ساحل البحر الأحمر شرقاً، والممتدة غرباً عبر وادي بَرَكَة، وخور القاش، ونهر عطبرة، حتى نهر النيل، كانت ثرية بمواردها المائية، والنباتية، والحيوانية. وقد تناولت المصادر اللاحقة أيضاً تلك الثروات، كما عند ابن عبد الظاهر في كتابه (تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون)، في وصفه الموجز للسفارة التي أرسلها السلطان المملوكي لحكام السودان في آخر القرن السابع الهجري (13 الميلادي)، وعند النويري في كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب)، في وصفه للحملة التي أرسلها السلطان المملوكي الناصر محمد عام 716هـ/1316م لتطارد بعض الأعراب الذين قطعوا الطريق على قافلة في صحراء عيذاب، والتي وصلت إلى منطقة كسلا الحالية من عيذاب، وعبر سواكن، ثم واصلت إلى دنقلة عبر نهر عطبرة.

إلى جانب الثروات المائية والنباتية والحيوانية، تميَّزت بلاد البجة أيضاً بوفرة ثرواتها المعدنية، وتضمّنت المصادر العربية المبكرة معلومات قيمة عن أنواع تلك المعادن وأماكنها.

---

[1]. المرجع نفسه.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

فقد قال ابن سليم عن البجة: «بلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت كانت أجود.. والذهب أكثر». وبيَّن ابن سليم أنواع تلك المعادن من «الفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص، وحجر المغنطيس، والمرقشيتا، والجمشت، والزمرد، وحجارة بيشطا»[1]. وأضاف اليعقوبي الجوهر والزمرد[2]. وبيَّن المسعودي[3] موقع معدن الزمرد، وفصَّل أنواعه، وسنتناول منه الفقرات التالية:

«ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى، من أعمال مدينة قفط، ومنها يخرج إلى هذا المعدن، والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة، مفاوز وجبال. والزمرد الذي يقتلع من هذا المكان يتنوع أربعة أنواع: النوع الأول منها يعرف بـ(المر)، وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضرة كثير الماء، يشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السواد. والنوع الثاني يدعى بـ(البحري)، ومعناه في هذه التسمية، هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورتها، فسمي البحري لما ذكرنا، وهو ثاني المر في الجودة، وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ ورق الأس الذي يظهر في أوائل أغصان الأس وأطرافه.

والنوع الثالث يعرف بـ(المغربي)، ومعناه في هذه التسمية وإضافتهم إيَّاه إلى المغرب، هو أن ملوك المغرب من الإفرنجة والنوكبرد والأندلس والجلالقة والوشكند والصقالبة والروس (يستخدمونه). والنوع الرابع هو المسمى بـ(الأصم)، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً؛ لقلة مائه وخُضرته، وهذا النوع يتفاوت في اللون من الخضرة في القلة والكثرة.

وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء، وأصفاها وأكثرها خضرة، وأنقاها من السواد والصفرة، وغير ذلك من الألوان، مع تعري هذا الجوهر من النموشة، فإذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه غاية في الجودة، ونهاية في الوصف، وفي حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل من الوزن، إلى أن ينتهي إلى حد العدسة في المقدار، فيدخل ذلك في النظم من المخانق وغيرها. وقد كانت ملوك اليونانيين، ومن تلاهم من

---

[1]. المرجع نفسه، ص 107.

[2]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ص 22.

[3]. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ج 2 ص 222 - 225.

ملوك الروم تعظِّم شأن هذا الجوهر، وتفضِّله على غيره من سائر الجواهر، لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة، والمنافع الكثيرة، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية.

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربعة العروق في الأرض، وهو المتنافَس فيه، إذا سلِم من الاعوجاج والثقب، واستقام سلكه، واستطال ما استدار. وأدناه ما ينحلّ في معدنه من التراب، ويلتقط من الطين، وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباله، وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه، وهما (المغربي)، و(الأصم)، المقدم ذكرهما»□.

وقد فصَّل اليعقوبي أماكن تلك المعادن المنشرة حول وادي العلاقي، وبين المسافات بينها؛ وذكر بعض أسماء القبائل العربية التي تشتغل في التعدين، مثل، جهينة، وبلي، وربيعة. كما بيَّن نحو اثني عشر موقعاً لمعدن الزمرد، من بين وادي العلاقي حتى خربة الملك شمالاً، وثمانية مواضع للذهب، ما بين وادي العلاقي وميناء عيذاب على البحر الأحمر، وستة مواقع إلى الجنوب من وادي العلاقي، يقع آخرها على بعد ثلاثين مرحلة من وادي العلاقي□.

وبيَّنت المصادر العربية علاقة البجة الوثيقة بهذه المعادن في كل المنطقة الواقعة بين صحراء قوص في الشمال، وخور بَرَكَة في الجنوب. وقد ذكرنا أعلاه أن ابن سليم حدد أول بلد البجة «من قرية تُعرف بالخربة من معدن الزمرد في صحراء قوص»، وذكر المسعودي أن البجة تنزل موضع الزمرد المعروف بالخربة، وتقوم بحمايته، «وإليها يؤدّي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد»، وأضاف: «إن البجة كانت تنزل أيضاً حول معدن الزمرد في البر المتصل بأسوان، وقريباً منه لأجل القيام بخفره وحفظه»□.

ووضَّح الطبري: «إن البجة يشرفون على معادن الذهب، ويقومون بمقاسمة العاملين عليه، ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى»□. ويتضح أن العمل في كل مناطق التعدين كان تحت إشراف البجة، الذين كانوا يسيطرون على كل مناطقه، لكنهم لم يعملوا في استخراجه، بل اكتفوا بمهمة الإشراف واستتباب الأمن في تلك المناطق. فقد ذكر ابن سليم أن المسلمين هم الذين

□. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

□. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، 21.

□. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق.

□. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 37.

يعملون في هذه المعادن، وهم مسالمون للبجة[].

غير أن الإدريسي ذكر ما يفيد أن البجة كانوا يحتكرون بعض مناطق التعدين، ربما لأن العمل فيها لا يحتاج إلى حفر، بل يتطلّب فقط المعرفة التامة بالمنطقة. فقد ذكر أنهم كانوا يقومون بالبحث عن الذهب في بعض المناطق الرملية في صحراء وادي العلاقي، في أول ليالي الشهر العربي وآخره، «فكانوا يذهبون إلى تلك الرمال ليلاً، فإذا أبصر أحدهم التبر يضيء علّم على موضعه علامة يعرفها، وبات هنالك، فإذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته في كوم الرمل الذي علّم عليه، ثم يأخذه، ويحمله معه على نجيبه، فيمضي به إلى آبار هنالك، ثم يقبل على غسله بالماء في جفنة عود، فيُخرج التبر منه، ثم يؤلفه بالزئبق، ويسبكه بعد ذلك، فما اجتمع لهم منه تبايعوه بينهم، واشتراه بعضهم من بعض، ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، وهذا شغلهم دأباً لا يفترون عنه، ومن ذلك معايشهم، ومبادئ مكاسبهم، وعليه يعوّلون». []

ونلاحظ أن الإدريسي يتحدّث هنا عن البجة بصورة عامة، ولا يشير إلى أن هذا العمل تقوم به بعض قبائل البجة المجاورة لتلك الرمال. ويبدو من كلامه، وكأن هذا هو كل نشاط قبائل البجة في التعدين. وكثيراً ما تأتي مثل هذه التعميمات في المصادر العربية، فتؤدّي أحياناً إلى التضارب في المعلومات، وأحياناً أخرى إلى الفهم الخاطئ لقبائل وتاريخ قبائل البجة. وفي هذه الحالة فقد رأينا أن العلاقة القوية بين البجة والتعدين هي: الإشراف، والخفارة، والتأمين، ويقاسمون بذلك من يعمل في تلك المعادن، هذا إلى جانب النشاطات الرعوية والزراعية والتجارية الأخرى. وليس كما ذكر الادريسي وهو يتحدّث عن البجة بصورة عامة، أن العمل في البحث عن الذهب في تلك الرمال هو سبيل «معايشهم، ومبادئ مكاسبهم، وعليه يعوّلون».

وكان وادي العلاقي، هو المركز والمقر الرئيس لأعمال التعدين، وذكر ابن سعيد أن «العلاقي هو مقر ملك البجة»[]، وقد وصفه اليعقوبي بأنه كالمدينة العظيمة[]، أو وادٍ

[]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 107.

[]. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 132.

[]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

[]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 14. ص

كالقرية الجامعة، كما وصفه الإدريسي، وذكر أن الماء فيه من آبار عذبة، وهو مكان تجمُّع البجة، ومقصد التجار، وفيه خلق كثير وجمع غزير[1]. وكان أكثر سكان العلاقي من ربيعة، من بني حنيفة، من أهل اليمامة، كما ذكر اليعقوبي، «وانتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر، وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس، لكل قوم من التجار وغير التجار، عبيد سودان يعملون في الحفر، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك»[2].

وترجع بدايات اتصال المسلمين بالمعدن إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري (9 الميلادي)، إلى عاملين رئيسين هما:

أ. رأى المسلمون مناطق التعدين والآثار القديمة للعمل فيها أثناء الحملة التي قادها ابن الجهم على مناطق البجة عام 216هـ/ 831م، فعند نهاية الحملة رجع الكثير ممن اشتركوا فيها للعمل في مناطق التعدين.

ب. أوقف الخليفة العباسي المعتصم (ت 227هـ/ 841م) صرف العطاء في مصر، والذي كان يصرف للعرب مقابل انخراطهم في الجندية، فاضطروا للبحث عن بديل يسترزقون منه، وصادف ذلك بداية تعرُّف العرب على مناطق التعدين، فوفدت إليه مجموعات كبيرة منهم. وكان أغلب الوافدين الأوائل من قبائل الحجاز. ثم جاءت ربيعة في منتصف القرن الثالث، وأصبحت لهم السيطرة على ما تبقى من القبائل العربية في المنطقة بعد تحالفهم وتصاهرهم مع البجة. وهكذا قاد البجة نشاطاً واسعاً في مناطق التعدين، منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وحتى توقّف العمل في المناجم في «سنة بضع وستين وسبعمائة»[3].

وإلى جانب ذلك، شهِدت منطقة البجة نشاطاً تجاريّاً آخر، وهو صيد اللؤلؤ في مدينة عيذاب. فقد وصف ابن جبير -الذي دخل عيذاب عام 578هـ/ 1182م- أن مغاص اللؤلؤ في بحر عيذاب «في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيّدة فيه هذه الأحرف، وهو شهر يونيه العجمي، والشهر الذي يتلوه، ويستخرج منه جوهر

---

[1]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص 134.

[2]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 14.

[3]. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية المسماه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان، لبنان، (د. ت)، ج١ ص ٤١٠.

نفيس، له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه تلك الجزائر في الزوارق، ويقيمون فيها الأيام، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق. . والمغاص منها قريب القعر، ليس ببعيد ويستخرجونه في أصداف لها أزواج، كأنها نوع من الحيتان، أشبه شيء بالسلحفاة. فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف. فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق. فسبحان مقدِّرها لا إله سواه. لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس، قد ألفوا بها عيش البهائم؛ فسبحان مجبِّب الأوطان إلى أهلها، على أنهم أقرب الوحش منهم إلى الأنس»[1].

ولم يقتصر نشاط قبائل البجة في العمل في التعدين فقط، بل كان لهم نشاط تجاري أيضاً، في السلع التي يجود بها إقليمهم والأقاليم المجاورة. ورغم أن المصادر لا تمدُّنا بمعلومات عن أنشطتهم التجارية بقدر ما ذكرت عن عملهم في التعدين. إلا أنه من خلال الإشارات القليلة التي وردت هنا وهناك يتضح منها مساهماتهم الباكرة في الأنشطة التجارية، خاصة أن سكّان المنطقة اشتهروا بأنشطتهم الجارية الداخلية، وفي البحر الأحمر، كما وضّحت المصادر اليونانية والرومانية. وقد تواصل ذلك النشاط بعد دخول المسلمين مصر في الداخل والخارج؛ كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن مدن الحدارية.

من هم أسلاف البجة؟

المجا - البليم - البجا

التعرُّف على أصول السكّان والوعي بالذات، مسألة مهمة وملحة، خاصة في الظروف التي تعيشها بلادنا الآن، والتعرُّف على الأصول والوعي بالذات، مسألة صعبة وشاقّة، تتطلّب الكثير من الوقت والجهد، وتضافر الجهود والمشاركة الجادة للأقلام المتخصِّصة وغير المتخصِّصة. وكنت قد قمت بمحاولة من قبل للتعرف على سكّان السودان قبل دخول الاسلام والعرب إلى افريقيا، وتم نشر ذلك في كتاب[2].

وتهدف الدراسة الحالية إلى التعرُّف على سكّان السودان منذ وصول العرب والإسلام

---

[1]. ابن جبير، محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 156.

[2]. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاسي غرافيك، كوالالمبور، 2008م.

إلى إفريقيا، وحتى قيام الممالك الإسلامية في السودان في القرن الخامس عشر الميلادي – أي قبل ظهور المسميات القبلية الحالية – وستعتمد الدراسة بدرجة أساس على مصادر التراث العربي، إلى جانب ما يتوفَّر من المصادر الأخرى، مثل المصادر المصرية القديمة، واليونانية، والرومانية، والمصادر الأثارية السودانية. وسوف لن تستخدم الدراسة في هذه المرحلة التراث الشفاهي والمخطوط الذي تناول أصول القبائل في السودان، لأن الفترة التي تتناولها الدراسة سابقة لظهور ذلك التراث.

وهذا الجزء من الدراسة، يهتم بمنطقة شرق السودان، ويبدأ بمحاولة التعرُّف على أسلاف قبائل البجة الحالية، ثم التعريف بأرض البجة، ثم تتناول الدراسة قبائل البجة ومدنهم قبل القرن الخامس عشر الميلادى. وبالطبع فإن ذلك ليس بالأمر السهل دراسة، نسبة لشحّ المعلومات والمصادر وندرتها، خاصة فيما يتعلَّق بالمناطق الجنوبية من أراضي البجة وسكّانها. ويتوفَّر قدر معقول من المعلومات عن السكّان على مناطق النيل، والأجزاء الشمالية من بلاد البجة في المصادر القديمة، يُمكِّن من التعرُّف على أسلاف البجة الذين سكنوا ساحل البحر الأحمر، وعلى شواطئ النيل، والمنطقة الواقعة بينهما.

ولم تكن المنطقة الصحراوية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بهذا الجفاف الذي يسودها اليوم، بل كانت إلى وقت قريب من بداية الحضارة المصرية، تتمتَّع بقدر وافر من المطر والغطاء النباتي، مكّن السكان من القيام بدورهم الحضاري في المنطقة. ينتمي الشعب الذي سكن هذه المنطقة إلى السلالة الأصيلة التي كوَّنت سكّان وادي النيل منذ فجر تاريخه. وهنالك بعض الأراء التي ربطت أسلاف أولئك السكّان بهجرات أتت من شبه الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد ناقشنا ذلك في الفصل الأول من كتابنا الأنف (الوعي بالذات وتأصيل الهوية)، وخلصنا إلى أن كل الدلائل التاريخية والأثارية وضّحت أن سكّان الصحارى الواقعة شرقي النيل ينتمون إلى السلالة التي كوَّنت السكّان الأصليين للمناطق الوسطى والشمالية لنهر النيل، ولم يأتوا من الخارج.

ومن المعروف في التاريخ أن سكّان مناطق البجة الحالية، عرفوا عند قدماء المصريين واليونانيين والرومان بأسماء متعدِّدة، سنتناول ثلاثة فقط من تلك الأسماء التي اشتهرت في تلك الفترة، والتي أطلقت على المجموعة المعروفة اليوم باسم البجة، وهذه الأسماء هي: المِجَباري – والتُرُجلُدايت – والبليميون.

- **المِجَباري**

المِجَباري هو الاسم الذي أطلقته المصادر القديمة على السكان الأصليين القدماء على الساحل الغربي للبحر الأحمر، والذين تجوّلوا فى المناطق الشمالية ما بين البحر الأحمر ونهر النيل. وقد امتدت مناطق استيطان هذه الفئة من مواطن البجة الحالية في السودان، وحتى المنطقة الواقعة بين الأُقصُر والبحر الأحمر، في الحدود المصرية الحالية شمالاً.

وقد عرف المِجَباري قديماً بالمازوي والمِجاي والمدجاي والمِجو والمِجا (Medjo - Medju - Medjay) وسنشير اليهم فيما يلي باسم المِجا، لأنه أولاً الاسم الأقدم، ولأنه ثانياً الاسم الأخف في النطق والأقرب إلى الاسم الحالي (البجة).

ولا خلاف بين المؤرخين أن المِجا، الذين ورد ذكرهم في الآثار المصرية القديمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، والذين عاشوا في الصحراء الواقعة إلى الشرق من إقليم (واوات العتباي)، هم أسلاف البجة الحاليين. وقد اشتغل الكثير من المِجا في المهن المتصلة بالتعدين، فقاموا بتأمين تلك الأنشطة بالحراسة والخفارة، وتولّوا مهمة الاتصال، وربط مناطق التعدين بالمدن المطلة على النيل.

وقد ساهم المِجا بدور فاعل في النشاط التجاري، عبر البحر الأحمر ونهر النيل، كما وضّحت المصادر القديمة مساهمتهم في النشاط الدبلوماسي مع القوى التي تعاقبت على حكم مصر في ذلك الوقت. وظل اسم المِجا عَلماً على سكّان الصحراء الشرقية للنيل، حتى القرون الأخيرة السابقة للميلاد، حيث بدأ ظهور اسمي التُرُجلُدايت والبليميين.

فقد ذكر سترابو الذي نقل عن إراتوستين Eratosthenes في القرن الثالث قبل الميلاد: «أنه على جانبي الجزء الأسفل – الشمالي – من مروي على طول النيل في اتجاه البحر الأحمر يسكن المِجَباريون والبليميون، وهم تابعون للإثيوبيين – يقصد المرويين – ويجاورون المصريين. وعلى ساحل البحر يسكن التُرُجلُدايت». وهكذا أصبح سكّان منطقة البجا يعرفون بثلاث أسماء: المِجا، والتُرُجلُدايت، والبليميون[1].

وسيتضح فيما يلي أن البليميين كانوا يتركّزون على مناطق النيل، والمِجا يتركّزون في المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، بجوار التُرُجلُدايت. وعند حديثه عن التُرُجلُدايت، قارن سترابو بين أسلحتهم وأسلحة المِجا، فذكر أن عِصيَّ المِجا تنتهي بمقابض

---

[1]. Strabo، «Geography» Book xviii، p 340.

من حديد، وأنهم يستخدمون في قتالهم الحراب والدرق المصنوع من الجلد غير المدبوغ، بينما يستخدم الأخرون الحراب والسهم والنشّاب.

- **التُرُجلُدايت**

أصل كلمة التُرُجلُدايت Troglodyte يوناني، استخدمها الكتّاب اليونانيون لوصف سكّان الكهوف في كثير من بقاع العالم، كما في حوض الدانوب، والقوقاز، وإفريقيا. وفي إفريقيا ذكرت المصادر الكلاسيكية وجود التُرُجلُدايت في تونس، وليبيا، وأعالي النيل، والبحر الأحمر.

وقد جعلت دائرة المعارف[1] تُرُجلُدايت البحر الأحمر من أشهر هذه المجموعات، ربما لنشاطهم السياسي والتجاري على سواحل البحر الأحمر السودانية. فقد أطلق بليني على ساحل البحر الأحمر (ساحل التُرُجلُدايت)، وذكر أنهم كانوا نشطين في تجارة اللبان، في موانئ البحر الأحمر.

وكما ذكرنا، فإن سكّان منطقة ما بين النيل والبحر الأحمر، عرفوا في المصادر اليونانية والرومانية بالتُرُجلُدايت، والمَجا، والبليميين. وقد استخدمت هذه الأسماء أحيانا للإشارة إلى سكّان منطقة بعينها في بلاد البجة الحالية؛ وأحياناً استخدمت كمترادفات للدلالة على سكّان كل المنطقة، ويرى الباحثون، مثل، محمد إبراهيم بكر[2] وماكمايكل[3]، أن هذه الجماعات هي نفسها التي أطلقت عليها المصادر العربية فيما بعد اسم البجة.

ومن أقدم النصوص عن التُرُجلُدايت، ما جاء في الآثار المصرية القديمة التي ترجع إلى الأسرة السادسة والعشرين، في عصر الفرعون نكاو الثاني[4]. والذي كان شديد الاهتمام بتجارة البحر الأحمر، لدرجة فكر فيها بحفر قناة تربط النيل بالبحر الأحمر، وشرع بالفعل في تنفيذ الفكرة.

وورد في النصوص القديمة، والتي جمعها Eide وآخرون، ونشرتها جامعة بيرغن، عن

---

[1]. (online):
http://www.1911encyclopedia.org/Troglodytes

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 46 و ٨١.

[3]. MacMichael، Harold Alfred، «A history of the Arabs in the Sudan»، London: Frank Cass & Co. Ltd، 1967، vol. 1، p.38.

[4]. Necho II 595-610 BC.

منطقة النوبة بين القرنين الثامن قبل الميلاد والسادس الميلادي، أن الملك نكاو الثاني أرسل حملة نيلية ضد التُرُجلُدايت. ويبدو أن التُرُجلُدايت كانوا منتشرين على مناطق صعيد مصر الأعلى، بين النيل والبحر الأحمر، وربما كانت تلك الحملة ضد التُرُجلُدايت على إحدى الطرق الرابطة بين النيل – من منطقة الأقصر، والبحر الأحمر – أو قد تكون الحملة مرسلة مباشرة من الصعيد إلى سواحل البحر الأحمر.

وقد ساهم التُرُجلُدايت في النشاط التجاري على سواحل البحر الأحمر، وتشير الوثائق إلى علاقاتهم المباشرة مع دولة البطالمة بمصر، فقد ذكر بلوتارخ أن الملكة كليوباترة السابعة «لم تكن تحتاج إلى مترجمين عندما يخاطبها مناديب الشعوب المجاورة لمملكتها، مثل، مناديب الإثيوبيين، والتُرُجلُدايت، واليهود، والسوريين، والميديين».

ويدل ذلك على أن التُرُجلُدايت كانت لهم كيانات سياسية متطوِّرة، مكّنتهم من تنظيم نشاطهم التجاري وعلاقاتهم الخارجية، ورغم أنه لم يرد ذكر لمملكة ترجلداتية في الصحراء الشرقية أو البحر الأحمر في المصادر اليونانية الرومانية – كما حدث للبليميين – إلا أن قيام مثل ذلك الكيان السياسي يعتبر أمراً لا بد منه، خاصة إذا كانت للترجلدايت علاقات خارجية، مثل تلك التي كانت مع البطالمة.

- **البليميون**

البليميون، هو الاسم الذي أطلقته الآثار الفرعونية والكوشية، والمصادر اليونانية والرومانية، على سكّان منطقة النيل الواقعة جنوبي أسوان. وقد دلّت نتائج الأبحاث الجديدة، مثل، أعمال كلايدي ونترز – عالم اللغة المروية المشهور، والذي نشر نص نقش كلابشة المروي – وهانس بَرنارد –الذي اعتمد على الآثار والوثائق التي جمعت عن منطقة شمال السودان، ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي؛ ونشرتها جامعة بيرغن–، ووثائق الجبلين[1] وغيرها من المصادر الكلاسيكية، على وجود البليميين في القرون السابقة للميلاد، وأمدتنا ببعض المعلومات عنهم حتى القرن السادس الميلادي.

وقد ربط الباحثون بين البليميين والمِجا، مما يرجِّح أنهم كانوا عائشين معاً في المنطقة نفسها، أو ربما كان وجود البليميين أكثر تركيزاً على منطقة النيل، والمِجا تجاه البحر

---

[1]. مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م، الملحق رقم 3.

الأحمر . فق وضحت الآثار أن البليميين دخلوا منطقة النيل جنوبي أسوان في القرن السابع ق.م، وأن اسمهم بدأ يتردَّد منذ القرن السادس قبل الميلاد، في الآثار المصرية والكوشية.

وتوضح السجلات المروية، أن البليميين قد استقروا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، على طول المنطقة الواقعة من أسوان حتى منطقة دنقلا، خلال القرون التي سبقت احتلال الرومان مصر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وذكرت المصادر اليونانية السابقة للميلاد[1] أن المناطق الواقعة حول أسوان هي مواطن البليميين الرئيسة، ويمتدون جنوباً وشرقاً نحو حدود أكسوم، وميناء أدوليس على البحر الأحمر. وهذا الوصف يتطابق مع مواطن البجة الحالية.

فالمصادر القديمة - السابقة للميلاد - تناولت كل سكّان المنطقة المعروفة الآن ببلاد البجة تحت اسم البليميين، مما يؤكد أن شعوب هذه المنطقة أُشير إليها في المصادر القديمة؛ مرة تحت اسم البليميين، وأخرى تحت اسم المِجا، ومرة أخرى تحت اسم التُرُجلُدايت. وقد ذكر ماكمايكل[2] أن الكتّاب المسيحيين المبكرين أطلقوا اسم البليميين على البجة.

ويبدو أن استقرار البليميين في القرون السابقة للميلاد، قد ازداد في منطقة جنوبي أسوان، حتى شيد ملك مروي أركاماني (206ق.م - 186 ق.م)، معبداً في كلابشة لإلههم مندوليس. ويعتقد كثير من المؤرخين أن البليميين كانوا السكّان الأساسيين الذين عاشوا في الجزء الأكبر من النوبة السفلى - جنوب أسوان - في القرن الميلادي الأول. ولم يكن استقرار وامتزاج البليميين بالسكّان السابقين في جنوبي أسوان فقط، بل توضِّح الآثار الراجعة إلى فترة ما قبل الميلاد، أن استقرارهم امتد شمالاً في منطقة طيبة في صعيد مصر.

لم يتردّد ذكر البليميين كثيراً في مصادر القرنين الميلاديين الأول والثاني، كما يتضح من النصوص التي جمعها بَرنارد، والتي أشرنا إليها سابقاً، بعكس القرون التالية - من الثالث وحتى السادس الميلادي - والتي شهِدت لهم حضوراً دائماً ومؤثِّراً على الأحداث في مصر والسودان. فقد كانت دولة مروي - التي كان البليميون جزءاً منها - على رأس الأحداث فى المنطقة، وقادت الصراع مع الرومان. فقد احتلت مملكة مروي المناطق الشمالية بعد نهاية حكم البطالمة، وهي المناطق التي شرع الرومان منذ دخولهم مصر في التوسع عليها.

---

[1] MacMichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1، p.3.

[2] Ibid.

- مملكة البليميين

ازداد عدد البليميين منذ القرن الأول الميلادي، كما ذكر المؤرّخون. ويبدو أنهم أصبحوا القوة الرئيسة بين الزعامات المحلية، وتشرَّبوا بالثقافة المروية. ويرى البعض أن فخّار منتصف القرن الثالث الميلادي في كلابشة، قد يكون من عمل البليميين الذين تثقّفوا وكتبوا نقوشاً مروية وإغريقية، عُثر عليها في معبد كلابشة. وهكذا تهيّأ البليميون منذ منتصف القرن الثالث الميلادي للقيام بدورهم القيادي في المنطقة.

نقل مصطفى محمد مسعد عن مصادره[1] أن العلاقات ساءت بين البليميين والرومان، وبدأ البليميون هجومهم على الرومان عام 250م. وفي الوقت نفسه ورد في نصّ عُثر عليه في جزيرة فيلة، جوار أسوان، أن الملك المروي تقردماني Teqeridamani (246م – 266م) أرسل سفارة إلى الإمبراطور الروماني حاملاً إليه الهدايا. وذكر ترمنغهام أن تلك السفارة كانت بقيادة أمير بليمي يدعى Pa-smun Ibn Paesi. ويصف الأمير نفسه أنه السفير العظيم إلى روما[2]. والبحث عن سبب السفارة، أو سبب اعتداءات البليميين على الرومان، يتطلّب المزيد من البحث. ولكن لا يبدو وجيهاً أن يكون سبب السفارة -كما يرى البعض- طلب مملكة مروي المساعدة من الرومان الذين أثبتت الوثائق اضطراب الأوضاع في مناطق حدودهم مع مروي.

وتحالف البليميون مع زنوبيا (الزباء)، ملكة (تُدمر) في سوريا، عندما هاجمت الرومان في مصر. وتحرّك الرومان سريعاً فهزموا قوات زنوبيا، وقضوا على الثوار في طيبة، وهزموا البليميين وأجلوهم إلى ما وراء أسوان. غير أن البليميين عاودوا واحتلوا الرقعة ما بين مدينتي Coptos وPtolemais في منطقة طيبة في صعيد مصر.

وبعد نحو عقدين من السفارة المروية البليمية للبيزنطيين انهارت مملكة مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي. ويبدو أن مولد مملكة البليميين المستقلة قد بدأ بذلك الحدث. فكما رأينا، من تسلسل الأحداث منذ القرن الثالث الميلادي، فإن البليميون أصبحوا القوة المهيمنة على حدود مروي الشمالية، وكان من الطبيعي أن يكونوا ورثتها في الحكم، على الأقل في مناطق نفوذهم في الشمال. ولم يصبح البليميون -كما ذكر بعض المؤرخين- جنرالات النهر فقط، بل اعترف بهم كحكام يديرون شؤون بلادهم بحرية تامة.

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 29.

[2]. Trimingham، J. S.، Islam in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd، 1965، p.44.

ويبدو أن البليميين قد بدأوا بسط نفوذهم في المنطقة حتى سواحل البحر الأحمر، لأن إحدى الوثائق الرومانية تحدّثت عن تعرُّض بعض القواعد الرومانية على البحر الأحمر لغارة من سفن البليميين عام 378م. وربما بدأ اسم البليميين ينتشر بعد امتداد نفوذهم شرقاً؛ فأطلق الرومان اسمهم على سكان منطقة التُرُجلُدايت. وقد يؤيِّد ذلك أيضا ما تردَّد في المصادر عن ترادف استخدام البيليميين، والمِجا، والتُرُجلُدايت.

وقام البليميون في عام 429م، بغارات على منطقة طيبة والواحة الخارجة، التي كانت مركزاً رومانياً يطلّ على حدودهم الصحراوية، ونهبوا الواحة، وأسروا بعض سكّانها، ومن بينهم نسطورس؛ القس المسيحي المشهور، الذي كان الرومان قد نفوه إلى هنالك. ولكن البليميون أطلقوا سراحه بعد مفاوضات مع قبيلة الأمازيغ mazici الصحراية، وكانت هذه القبيلة تتجوّل في الصحراء حتى المنطقة الواقعة بين أسوان والواحة الخارجة.[1]

وكان انتشار المسيحية قد بدأ في مصر في زمن باكر، لكن القرن الرابع الميلادي شهد تحوُّلاً كبيراً في العالم المسيحي، عندما أظهر الإمبراطور قنسطنطين الأكبر (313م – 337م) ميله للمسيحية، وانتهى اضطهاد وتعذيب المسيحيين، وتمتّعت المسيحية برعاية الدولة. وساهمت الإسكندرية -إحدى أهم المراكز المسيحية- في نشر الفكر المسيحي المبكر. وكان من أكبر إنجازاتها نشر المسيحية في الحبشة، في عهد الإمبراطور قنسطنطين الأكبر.

وكانت المسيحية منذ وقت باكر قد بدأت تنتشر في صعيد مصر، وتحوَّلت الكثير من المعابد إلى كنائس في إقليم طيبة، كما أنشئ عدد من الكنائس. وفي القرن الرابع الميلادي أُسِّست أسقفية في فيلة. كما انتشرت المسيحية في أكسوم شرقاً، وفي واحات الصحراء الغربية، مثل الواحة الخارجة. أما في شمال السودان وشرقه المتاخم للحدود المصرية، فقد تأخَّر انتشار المسيحية بالمقارنة إلى انتشارها في إقليم طيبة، وأكسوم، والواحات، ربما يرجع السبب إلى الاضطرابات التي عاشها الإقليم منذ بداية الحكم الروماني لمصر.

وتشير بعض الدلائل إلى أن الدعوة المسيحية بدأت تتسرَّب إلى مناطق البليميين والنوباديين منذ القرن الرابع، غير أنها لم تنتشر سريعاً فى السودان في القرون الباكرة. ويبدو أن قوة النوباديين نمت في المنطقة إلى جانب البليميين. وأسّس سلكو مملكته منذ العام 530م. إلا أن إحدى الوثائق اليونانية (535م – 537م) وضَّحت أن البليميين والنوباديين

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 7.

كانوا ما يزالون حلفاء. غير أن نشاط البعثات التبشيرية، وصِلات البيزنطيين بالنوباديين قد حوّل موقفهم المعادي للمسيحية، بينما واصل البليميون سياستهم المعادية للمسيحية. وكان ذلك إيذاناً بنهاية الود والتحالف بين البليميين والنوباديين، وبداية الصراع الذي أدى إلى نهاية مملكة البليميين، كما تقول المصادر.

وما توفّر من معلومات عن البليميين يشير إلى حقيقتين مهمتين: الأولى؛ أن البليميين أصبحوا قبل انهيار مروي بوقت طويل سادة المنطقة وجنرالات النهر، وثانياً؛ يؤكد ذلك تطوُّر نظام حكمهم، مما يجعل قيام مملكتهم -تحت ظل المرويين- أمراً مقبولاً. هذه الدلائل تشير إلى أنه من المقبول جدّاً أن يسعى البليميون إلى وراثة مملكة مروي بعد سقوطها. ويزيد ذلك تأكيداً نقش كلابشة، الذي تضمَّن في موضعين الإشارة إلى كونهم ورثة مروي.

فقد جمع بَرنارد نحو 73 نصاً عن البليميين، والمِجا، والتُرُجلُدايت، والبجة، ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي. وبلغ عدد النصوص التي ذَكرت البليميين بالاسم مباشرة، أو التي تضمّنت الإشارة إليهم 47 نصاً. ويشير ذلك إلى أن البليميين كانوا القوة المسيطرة في المنطقة، وأن اسمهم أصبح أكثر انتشاراً في الوثائق والآثار من أسماء أبناء عمومتهم؛ المِجا والتُرُجلُدايت، وأصبح علماً عليها في بعض الأحيان. أما اسم البجة، فقد اشتهر كعلم على كل المجموعات الأخرى منذ القرن السابع الميلادي.

ومن بين الـ47 نصاً، جاءت 7 منها قبل القرن الثالث الميلادي. وبلغت النصوص في القرن الثالث 8 نصوص، وفي القرنين الرابع والخامس 20 نصاً، وفي القرن السادس 12 نصاً. ويدل ذلك بوضوح أن البليميين كانوا موجودين في المنطقة منذ القرن السابع قبل الميلاد، إلا أن قوتهم برزت منذ القرن الثالث الميلادي، وأصبحوا عنصراً فاعلاً في أحداث كل المنطقة الواقعة ما بين الواحة الخارجة غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، حيث امتدت غاراتهم في القرون التالية حتى أطراف البحر الأحمر الشمالية. أما في الشمال فرغم كون حدودهم في أسوان، إلا أن امتداد نفوذهم تعدّى ذلك في القرون التالية إلى منطقة طيبة في صعيد مصر.

وقد بلغت نصوص القرنين الثالث والرابع الميلاديين 20 نصاً، الأمر الذي يوضح ازدياد نفوذ البليميين في المنطقة. وقد رجّحنا فيما سبق قيام مملكة البليميين المستقلة داخل مملكة مروي في القرن الرابع الميلادي، ولعلّ ما ورد عن ملوك البليميين يؤيِّد ذلك. فقد وردت أسماء ستة ملوك بليميين فيما جمعه بَرنارد من نصوص، ثلاثة منهم قُدِّرت تواريخ

حكمهم في القرن الخامس الميلادي، والثلاثة الباقين في القرن السادس. والوثائق الأخرى المرتبطة بالبليميين هي ثلاث وثائق مكتوبة على جلد غزال باللغة اليونانية، عثر عليها فلاح مصري في منطقة الجبلين على بعد 25 ميلاً جنوب مدينة الأقصر.[]

الوثيقة الأولى، وجاءت ترجمتها: «أنا شاراشن ملك البليميين، أكتب إلى أولادي شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقاً لأمري هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تناري، وألاّ يقف في سبيلكم أحد. وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم، فإنه لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتي». شاراشن الملك، تنتكنا: أمير القصر - شاهد، كتبه سانسانوس في اليوم الرابع والعشرين من شهر (....)».

وهنالك وثيقة أخرى[] وهي عبارة عن أمر ملكي أصدره الملك باراخيا Barakhia إلى صوفيا، يشير إلى وضعها أو إقامتها في مكان ما، وقد ورد أن هذا الملك خلف الملك خاراخِن أو شاراشن. فنحن أمام أربعة نصوص تتعلّق كلها بحكم البليميين منطقة في صعيد مصر. وتسوق هذه الوثائق العديد من الأسئلة مثل:

- ما هي علاقة البليميين بصعيد مصر أو إقليم طيبة؟.
- إلى أيٍّ مدىً امتد نفوذ البليميين على صعيد مصر؟.
- هل حكم البليميون مناطق أخرى غير جزيرة تناري.. ولم يصل إلينا ما يوضح ذلك؟.
- متى حكم البليميون جزيرة تناري؟.

قد حاولنا الإجابة عن بعض هذه الاسئلة في كتاب (الوعي بالذات وتأصيل الهوية)، ولكن تظل مثل هذه الأسئلة في انتظار المزيد من البحث والتقصيّ. والذي يثير الانتباه، ويتطلّب البحث الجاد، هو ارتباط ووجود البليميين الواضح -عندما دخل المسلمون مصر- بإقليم طيبة، الذي يقع ما بين منطقة الأقصر الحالية وأسوان.

وكما وضحنا أعلاه فإن البليميين تمركزوا على النيل، وتمركز المِجا في الصحراء الشرقية،

[]. وقد ترجمها إلى الإنجليزية كيراون وإمري، ونقلها إلى العربية وضمنها ملاحق كتابه مصطفى محمد مسعد في كتابه: الإسلام والنوبة، تحت عنوان (الوثائق الدالة على استقرار البليميين في منطقة طيبة).

[]. الوثيقة رقم أربعة ذكرها برنارد في Hans Bernard، Sire، il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation (of Historical and Archaeological Data. Clause no. 339 (online.

وهم السلالة التي أطلقت عليها المصادر العربية اسم (البجة). ويبدو أن اسم البليميين قد بدأ في الانحسار في القرنين اللذين تليا دخول المسلمين مصر، وانحصر في مناطق محدودة في بلاد النوبة. فقد ذكرهم الجغرافي العربي المشهور الإدريسي، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، مشيراً إلى قبيلة قوية بجوار النوبة تعرف بالبليين. وفي الوقت نفسه يبدو أن استخدام اسم (المِجا) على سكّان ساحل البحر الأحمر والصحراء الشرقية، ساد وظهر في المؤلفات العربية باسم (البجة).

قبائل شرق السودان

تركّزت معلومات المصادر العربية -تاريخية، وجغرافية، وكتب رحالة- والتي تناولت منطقة شرق السودان على المجموعات الشمالية للقبائل. فقد بدأت صِلات المسلمين من مصر باكراً بتلك المناطق، بحكم مجاورتها لهم. وازدادت تلك الصِلات -سلمية في بعض المرات، وحربية مراتٍ أخرى- حتى بداية اشتغال المسلمين بالتعدين في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، والذي استمر حتى بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (762هـ). وكان اتصال المسلمين طيلة هذه الفترة بالمجموعات الشمالية من البجة. والذي ينبغي ملاحظته أن جمهرة المصادر تناولت البجة وبلادهم بصورة عامة، ولكن أغلب مادتها تصدق فقط على المجموعات الشمالية منهم.

ذكر أسماء القبائل التي سترد:

قبيلة الحداربة

تناولنا فيما سبق بلاد البجة، ورأينا أنها كانت تتمتَّع بوفرة المياه من الأنهار دائمة الجريان، ومياه الأمطار، مما وفَّر ثروة زراعية وحيوانية غنية، إلى جانب التجارة والتعدين. أدّى كل ذلك إلى مساهمة سكّان بلاد البجة بنصيب واضح في الأوضاع الحضارية في المنطقة. وسنلقي الضوء على ما ورد عن أولئك السكّان في المصادر العربية حتى القرن الخامس عشر الميلادي -أي قبل ظهور مُسمَّيات القبائل المعروفة لنا حاليّاً- وسنبدأ بقبيلة الحداربة.

قبيلة الحداربة من أكبر قبائل البجة التي حظيت بنصيب وافر من المادة في المصادر

العربية. ونسبة لغزارة تلك المادة فسنقسِّمها زمنيّاً وفقاً للوقت الذي أُلِّفت فيه تلك المصادر.

أولاً: المادة التي وردت في مصادر القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، وهي الفترة التي شهدت أغزر وأصدق مادة عن قبائل البجة في المصادر العربية.

ثانياً: تليها المادة التي وردت في المصادر التي كتبت في القرون الخامس، والسادس، والسابع الهجرية. (الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر الميلادية).

ثالثاً: المادة التي وردت عند العمري، وما نقله عنه القلقشندي، إلى جانب ما ورد عن العربان وإماراتهم، وما ورد في مصادر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

أولاً: قبيلة الحداربة في المصادر العربية المبكرة (القرنان 3 – 4هـ/ 9 10–م).

هنالك ملاحظة مهمة ينبغى مراعاتها، ونحن نتناول نصوص المصادر العربية عن قبائل البجة، هي أن أغلب المادة التي وردت في تلك المصادر عن البجة بصورة عامة، قُصِد بها الحداربة، الأمر الذي يتطلّب ضرورة الانتباه لذلك. يقول اليعقوبي، الذي تعتبر نصوصه من أقدم وأغزر ما وصل إلينا عن البجة في المصادر العربية: «ومن العلاقي إلى أرض البجة الذين يسمّون الحداربة، والكدس، خمس وعشرون مرحلة، ومدينة ملك البجة الحداربة يقال لها هجر، يأتيها الناس من المسلمين للتجارات»[1]. وفي كتابه (التاريخ) يقول: «فأول مملكة البجة من حدِّ أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمُّن بين المشرق والمغرب إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال له نقيس، ومدينة المملكة يقال لها هجر... وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن».[2]

فحدود مملكة البجة الأولى؛ مملكة الحداربة –عند اليعقوبي– تبدأ من آخر حدّ المسلمين في أسوان، وتمتد جنوباً حتى وادي بَرَكَة. ويتضح من هذا التحديد أن هذه هي المنطقة التي ارتادها المسلمون في عملهم في مجال التعدين. فاليعقوبي أطلق على سكان المملكة الأولى

---

[1]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 19.

[2]. المرجع نفسه، ص 21-22.

في كتابه (التاريخ) الحداربة والكدس، وعلى مملكتهم مملكة الحدارية[1]، وفي كتابه (البلدان) أطلق عليهم وعلى المملكة اسم نقيس، لكنه أعطى العاصمة اسماً واحداً هو هجر[2].

ويلاحظ أن اليعقوبي لم يذكر اسم نقيس في كتابه (البلدان)، بينما تكرّر اسم الحدارية، وفي كتابه (التاريخ) جعل الحدارب فرعاً من نقيس. ولم تذكر المصادر العربية الأخرى اسم نقيس بل ذكرت الحداربة. ولا نملك ما يساعد على فهم مثل هذه النصوص. هل عرفت القبيلة بالاسمين معاً؟، وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يظهر الاسم في المصادر الأخرى؟، وهل الاسم القبلي هو نقيس أم الحدارب؟.

ويبدو أن نقيس عند اليعقوبي تمثّل الاسم القبلي العام فقد قال: «ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب، فمنهم: الحدرات، وحجاب، والعماعر، وكوير، ومناسة، ورسفة، وعربرتعة»[3]. يميل البعض إلى أن (الحدرات) في هذا النص هم الحداربة، وإذا صدق هذا يكون نقيس اسماً عاماً شاملاً لقبائل كثيرة في المنطقة مثل الحداربة.

وقد ذكر ابن حوقل بطون الحداربة فقال: «فأما بطون الحدارب فمنهم: العريتيكة، والسوتبار، والحوتمة، والعنكبيرا، والنجريروا، والجنيتيكة، والواخيكة، والحربيب، بطن واحد، ويتفخّذ لهؤلاء القوم كل بطن إلى نحو مائة فخذ، ولكل فخذ رئيس أو رئيسان»[4].

ويبيّن هذا النص مدى كِبر قبيلة الحداربة. فقد ذُكِرت سبع بطون، ولكل بطن نحو مائة فخذ، وللأفخاذ الكبيرة رئيسان. وقد يصل هذا التقدير بعدد القبيلة إلى نحو نصف مليون فرد. ويلاحظ أن أسماء بطون وقبائل البجة لم ترد في المصادر العربية الأخرى، ولذلك ليس لدينا معلومات عن هذه القبائل. ويمكن فهم عدم وجود إشارات عن هذه القبائل في المصادر العربية بأنها لم تهتم كثيراً بذكر فروع قبائل البجة، والاستثناء الوحيد هو ما ورد عند اليعقوبي وابن حوقل.

فابن حوقل دخل المنطقة الشرقية لبلاد البجة، ونتوقّع أن يكون على دراية ببطون الحداربة الذين نفترض زيارته لجزء من منطقتهم. أما اليعقوبي الذي كتب قبل ابن حوقل فهو أيضاً قد تجوّل كثيراً، ودخل مصر حيث أنهى تأليف كتابه (البلدان) فيها. وقد عاصر

---

[1]. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص 14.

[2]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 22.

[3]. المرجع نفسه، ص 22.

[4]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

اليعقوبي في مصر بداية دخول القبائل العربية للعمل في مناطق المعادن في أرض البجة في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي). لذلك تمكّن اليعقوبي من الحصول على معلومات مفصّلة عن مناطق التعدين، لكنه لم يذكر إن كان دخل تلك المناطق التي وصفها، أم أنه جمع معلوماته من التجار وغيرهم. كما جاءت معلوماته عن باقي مناطق البجة غزيرة، فهو الوحيد الذي فصّل الحديث عن ممالك البجة ومواقعها.

ويرى كراوفورد أن العريتيكة التي ذكرها ابن حوقل ضمن بطون الحداربة، هي قبيلة الأرتيقا الحالية، كما يرى أيضاً أن منطقة أم ناجي البشارية الحالية شرق بربر كانت جزءاً من نقيس، وذكر أن أحد فروع البشاريين يطلق عليه كادبين، وربما يرجعون إلى الكذبيين الذين ذكرهم اليعقوبي، ربما كانت هي نفسها كديم المعروفة بـ عجات عند ابن حوقل. ويعني ذلك أن بطون كديم انتشرت في هذه المنطقة الصحراوية شمال غرب بلاد البجة.□

وقد كان قبيلة الحداربة أولى قبائل البجة التي اتصلت بالمسلمين عند دخولهم مصر، وإن لم تُشِر إليها أغلب المصادر بالاسم، لكن تحديد موقع الحداربة بجوار حدود مصر الجنوبية يوضح هذه الحقيقة. ولعل أول إشارة وردت عن الحداربة -تحت اسم البجة- في المصادر العربية في التفاصيل التي انفرد بذكرها الواقدي عن حروب المسلمين في صعيد مصر. حيث ذكر أن البيزنطيين استنجدوا بملك النوبة، وملك البجاوة، الذي سماه مرة (مازغ)، ومرة أخرى (مكسوج)، وأن كليهما لبّى النداء، وقَدِما لحرب المسلمين□.

وأورد الواقدي بعض التفاصيل عن جيش البجة فقال: «وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل، عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة، عراة الأجياد، على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور.. وغيرها، ومعهم الدرق، والحراب، والكرابيج، والقسيّ، والمقاليع، وأعمدة الحديد، والطبول، والقرون. وكانت عدتهم عشرين ألفاً»□. يلاحظ أن مسعد لم يورد النص الذي يوضح موافقة النوبة والبجة على نجدة البيزنطيين في ما نقله من كتاب الواقدي في (المكتبة السودانية).

ورغم الشك في مصداقية نصوص الواقدي هذه، والمبالغة الواضحة فيها، إلا أنها ربما

□. Crawford، «The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region»، p. 104-108.

□. الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، بيروت: دار الجيل، بيروت (د. ت)، ج 2 ص 47، 57، ٢٢٧.

□. المرجع نفسه، ج2 ص228.

حملت بعض الحقيقة عن وجود البجة -الحداربة- كقوة لا يستهان بها على حدود مصر الجنوبية الشرقية. والإشارة الثانية التي وردت عن البجة (الحداربة) أوردها ابن عبد الحكم، حيث ذكر أن عبد الله بن سعد عندما فرغ من حروبه في بلاد النوبة عام 31هـ تجمّع له البجة «فسأل عنهم، فأخبر بمكانهم، فهان عليه أمرهم، فنفذ وتركهم، ولم يكن لهم عهد ولا صلح»[1].

وقد ورد عند ابن حوقل ما يوضح أن عبد الله بن سعد اشتبك مع البجة، وإن لم يورد تفاصيل ذلك، فقد ذكر أن «عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمّا فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية، وكان عبر إليها من الحجاز، قهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم»[2].

ويشير هذا النص إلى أن البجة كانوا ما يزالون يحتفظون بقوتهم في صعيد مصر. وقد وضّحنا في كتاب (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية)[3] كيف أنهم كانوا يحكمون بعض المناطق، فيما بين مدينتي أسوان والأقصر الحاليتين، حتى منتصف القرن السادس الميلادي، أي قبل نحو قرن واحد من دخول المسلمين مصر. وكان هذا الفرع من البجة يعرف باسم البليميين. وإلى جانب البليمين كان هنالك أيضاً المِجا، الذين كانوا ينتشرون شرق النيل، والترجلودايت على البحر الأحمر. غير أن قوة وانتشار البليميين في القرون السابقة لظهور العرب جعلت اسمهم يطلق على طول المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر. ثم ساد بعد ذلك اسم البجة في المصادر العربية.

وبعد اشتباك البجة الأول مع المسلمين في صعيد مصر -الذي ذكره ابن حوقل- لم تتطرّق المصادر إلى أخبارهم إلا في بداية القرن الثاني الهجري، حيث ذكر ابن عبدالحكم أن «أول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب»[4]. ولم تذكر المصادر ما حدث في عصر ابن الحبحاب، لكن يبدو أن العلاقات كانت متوتّرة بين البجة (الحداربة) والمسلمين، فقد ذكرت المصادر ثلاثة حروب بين الاثنين في الأعوام 212هـ و216هـ و241هـ.

ويوضح المسعودي، أن البجة على حدود مصر الجنوبية، والذين بدأوا علاقاتهم مع

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص10.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 55.

[3]. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، مرجع سابق، الفصل الرابع.

[4]. ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 10.

المسلمين حربية في البداية، ثم ودية بعد استقرار المسلمين في أرض المعدن، هم الحدارية. وقد وردت الإشارة إلى مملكة البجة (الحدارية) في العهد الذي كُتِب لملك البجة الذي أطلقت عليه المصادر العربية اسم كنون بن عبد العزيز عام 216هـ/831م. وقد اعتُرِف في هذا العهد بـ(كنون) ملكاً على قومه، وورد في المعاهدة أن عاصمته مدينة هجر. فالحدارية كانوا في ذلك الوقت مملكة قوية لها علاقات مع المسلمين في منتصف القرن الثالث الهجري.

وتتضح قوة الحدارية وكِبر عددهم في تقدير المسعودي عام 332ه لقوتهم حيث ذكر: «أبو مروان بشر بن اسحاق -وهو من ربيعة- يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية، وهم الحدارية وهم المسلمون من بين سائر البجة»[1].

وقدَّر ابن حوقل، الذي كان معاصراً للمسعودي، عدد الجيش الذي أعده ملك البجة علي بابا - كما أطلقت عليه المصادر العربية، وهي قراءة للاسم البجاوي أولباب، كما ذكر ضرار صالح- لحرب المسلين بـ»مائتي ألف، ومعهم ثمانون ألف نجيب»[2]. وحتى لو افترضنا أن في هذه الأرقام نوعاً من المبالغة، إلا أنها تعكس واقع قوة الحدارية الضاربة.

وعن تنظيم الحدارية القبلي اتضح أنهم قبيلة كبيرة ذات تنظيم قيادي واجتماعي محكم. فللقبيلة زعامة كبرى، ربما مثل ناظر القبيلة الحالي، ولكل بطن من القبيلة رئيس أو رئيسان، ويبدو أن ذلك يتوقّف على عدد أفراد البطن، فإذا كان عدد أفراده كبيراً كان لكل بطن زعيمان.

كما أشار ابن حوقل إلى النظام الطبقي الذي ساد مجتمع الحدارية، مبيناً أن هنالك طبقتين متميزتين، ويبدو من خلال وصفه أن التقسيم اعتمد على الثروة، فأطلق على الطبقة الأولى طبقة المياسير، وعلى الطبقة الثانية طبقة الضعفاء. وذكر أن طعام المياسير «اللحم واللبن خاصة»، وأن الضعفاء «يأكلون الوحش كالغزال، والنعام، والحمار»، معدِّداً أنواع الطعام والأعمال التي لا يقربها المياسير، فقال: «ومياسيرهم لا يرون أكل الصيد، ولا مخالطة آكله، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحلّه، ولا يحلبون فيها ولا يشربون». فهذه الأطعمة والأعمال خاصة بطبقة الضعفاء.

ووضّح ابن حوقل مضارب قبيلة الحدارية الواسعة الممتدة ما بين البحر والنيل، بما

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2 ص18

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، ص58.

يكشف تنوُّع مصادر الحياة فيها من الماء والنباتات والحيوان. غير أنه ذكر أن «لا حاضرة لهم، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع وينتجعونها بمواشيهم»، وهذا يتعارض مع ما تواتر في المصادر عن مدن الحداربة، مثل عاصمتهم مدينة هجر، ومدينة سواكن، ومدينة عيذاب، ومدينة صيحة، ومدينة بختة.

ثانياً: الحداربة في المصادر العربية (5 - 7هـ)

يلاحظ شحّ المعلومات في المصادر العربية منذ نهاية القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، وحتى القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، عن الحداربة بصورة خاصة، والبجة بصورة عامة، وحتى ما وصل في هذه الفترة يتّسم بالاختصار الشديد، وعدم الدقة أحياناً، كما سنلاحظ ذلك. ويمكن القول إن المعلومات التي ذكرها مؤلّفو القرنين الثالث والرابع الهجريين، مثل، اليعقوبي، والطبري، والمسعودي، وابن حوقل، وابن سليم، هي آخر ما وصلنا من معلومات مفصّلة عن قبائل البجة، بما فيهم الحداربة.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا قلّت المعلومات الواردة عن البجة في تلك القرون (الـ10 الميلادي - الـ14 الميلادي)، والتي شهدت نشاط المسلمين في العمل في مناطق التعدين، كما شهِدت فتراتٍ من نشاط ميناء البجة؛ عيذاب، كمعبر للحجاج وكميناء تجاري. كما شهِدت هذه الفترة ظهور عدد كبير من المؤلّفات العربية التي تناولت أحداث المنطقة، وعاش أغلب مؤلِفيها في مصر، قريباً من البجة. كان من المفترض أن تؤدي كل هذه العوامل إلى توفُّر المعلومات عن قبائل البجة ونشاطها في المنطقة، ولكن ما حدث جاء خلاف ذلك.

ويبدو معقولاً أن يكون السبب في ذلك هو عدم اهتمام المؤلفين المسلمين بأخبار البجة، حتى الرحالة الذين زاروا بعض مناطقهم، ومكثوا فيها بعض الوقت، مثل ناصر خسرو، وابن جبير. فهل يرجع السبب في ذلك إلى انعزال البجة ونهاية صِلاتهم بالمسلمين؟. لا يبدو ذلك صحيحاً، لأنهم كانوا يشاركون في أعمال التعدين حتى توقّف العمل فيه في منتصف القرن الثامن الهجري (14 الميلادي)، كما ذكر المقريزي، والتساؤلات مطروحة، والحذر متطلّب فيما يرد عن أخبار البجة في تلك القرون كما سنتعرّف عليها[1].

ففي منتصف القرن الخامس الهجري (11 الميلادي)، دخل الرحالة ناصر خسرو ميناء

[1]. المقريزي، الخطط المقريزية، مرجع سابق، ص 293.

عيذاب، وذكر أنه: «خَلْف عيذاب صحراء عظيمة، بها مراعٍ واسعة، وخلق كثيرين يسمون البجة، وهم قوم لا دين لهم ولا مِلَّة، ولا يؤمنون بنبيٍّ ولا إمام، وذلك لبُعْدهم عن العمران. وهم يسكنون صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ». وذكر أنهم «ليسوا أشراراً ولا يسرقون.. يشتغلون بتربية ماشيتهم.. يسرق المسلمون أبناءهم، ويحملونهم إلى المدن الاسلامية ليبيعوهم فيها»[1].

ورغم أن ناصر خسرو أقام في عيذاب ثلاثة أشهر في منتصف القرن الخامس الهجري (11 الميلادي)، في انتظار تغيُّر اتجاه الرياح ليسافر إلى جدة، إلا أن ما أورده عن البجة جاء مقتضباً وغير دقيق، مما يوضح عدم اهتمامه بتقصيّ أخبارهم، كما أنه لم يُشر إلى قبيلة الحداربة، أو أية قبيلة بجاوية أخرى. وواضح أن البجة الذين ذكرهم -من وراء عيذاب- بأن «لا دين لهم ولا مِلَّة» هم الحداربة الذين قال عنهم المسعودي قبل نحو مائة سنة: «وهم المسلمون من بين سائر البجة». وكان ناصر خسرو الوحيد من بين من المصادر التي اطّلعت، والتي ذكرت غارات المسلمين على البجة، وسرقة أبنائهم، وبيعهم رقيقاً، مما يقلّل من مصداقيتها.

ثم جاء بعده الجغرافي المشهور الإدريسي في القرن السادس الهجري (12 الميلادي)، والذي أورد الكثير من التفاصيل عن سكان وبلاد مملكتي المقرة وعلوة. إلا أن ما أورده عن البجة جاء مقتضباً. قال عن بلادهم: «ليس بأرض البجة قرى ولا خصب، وإنما هي جدبة».[2] لم يذكر الحداربة بالاسم، كما تناول نشاط بعض البجة -ربما كانوا من البليين أو الحداربة- في جمع الذهب من الصحراء على ضوء القمر. وفي النهاية أورد مادته الفريدة عن البليين. وتبدو الصلة منطقية بين البليين والحداربة ونقيس، إذ ذكروا كلهم في المنطقة نفسها، ووصفوا بالقوة والعدد الكبير، فهل كان البليون أحد فروع نقيس؟.

أما المؤرخ المشهور ابن الأثير (القرن 7 الهجري)، فقد تناول فقط الحروب المبكرة بين المسلمين والبجة. وأمدَّنا ابن سعيد في القرن السابع الهجري بمزيد من المعلومات عن سواكن وبالقليل عن البجة فذكر: «العلاقي هي مدينة ملك البجا». وربما قصد بذلك أنها حاضرة أحد فروع الحداربة الذين يسيطرون على المنطقة أو المدينة، أحد زعماء البليين القبيلة القوية الذين كانوا يشاركون الحداربة الحياة في المنطقة.

---

[1]. ناصر خسرو، سفر نامة، (موقع الوراق)، ص 118.

[2]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص 135.

وعن سواكن يواصل ابن سعيد: «وحول جزيرة دهلك من جنوبها وشماليّها جزائر مسكونة وخالية، راجعة لصاحبها، وربما يحارب عليها مع صاحب جزيرة سواكن، وهو من البحار (التجار) وهو مسلم، وله ضرائب على المراكب، وإنما تعدل المراكب إليه من بر العرب والحجاز واليمن، لأن ذلك أرفق لها. وسواكن صغيرة جداً، أقل من ميل، وبينها وبين البر الحبشي مجاز يقطع بالسباحة، وبين سواكن وعيذاب في البحر نحو سبع مراحل. وفي غربي سواكن على نيل الحبشة بلاد الباكة (التاكة) وهم إخوة الحبشة الذين على هذا النيل»[1].

ثالثاً: قبيلة الحدارية في مصادر القرن 8 هـ/ 14م

أمدنا الرحالة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري بمزيد من المعلومات عن البجة وبلادهم، فتناول الموانىء، وما لاحظه عن طبيعة المنطقة، ووصف السكان، وأزياءهم، وطبيعة معيشتهم، كما تعرّض للقبائل العربية التي كانت تعيش مع البجة. وقد دخل ابن بطوطة أرض البجة أكثر من مرة عامي 726 و732هـ. ففي المرة الأولى دخل عيذاب، والتي أتى إليها من صعيد مصر في طريقه إلى الحجاز في العام 1325/624م.

ووصف عيذاب بأنها: «مدينة كبيرة.. وأهلها البجاة، وهم سود الألوان، يلتحفون بملاحف صفراء، ويشدّون على رؤوسهم عصائب، يكون عرض العصابة إصبعاً، وهم لا يورّثون البنات، وطعامهم ألبان الإبل، ويركبون المهاري، ويسمونها الصهب. وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف بالحَدْرَبي - بفتح الحاء المهمل، وإسكان الدال، وراء مفتوحة، وباء موحدة وياء- ولمّا وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحَدْرَبي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب التُرك أمامه، فتعذّر سفرنا في البحر»[2].

وضّح ابن بطوطة أن عيذاب مدينة كبيرة، وسكانها البجة، وقصد بالبجة هنا الحدارية، وبيّن ملابسهم الملاحف ورباط الرأس، لكنه لم يذكر شيئاً عن شعر الرأس، مما يوضّح أن البجة الذين رآهم ابن بطوطة لم يكونوا يرسلون شعور رؤوسهم، وهي السِمة التي نقلها عنهم الرحّالة فيما بعد. وتبدو قبيلة الحداربة على قدر واضح من القوة والنفوذ، بحيث تمكّنوا من هزيمة الأتراك الذين ربما أغاروا على المدينة من أجل النهب. كما وضح أن البجة (الحداربة) لا يورّثون البنات، وهذا ينفي مع ما ورد في بعض المصادر العربية عن عادة البجة

---

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

[2]. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 254.

في توريث ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب.

وقد ناقشنا هذه المسألة عندما تحدّثنا عن السكّان، ورجّحنا ما قاله ابن بطوطة؛ مستشهدين ببعض الأدلة. ولو أخذنا بذلك؛ ينبغي علينا مراجعة ما دأبت المراجع الحديثة على الاستدلال به، من أن العرب تزوّجوا بنات الزعماء المحليين في السودان، وورثوا السلطة كما جرت عليه عادة توريث ابن البنت. وفي المرة الثانية دخل ابن بطوطة ساحل البجة في طريق عودته من الحجاز عام 730هـ/1329م، وقد تعرَّضت سفينتهم لعاصفة ألقت بهم إلى ساحل البجة.

وأضاف ابن بطوطة: «ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر، فيما بين عيذاب وسواكن، فنزلنا به، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد، وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء، فشربنا منه وطبخنا، ورأيت في ذلك المرسى عجباً، وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به، وقد امتلأ سمكاً، كل سمكة منها قدر الذراع، ويعرفونه بالبوري، فطبخ منه الناس كثيراً واشتروا، وقصدت إلينا طائفة من البجاة، وهم سكان تلك الأرض، سود الألوان، لباسهم الملاحف الصفر، ويشدُّون على رؤوسهم عصائب حمراً، عرض الإصبع، وهم أهل نجدة وشجاعة، وسلاحهم الرماح والسيوف، ولهم جِمال يسمونها الصُّهب، يركبونها بالسروج، فاكترينا منهم الجمال، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها، وهي تأنس بالأدمي ولا تنفر منه»[1].

وصف ابن بطوطة البجة (الحداربة) بأنهم أهل نجدة وشجاعة، وقد تكرّرت مثل هذه الأوصاف في المصادر العربية، وبيَّن تعاملهم الجيد مع التجار والمحافظة على سلامتهم وتأمين أموالهم. وكانوا يقومون بتأجير جمالهم للتجار وقت الحاجة. وذكر أن البجة لا يأكلون الغزلان، وهي كثيرة حتى أنها تأنس بالأدمي. وواضح أن البجة هنا يراد بهم الحداربة، الذين وضَّح ابن حوقل أن «طعامهم اللحم واللبن خاصة، وضعفاؤهم يأكلون الوحوش كالغزال والنعام والحمار، وهم مسلمون بالاسم، ومياسيرهم لا يرون أكل الصيد ولا مخالطة آكليه، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحلّه، ولا يحلبون فيها ولا يشربون»[2].

---

[1]. المرجع نفسه.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 75.

وأعتقد أن تعبير ابن بطوطة هنا أصدق من ابن حوقل. فابن بطوطة يرى أن كل الحداربة لا يأكلون الغزلان بخلاف ابن حوقل الذي يرى أن ضعفاءهم يأكلونها. فالغزلان فيما بين مناطق سواكن وعيذاب من الكثرة بحيث أصبحت أليفة، مما يوضِّح أن لا أحد يأكلها بين الحداربة. ويبدو أن ابن حوقل قصد بضعفائهم الزنافجة.

ويواصل ابن بطوطة: «وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حيٍّ من العرب يُعرفون بأولاد كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين بلسانهم، وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن، وهي على نحو ستة أميال من البر، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحُمُر الوحش، والمعزى عندهم كثير، والألبان والسمن، ومنها يجلب إلى مكة، وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة».

وعن حاكم سواكن قال ابن بطوطة: «وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نمي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده، وهما عطيفة ورميثة، اللذان تقدّم ذكرهما، وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة، وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن»[1].

ولم يوضح ابن بطوطة أية قبائل البجة تسكن مدينة سواكن، ولكن القلقشندي وضّح أنهم من الحداربة المسيطرين على المنطقة. ومما يدعم ذلك أن ابن بطوطة قال إن الحداربة يسكنون عيذاب، وكانت قبضتهم قوية على المنطقة براً وبحراً، فقد حارب سلطان الحداربة -كما ذكر- الأتراك الذين هاجمت سفنهم عيذاب، وتمكّن من هزيمتهم، وفروا أمامه في البحر. ولذلك يبدو مقبولاً أن يكون سكّان سواكن القريبة من عيذاب من الحداربة أيضاً، إلى جانب الخاسة الذين ذكرهم المقريزي.

وذكر ابن بطوطة أنه عندما دخل سواكن كان واليها زيد بن أبي نمي، وهو ابن أمير مكة الشريف الحسني الذي تولت أسرته إمارة مكة منذ بداية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي). وقد ذكر ابن فضل الله العمري، والذي كان معاصراً لابن بطوطة أن بنو نمي كانوا تحت طاعة المماليك. وكان أمراء مكة يعترفون بسلطة أمراء المماليك على مناطق نفوذهم،[2] كما ذكر ابن خلدون: «وقد فرض المماليك سيادتهم على سواكن منذ بداية قيام

[1]. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق.

[2]. العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 246.

دولتهم، فقد استولى عليها أسطول المماليك عام 664هـ/1265م، وهرب أميرها الشريف علم الدين أسبغاني، لكنه عاد إليها بعد مغادرة الجيش المملوكي»[1].

وفي المرة الثالثة دخل ابن بطوطة بلاد البجة قادماً من الأراضي المقدسة فقال: «ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب، فردّتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير، وسافرنا منه في البر مع البجاة، ووردنا ماء كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة، وجدناهم بالفلاة، أغناماً وتزوّدنا لحومها، ورأيت بهذه الفلاة صبياً من العرب كلّمني باللسان العربي، وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً، وإنما يقتات بلبن الإبل. ونفد منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه، ولم يبق لنا زاد، وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي، ففرّقته على الرفقة، وتزوّدناه ثلاثاً، وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب»[2].

ومن هنالك سار ابن بطوطة نحو النيل في صعيد مصر. تحدث ابن بطوطة عن عرب جهينة وبني كاهل كما ورد أعلاه. ذكر في المرة الأولى أن «أولاد كاهل مختلطين بالبجة عارفين بلسانهم.. ووضح أن طاعتهم للبجة»، كما تناولهما أثناء حديثه عن عساكر سلطان سواكن المكونين «من البجاة، وأولاد كاهل، وعرب جهينة».

يلاحظ أن هؤلاء هم العرب الوحيدون الذين رآهم ابن بطوطة في مناطق البجة التي مرّ بها، باستثناء الفتى العربي الذي ذكر أن البجة أسرته. وإذا تذكّرنا أن ابن بطوطة مرّ بهذه المناطق بعد انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تردّد عن اجتياح القبائل العربية للسودان بعد انهيار تلك المملكة، يتبادر إلى ذهننا سؤال مهم: أين أولئك العرب الذين تناولت المراجع العربية وغير العربية اجتياحها للسودان؟، لماذا لم يلاحظها أو يكتب عنها ابن بطوطة، وهو الذي كتب عن عربي واحد وجده بين البجة؟.

هل لأنه لم تكن هنالك قبائل عربية ما عدا أولاد كاهل وجهينة، الذين كان بعضهم يخدم جنوداً عند حاكم سواكن، وبقيتهم مختلطين بالبجة، ويتحدّثون لغتهم وتحت حكمهم؟. أرى أن هذا هو الافتراض الوحيد. وربما نقول إن ابن بطوطة لم يلاحظ العرب في المنطقة لأنه مر بها بعد فترة قصيرة –نحو عقدين فقط– من انهيار مملكة المقرة، ولذلك لم يدوِّن ما

---

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، (موقع الوراق(، ج 5 ص 481.

2. ابن بطوطة، تحفة النظار

تواتر، في المراجع وليس في المصادر، عن اجتياح القبائل العربية لأراضي السودان.

كما يلاحظ أيضاً أن المؤلفين الذين عاصروا أو كتبوا بعد ابن بطوطة، والذين تناولوا بإسهاب انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تلاها من أحداث في منطقة النوبة لم يشيروا أبداً لاجتياح أو دخول القبائل العربية عبر مناطق البجة، مثل أبو الفداء (ت 732هـ/1331م) في كتابيه: (المختصر في أخبار البشر) و(تقويم البلدان)، والنويري (ت 732هـ/2332م) في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب)، والدمشقي (ت 739هـ/1338م) في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)، وابن فضل الله العمري (ت 749هـ/1348م) في موسوعته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار).

ولم يتحدث عنهم ابن الفرات (ت 807هـ/1405م) في كتابه (تاريخ الدول والملوك)، والقلقشندي (ت 831هـ/1418م) في موسوعته (صبح الأعشى)، وكتابه (نهاية الأرب)، والمقريزي (ت 845هـ/ 1445م) في كتبه (المواعظ والاعتبار) و(البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب) و(السلوك لمعرفة دول الملوك) و(المقفى)، وابن الوردي (ت 861هـ/1457م) في كتابه (خريدة العجائب)، وأبو المحاسن ابن تغري بردي (ت 874هـ/1469م) في كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وابن إياس (ت 930هـ/1523م) في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور).

وفيما يتعلّق بما ذكره ابن خلدون عن قبيلة جهينة حيث قال: «وبالصعيد الأعلى من السودان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعدّدة وأحياء متفرّقة كلهم من جهينة.. زاحموا الحبشة في بلادهم»[]، فقد ناقشت ذلك بإسهاب، وقد استنتجت أن قبيلة جهينة كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث[].

ومتابعة لما أورده كُتّاب القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي) عن البجة وبلادهم، فقد ذكر النويري بداية تدخّل المماليك للسيطرة على سواكن عام 664هـ/1265م، لكنه لم يمدّنا بعلومات مفصّلة عن البجة ومناطقهم عندما تناول أحداث الحملة التي أعدّها السلطان الناصر محمد عام 716هـ، لمطاردة الأعراب الذين هاجموا قافلة رسول حاكم اليمن إلى

[]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق.

[] - أحمد الياس حسين، قبيلة جهينة هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث؟، (مجلة «دراسات سودانية»، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، العدد 15، أكتوبر 2009م).

السلطان المملوكي في صحراء عيذاب، فدخلت الحملة عيذاب، وخرجت منها بحثاً عن الأعراب حتى وصلوا إلى سواكن، ولم يعثروا على الأعراب، وخرجت الحملة من سواكن بحثاً عن الأعراب «فدخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يوماً، وفي أثناء سيرهم ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه والأودية هناك، فقتل العسكر منهم، وأسر، وسبى، وغنم من مواشيهم، والأبقار والأغنام ما ارتفق به الجند، وانتهوا إلى وادي أيتريب في اليوم السابع عشر.. ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا». ثم ساروا على نهر أتبرا ثلاثة أيام غرباً «والنهر على يمين العسكر، ثم فوّزوا ودخلوا البرية إلى أرض التاكة، فانتهوا في اليوم الثالث من دخولهم المفازة إلى جبل كسلان - كسلا - وهذا الجبل هو حد بلاد التاكة من الحبشة من السودان».

وعند الجبل أغارت عليهم «طائف من الهلنكة -الحلنقة-.. وبأيدي الهلنكة الحراب والمزاريب والسيوف، ومع بعضهم النبل.. فقاتلهم العسكر ورموهم رشقاً واحداً بالسهام، فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفراً، وجرح منهم خلق كثير. ولم يتمكّن العسكر من أسرهم لأنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر. وقتل اثنان من ملوكهم.. وعادوا حتى انتهوا إلى أربيباب.. فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا فساروا على شاطئه عشرين يوماً.. ثم انتهوا إلى قبلة الأبواب.. وتوجهوا إلى دنقلة في سبعة عشر يوماً»[1].

كان النويري معاصراً للحملة، لكنه لم يستفسر أفراد الحملة عن البلاد وطبيعتها، وعن السكان وأوضاعهم. وفي واقع الأمر كان اهتمامه فقط بالأخبار المتعلّقة بالحملة، وحتى عندما يتعرّض للمنطقة وأهلها يكون ذلك بالقدر الذي يكمل معلوماته عن الحملة. ورغم ذلك فإن ما ذكره عن المنطقة يمثّل المعلومات المبكرة عن التاكة وكسلا وقبيلة الحلنقة. ويلاحظ أن الحملة سارت ما بين عيذاب وسواكن، ثم توغّلت حتى كسلا، ثم تابعت -في طريق عودتها- نهر عطبرة حتى النيل ودنقلة، ولم تصادف في كل هذه المناطق قبيلة أو جماعات عربية عائشة هنالك. ويعني ذلك أن المنطقة كانت خالية من العرب قبل قرن واحد من قيام تحالف العبدلاب.

وعن ذكر البجة وبلادهم في مصادر القرن الثامن الهجري نجد عند الدمشقي أنهم الحداربة والزنافجة فقط حيث قال: «(لبجة وهم صنفان: (حداربة) وملكهم يسكن هجر،

---

[1]. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص217.

و(الزنافجة) وملكهم يسكن مدينة نقلين، وكلهم ينتفون لحاهم، ويدعون شعرات يسيرة، وهم عرايا من المخيط، ملتحفون بثياب مصبغة، ولهم مدائن: أوتل، وعَدَل، وجزيرة دهلك، وجزيرة سواكن، ومدينة عيذاب، فرضة التجار من اليمن ومصر، ويتّصل بهم طائفة من السودان تسمّى خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن»[1].

أما أبو الفاء فقد تحدَّث عن أمم السودان فذكر: «من أممهم البجا، وهم شديدو السواد، عراة يعبدون الأوثان، وهم أهل أمن وحسن مرافقة للتجار، وفي بلادهم الذهب، وهم فوق الحبشة إلى جهة الجنوب على النيل»، وذكر في موضع آخر: «ومن العلاقي يدخل الإنسان إلى بلاد البجة». وعن عيذاب: «وبعضهم يجعلها من بلاد البجة»[2].

ويبدو واضحاً ضعف وقلة معلومات الدمشقي وأبي الفداء عن البجة. وهكذا نلاحظ بوضوح أن كل المصادر لم تتناول ما تردّد في المراجع الحديثة عن اجتياح القبائل العربية أراضي السودان. ونكرِّر السؤال هنا: هل لم يحدث ذلك الاجتياح كما روته المراجع؟، ومن أين أتت المراجع بتلك المعلومات؟. يبدو أن المراجع الحديثة العربية وغير العربية قد استندت على الروايات الشفاهية المتداولة بين القبائل في السودان، والتي توضح كيف، ومتى، ومن أين دخل أسلاف تلك القبائل ومؤسّسوها، وقدّمته باعتباره حقائق تاريخية.

ومن الغريب في الأمر، رغم إدراك مؤلفي تلك المراجع أن كل تلك المعلومات ما هي إلا تراث شعبي، لا ترقى إلى مستوى الحقائق التاريخية، أنهم استخدموها بكثرة حتى أصبحت من المسلَّمات، وجرى التعامل معها باعتبارها حقائق تاريخية. وتأسّس على تلك المسلمات (الروايات الشفاهية) تاريخ سكان السودان في العصر الحديث. ومن الغريب أيضاً أن المؤسّسات الأكاديمية أخذت أيضاً بتلك المسلَّمات، ولم تستقصِ: لماذا لا يوجد أيُّ سند لتلك المسلمات في المصادر المعاصرة لتلك الأحداث؟.

لم يتبقَّ من مؤلفي القرن الثامن الهجري، الذين نتناول كتاباتهم، غير ابن فضل الله العمري، وقد أرجأنا تناوله لأن الحديث عن نصوصه يقودنا إلى القلقشندي، وهو من مؤلفي القرن الثامن.

---

[1]. الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 237.

[2]. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، المختصر في أخبار البشر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 211.

▪ كتابات العمري والقلقشندي

في منتصف القرن الثامن جاء ابن فضل الله بنصين أحدهما عن ولاة عربان الوجه القبلي، والثاني عن سواكن. فقد جاء في النص الأول: «وشيخ الحواربة سَمُرة بن سالك، وهو ذو عدد جمٍّ، وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهب وبالسبايا، وله أثر محمود، وفعل مأثور، ووفد على السلطان، وعقد له لواءً، وشرف بالتشريف، وقلّد ذلك وكتب -السلطان- إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد. وكتب منشوراً له بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته وتركز رايته. ورسم المكاتبة إليه السامي الأمير كمن تقدم»[1].

أما النص الثاني فقد جاء فيه: »وجزيرة سواكن ليست بها مملكة مشهورة، ولا متاجر مذكورة، وكل أهلها مسلمون قائمون بالإسلام، وتجلب منها إلى مصر أغنام حسان يُقتنى بها للفرجة لا للأكل والنتاج.. وأما سواكن ففيها الشريف زيد بن أبي نمي الحسني، وهو في طاعة صاحب مصر»[2].

ويلاحظ على ما كتبه العمري عن البجة الاختصار الشديد، وبخاصة في موسوعته الكبيرة (مسالك الأبصار) والتي تضم عشرين مجلداً. وقد كان العمري مشرفاً على ديوان الإنشاء في القاهرة، وهو مركز يمكّنه من الاطلاع على كل أخبار الدولة والمناطق المجاورة. فالعمري لم يورد في موسوعته الضخمة غير النص السابق عن البجة، مع العلم أنه أورد نحو أربع صفحات عن مملكة النوبة الذين ربطتهم مع مصر في ذلك الوقت علاقات متطوِّرة. وإذا قارنا ما كتبه العمري بما كتبه معاصره النويري عن البجة والنوبة في موسوعته (نهاية الأرب في فنون الأدب)، اتضح لنا إلى أيِّ مدى لم يكن العمري مهتماً بأخبار السودان، فقد بلغ ما أورد النويري عن البجة نحو ست صفحات، وعن النوبة نحو أربع عشرة صفحة. وينبغي علينا أن نضع هذا في اعتبارنا ونحن نحكم على نصوص العمري.

ونبدأ بالنص الأول الذي يعتبر من بين الأدلة على عروبة الحداربة. ويبدو أن نص العمري الأصلي قد تعرّض لبعض التغيير أثناء النقل والتدوين، فالنص يخاطب (شيخ الحواربة) وليس الحداربة. وقد اتُّفِقَ على قراءته الحداربة باعتبار حدوث بعض التغيير في

---

[1]. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، صبح الأعشى، (موقع الوراق)، ج3 ص161.

[2]. العمري، مسالك الأبصار، مرجع سابق، ص245.

كتابة الاسم. ثم أن اسم الشيخ في النص (سَمُرة بن سالك)، وكذلك في نص القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب)، ولكن في النص الذي نقله القلقشندي من كتاب العمري جاء الاسم (سَمُرة بن مالك)، وليس ابن سالك. والملاحظ أن أغلب المؤلفات الحديثة استخدمت النص الأخير الذي لم يرد عند العمري صاحب النص الأصلي.

ولنأخذ النص كما ورد عند العمري، واصطلح على قراءته (شيخ الحداربة) فنص العمري لم يقل إن شيخ الحداربة عربي، ولم ينسبه لأية قبيلة عربية أو غير عربية، بل ورد أن السلطان «كتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد، وكتب له منشوراً يتولى بمقتضاه بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته».

فقد أمر السلطان المملوكي ولاة الوجه القبلي (بصعيد مصر) والعربان أن يساعدوا الشيخ. ووضح النص أن السلطان قلده ولاية العربان. وليس هنالك في نص العمري ما يشير إلى انتماء الشيخ العرقي، لكن ورد توضيح العرق في النص الذي نقله القلقشندي عن كتاب (التعريف) للعمري، قال القلقشندي: «وأما عرب الوجه القبلي، فقد ذكر في (التعريف) أنه كان منهم في زمانه نفران: أحدهما ناصر الدين عمر بن فضل. وذكر أن رسم المكاتبة إليه: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي أيضاً. وثانيهما سمرة بن مالك. قال: وهو ذو عدد جم، وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهاب والسبايا؛ وله أثر محمود، وفعل مأثور. وفد على السلطان وأكرم مثواه، وعقد له لواء وشرف بالتشريف، وقلّد ذلك، وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان به بمساعدته ومعاضدته، والركوب للغزو معه متى أراد. وكتب له منشوراً بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلية، مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته. ثم قال: ورسم المكاتبة إليه، السامي الأمير، كمن تقدم»[1].

ورغم أن القلقشندي ذكر أنه نقل النص من كتاب العمري (التعريف)، إلا أن النص يختلف في بدايته اختلافاً واضحاً عن نص العمري. يتحدّث نص القلقشندي هنا عن عرب الوجه القبلي، كما ورد في التعريف، ثم يذكر سمرة بن مالك ويعطيه الصفات نفسها التي وصف بها سمرة بن سالك، مما يوضح أنه قصد به سمرة بن سالك. ولكن العمري لم يشر في نصه إلى أنه من العرب. فلماذا أضاف القلقشندي سمة العرب في بداية النص؟.

يبدو أن ما ذكره القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب)، يساعد على معرفة السبب في

---

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج3 ص161.

الزيادة التي ألحقها في بداية نص العمري. ذكر القلقشندي: «الحداربة: بطن من العرب بسواكن من بلاد البجاة، ذكرهم المقر الشهابي ابن فضل الله في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) ولم ينسبهم إلى قبيلة، ذكر أنه كان لهم شيخ يسمى سمرة بن سالك، وأنه ذو عدد جم وشوكة منكية يغزو الحبشة وامم السودان ويأتي بالنهب وبالسبايا، وله أثر محمود، وفعل مأثور، وذكر أنه وفد على السلطان وعقد له لواءً، وشرف بالتشريف وقلّد ذلك وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد، وكتب له تقليداً بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص، ومنشوراً له بما يفتحه من البلاد»[1].

وأضاف القلقشندي عند حديثه عن سواكن في كتابه (صبح الأعشى): «وقد أخبرني من رآها أنها جزيرةٌ على طرف بحر القلزم من جهته الغربية، قريبة من البر يسكنها التجار. وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة -بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر-، وله مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ويقال في تعريفه الحدربي بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء.»

فالقلقشندي حكم على الحداربة بأنهم عرب، لأن العمري قال إن شيخهم سمرة بن سالك قد تقلّد إمارة العربان. إذاً فالقرائن عند القلقشندي تكشف أن العمري كان يدرك هذه الحقيقة، وإن لم يذكرها مباشرة، ولم يوضح إلى أية القبائل العربية ينتمي الحداربة. إذاً فدليل القلقشندي على عروبة الحداربة بُني بصورة أساس على أن شيخهم زعيم العربان، إلى جانب ما أخبره به مصدره الشفاهي من أن أهل سواكن حداربة عرب.

- **العرب العربان في صعيد مصر**

نود التعرُّف على مفهوم العرب العربان الذين ربطتهم المصادر العربية بصعيد مصر، وكما رأينا في السابق، فقد ربطهم القلقشندي بقبيلة الحداربة. من المعلوم أن اللغة العربية كانت الرابط بين جميع المسلمين، خاصة عندما بدأت قوة الشعور العربي العرقي في الضعف بقيام الدولة العباسية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري. وقد اعتمد العباسيون في قيام دولتهم وتوطيد أركانها على العنصر الفارسي. ثم جاء دور العنصر التركي منذ القرن الثالث الهجري، وتولى الأتراك وغيرهم من المماليك بعد ذلك قيادة العالم الاسلامي، قبل ظهور العثمانيين الأتراك، ما بين الهند ومصر ردحاً من الزمن.

---

[1]. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص46.

وفي واقع الأمر، فإن اللغة العربية أصبحت في ذلك الوقت لغة العلم والمعرفة، إلى جانب كونها لغة الدين، فأقبل عليها غير العرب، حتى صاروا حَمَلة العلم في المِلّة الإسلامية، كما عبَّر ابن خلدون حيث قال: «من الغريب الواقع أن حَمَلة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في المِلّة الإسلامية عرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن المِلّة عربية، وصاحب شريعتها عربي»[1].

فاللغة العربية في مفهوم تلك المجتمعات لم تعُدْ لغة جماعة عرقية محدودة فقط، بل أصبحت لغة كل من يخاطبه الإسلام، وكل من يدخل الإسلام أو ينضم إلى المجتمع الجديد من غير المسلمين. فاللغة العربية بلورت هوية ذلك المجتمع الجديد. وداومت أغلب الشعوب داخل حدود الخلافة على التمسُّك ببعض عادات العرب، باعتبار تلك العادات جزءاً من مكوِّنات الهوية الجديدة.

قال عبد المجيد دياب واصفاً المجتمع المصري نحو القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي): «كان للأقباط ولع شديد بتقليد المسلمين في كل شيء، لا سيما اللغة والأزياء والأسماء، فكان الشعور القوي بالانتماء للهوية الجديدة هو دافع الأقباط للتشبه بالعرب، ولم يصنِّفوا أنفسهم عرقياً بأنهم من العرب. فالغالبية العظمى ممن تحدّث اللغة العربية وتطبّع ببعض طبائع العرب لم ينتسبوا عرقياً للعرب. ولا يمنع هذا أن هنالك بعض الجماعات التي سعت إلى تصنيف نفسها عرقياً مع العرب»[2].

وسنأخذ مثلاً للقبائل غير العربية، التي تحدّثت العربية وتطبّعت بطبائع العرب، وهي قبيلة هوارة (الأمازيغية البربرية)، ونرى كيف خاطبتها المصادر العربية. يقول ابن خلدون: «إن نسابة العرب والبربر اتفقوا على أن هوارة ولواتة من قبائل البربر». ويعلّق على ما ورد من بعض النسابة قائلا: «إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب»[3]. وقد أورد ابن خلدون أدلة كثيرة للرد على ما يزعمه البعض عن انتساب البربر للعرب.

---

١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، (موقع الوراق)، ج١ ص٣٤٩.

2. عبد المجيد دياب، تاريخ الأقباط (مقدمة تحقيقه لكتاب تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز للمقريزي)، دار الفضيلة، القاهرة، 1998م، ص 142.

3. ابن خلدون، (العبر)، مرجع سابق، ج6 ص 97 و139.

وأضاف ابن خلدون عن قبيلة هَوَارة: «صاروا في عداد الناجعة [مثل] عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم»[1].

وعندما تعرَّض القلقشندي لنزوح هوارة من الوجه البحري قال: «أما في زماننا (أي في القرن 15 الميلادي) فمذ وُجِّهت عرب هوارة من عمل البحيرة إلى الوجه القبلي»[2]. فالقلقشندي لم ير شذوذاً أو خطأً في وصف أفراد قبيلة هوارة المغربية (البربرية) بالعرب.

كما تناول ابن تغري بردي وَفَيات أمراء قبيلة هوارة بالأسلوب نفسه، فوصفهم بأمراء عرب هوارة. فذكر على سبيل المثال: «عام 790هـ/1388م توفي تاج الدين إسماعيل بن مازن الهواري، أمير عرب هوارة، ببلاد الصعيد. عام 800هـ/1398م توفي الأمير عمر بن عبد العزيز، أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد، وهذا والد بني عمر أمراء عربان الصعيد. عام 864هـ/1460م توفي الأمير شرف الدين عيسى بن عمر الهواري أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد.. وكان مليح الشكل خيِّراً ديِّناً بالنسبة إلى أبناء جنسه، وله مشاركة بحسب الحال ويتفقه على مذهب الإمام مالك»[3]. علماً بأن المذهب المشهور في مصر هو المذهب الشافعي بينما تمسّك الأمير بمذهب مالك المتبع بصورة واسعة في المغرب العربي.

كما نقل ماكمايكل عن الرحالة بوكوك Pococke، الذي زار النيل عام 1737م أن أخميم تحت أمير بربري، وأن نوردن Norden الذي سافر على النيل في السنة نفسها ذكر أن «أعلى أسيوط بقليل يبدأ وطن العرب يعرفون باسم هوارة، ويملكون أراضي على كلا شاطئي النيل ويدعونهم مواطنو مملكة مروي»[4].

وهكذا لم يجد المؤلفون العرب المبكّرون غضاضة في مخاطبة المجتمع المصري كله باعتباره مجتمعاً عربياً، العرب منهم والبربر والنوبة وغيرهم، ما داموا يتحدّثون اللغة العربية. حتى الرحَّالة الأجانب في القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما رأوا هوارة على

---

[1]. المصدر نفسه.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج1 ص53.

[3]. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في أخبار مصر القاهرة، (موقع الوراق) ج11، ج12.

[4]. Crawford، «The Fung Kingdom of Sennar» vol.1، p. 152-153.

النيل في مصر تتحدث العربية أطلقوا عليها عرب هوارة. هذا ما حدث في المجتمع المصري على الأقل في منطقة الصعيد.

- **إمارات العربان**

كانت إمارة العربان جزءاً من النظام الإداري في مصر، والذي كما وضّح القلقشندي يتكوّن من أربع طبقات، الطبقة الأولى هم طبقة النواب، والطبقة الثانية طبقة الكشّاف، والطبق الثالثة طبقة الولاة، ثم الطبقة الرابعة وهم طبقة أمراء العربان. وتناول القلقشندي أمراء الأعراب تحت عنوانه الذي ورد هكذا: «الجملة الأولى في المكاتبة إلى ممن بهذا الجانب من العربان، وقد ذكر في التثقيف ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها».

والطرقات المشار إليها هنا هي الطرقات التي ربطت العاصمة بأطراف الدولة، وأهم النشاطات عبر تلك الطرق كانت المراسلات الرسمية للدولة والتجارة. والطرق التي تهمنا هنا هي تلك التي كانت تأتي من الجنوب، مثل طرق غربي النيل وشرقية. وكانت طرق الصحراء الشرقية تتجه من البحر الأحمر نحو الغرب والشمال الغربي رابطة النيل من أسوان جنوباً وحتى القاهرة شمالاً. وكان حفظ وسلامة تلك الطرق من أهم واجبات الولاة -كما أشار القلقشندي إلى ذلك كثيراً- بمساعدة العربان.

فولايات العربان إذاً جزء من إدارة الدولة المصرية، وكان من بين مهامهم المساعدة على حفظ الأمن داخل الأراضي المصرية، وما نود التعرُّض إليه هنا هو طرق الصحراء الشرقية الواقعة في صعيد مصر بين النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً. وكان مقر أمير العربان سمرة بن سالك (أو مالك) على النيل في صعيد مصر في منطقة الأقصر الحالية.

قال القلقشندي: «بيان أمراء العربان.. فأما الوجه القبلي، فقد ذكر الحمداني أن الإمرة به في بيتين من قبيلة بلي من قضاعة بن حمير بن سبأ من القحطانية. الأول بنو شاد المعروفون ببني شادي.. بالأعمال القوصية.. الثاني العجالة وهم بنو العجيل بن الذئب منهم أيضاً، وكانوا معهم هناك.. العمل الثاني عمل الأشمونيين. وكانت الإمرة به في بني ثعلب.. من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق. العمل الثالث البهنسي [في صعيد مصر]، وكانت الإمرة فيه في بيتين: الأول أولاد زُعازع بضم الزاي من بني جديدي من بني بلار

من لواتة من البربر وهم أشهر من في الصعيد. الثاني أولاد قريش»[1].

وأولاد قريش المذكورين هنا ليسوا من قبيلة قريش العربية فقد وضح المقريزي أن أولاد قريش هؤلاء من بطون قبيلة لواتة[2].

وهكذا تم تناول أمراء لواتة ضمن أمراء الأعراب، مثل أمراء قبيلتي بلي والجعافرة. وعن الإمارة في المنوفية ذكر القلقشندي «الإمرة فيها لأولاد نصر الدين من لواتة، ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب». وذكر القلقشندي أن لواتة أكثر القبائل بالصعيد، وأن إمارة العربان في صعيد مصر في بيتين منها هما: أولاد زُعازع وأولاد قريش، ووصف قريش بأنه كان عبداً صالحاً. ويعني هذا أن لواتة أصبح لها إمرة العربان منذ أن هزم الأيوبيون تحالف الجعافرة في القرن السادس الهجري.

غير أن ميزان القوى القبلي قد تغيَّر منذ نهاية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي) بدخول قبيلة هوارة منطقة الصعيد بعد أن أُجبرت على الخروج من الوجه البحري. وقد وصف القلقشندي نزول واستقرار الأعداد الكبيرة من قبيلة هوارة في الصعيد قائلاً: «انتشرت في أرجائه انتشار الجراد، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة، وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادتهم». وبيَّن أن بطون قبيلة هوارة في عصره (ت821هـ/1418م) كانت أكثر من ثلاثين بطناً.

ونخلص من ذلك إلى الآتي:

- ليس من الضروري أن يكون كل من وصف بالعربي في صعيد مصر في المصادر العربية منتسباً إلى العرب عرقياً. فإمارة القبيلتين البربريتين لواتة وهوارة اعتبرتا عرباً، وأدرجت إماراتهما تحت إمارات العربان.
- إمـارات العربان في صعيد مصر بعد القرن السابع الهجري في عصر العمري (8هـ/14م)، وفي عصر القلقشندي (9هـ/15م) آلت إلى قبيلة هوارة البربرية وأصبحوا هم الأقوى في صعيد مصر، كما ذكر القلقشندي.
- كانت إمارات العربان جزءاً من النظام الإداري في مصر، ومقر أمراء العربان داخل

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص53.

[2]. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، البيان والإعراب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص53-54.

الحدود المصرية.

- سمرة بن سالك (أو مالك)، أصبحت له قيادة العربان في عصر العمري في صعيد مصر، كما نقل عنه القلقشندي، حيث قال: «وأما عرب الوجه القبلي، فقد ذكر في (التعريف) أنه كان منهم في زمانه نفران: أحدهما ناصر الدين عمر بن فضل.. وثانيهما سمرة بن مالك».
- ولما كان سمرة بن سالك قوياً ومسيطراً على الصعيد وأعطيت له إمارة العربان في القرن الثامن إبَّان سيادة قبيلة هوارة على الصعيد، فمن المقبول جدّاً أن يكون أحد قادة قبيلة هوارة.

ولذلك أرى أن لا علاقة لسمرة بن سالك أو ابن مالك بقبيلة الحداربة، وأنه حدث خطأ، إما أن يكون الخطأ من العمري نفسه، وقد رأينا كيف أن معلوماته عن البجة كانت في غاية الاختصار، وعبارة عن فقرة واحدة أقل من ثلاثة أسطر في موسوعته المكونة من عشرين جزءاً، ويدل ذلك على عدم معرفة العمري بالبجة، ولا يستبعد أن يكون قد أخطأ في ما أورده عنهم. أما القلقشندي فقد نقل عن العمري أن الحداربة عرب[1] فقد وضحنا -أعلاه- أن العمري لم يقل ذلك، بل قال: «وشيخ الحواربة سَمُرة بن سالك، وهو ذو عدد جم وشوكة.. وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته»، وليس في ذلك ما يقرِّر أن شيخ الحواربة ينتمي إلى العرق العربي. وربما كتب القلقشندي ذلك بحكم المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك عن العربان، كما رأينا في النصوص أعلاه (أمير عرب هوارة).

وإلى جانب كل ذلك فقد حدّد القلقشندي إمارة سمرة بن مالك: «تقليدٌ بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته، وتركز رايته». فقد حدد الجزء الأخير من هذا النص مركز الولاية وهو (قوص)، وتقع قوص على النيل في صعيد مصر، ولم يحدّد مناطق نفوذه، بل أطلق يده «حيث تصل غايته»، غير أن القلقشندي نقل عن العمري أيضاً أن سمرة بن مالك شيخ عرب الحداربة بسواكن، وأضاف في مكان آخر أن «صاحب سواكن في زمانه من العرب المعروفين بالحَدَاربة.. ويقال في تعريفه الحُدْرُبي»[2].

فهل يمكن افتراض امتداد حدود إمارة سمرة من قوص في صعيد مصر حتى سواكن؟.

---

[1]. القلقشندي، نهاية الأرب، مرجع سابق.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص313.

لا أعتقد أنه افتراض معقول، لأننا رأينا أحداث هذه المنطقة، والقبائل العربية التي ساهمت فيها، مثل، دغيم، ورفاعة، وبني كاهل، وجهينة، وأولاد الكنز، والعكارمة، ولم يرد ذكر لعرب الحداربة في كل تلك الأحداث. ومن جانب آخر فقد أتى وَصْف أمير عرب الحداربة بما يوضح أن الإمارة كانت قوية ومساهمة بفعالية في غزو (الحبشة وأم السودان). وإمارة بهذا الوضع والقوة يفترض أن يكون لها دور في تطوُّر العلاقات بين المماليك والمناطق الجنوبية، ولكن لم يرد ذكر للحداربة أو لأميرهم أو أي ذكر في أحداث العلاقات بين المماليك والبجة منذ عصر العمري (القرن 14 الميلادي) وعصر القلقشندي (القرن الخامس عشر الميلاي).

إضافة إلى أن الحداربة كانت قبيلة كبيرة كتب عنها المؤلفون المبكرون، أمثال، اليعقوبي، والمسعودي، وابن حوقل، وابن سليم، وذكروا أنها من قبائل البجة الكبرى، وأنها تصاهرت مع قبيلة ربيعة منذ القرن الرابع الهجري. ولم يرد في المصادر العربية المبكرة أن قبيلة الحداربة قبيلة عربية، كما جاء عند القلقشندي، بل أورد ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي أن عرب بني كاهل وجهينة الذين كانوا يعيشون مع البجة يتحدّثون لغة البجة.

وهكذا نجد القرن الثامن الهجري (14م) قد شهد العديد من مؤلفات التراث العربي المهمة، مثل، مؤلفات أبي الفداء، والنويري، والدمشقي، والعمري، وابن بطوطة، وفي الوقت نفسه شهِد هذا القرن نهاية مملكة المقرة المسيحية، وما تلا ذلك -من تراث شفاهي- عن اجتياح القبائل العربية للسودان، ليس عبر النيل فقط، وإنما كذلك عبر مناطق البجة.

ومن الواضح أن مؤلفات هذا القرن -القرن الخامس- والتي تناولنا ما كتبته عن البجة لم تتحدَّث عن أي قبائل عربية في السودان حتى الحملة التي توغَّلت حتى كسلا ورجعت عبر نهر عطبرة والنيل. والاستثناء الوحيد هو ما ذكره ابن بطوطة عن العرب من قبيلتي جهينة وبني كاهل الذين يعيشون مع البجة، ويخضعون لحكمهم، ويتحدَّثون لسانهم. وحتى المعلومات التي وردت عن البجة جاءت أغلبها شديدة الاختصار، وتفتقد الدقة والعناية بموضوعاتها. فماذا عن مؤلفات القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي)؟.

الحداربة في مصادر القرن (9هـ/15م)

شهِد هذا القرن أيضاً مؤلفات مهمة في التراث العربي تناولت البجة، مثل، مؤلفات القلقشندي، وابن خلدون، وابن الفرات، والمقريزي، وابن الوردي، وأبو المحاسن. وقد لاحظنا أن القلقشندي اعتمد على العمري في أغلب ما أورده من معلومات عن البجة،

وجاءت كلها عن الحدارية. كما اعتمد كثيراً في تحديده للمواقع على أبي الفداء وابن سعيد. ولم نكن نتوقّع منه اعتماده على ابن سعيد المغربي فيما نقله عن أخبار البجة. فالقلقشندي ولد وعاش في مصر، وعمل في ديوان الإنشاء الذي ألّف عنه كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، فهو بهذا الوضع على صلة بأحداث البجة أكثر من ابن سعيد الذي عاش في المغرب قبل قرنين من عصره. ولعل هذا يوضح مدى اهتمام المصادر العربية بأخبار البجة.

فقد ذكر القلقشندي عن البجة: «قال ابن سعيد: وهم مسلمون، ونصارى، وأصحاب أوثان، ومواطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل، على القرب من الديار المصرية»[]. ومن الواضح أن هذه مواطن قبيلة الحدارية، لكن جاء الحديث هنا بصورة عامة عن البجة.

ولعلنا نكرّر ما سبق أن قلناه عن موسوعة النويري وشحّها في المعلومات عن البجة، فقد كان من المؤمل أن تحتوي موسوعة القلقشندي على ما يساعد على فهم تلك الحقبة المهمة من تاريخ البجة، خاصة أن القلقشندي ولد في منتصف القرن الثامن الهجري، أي بعد نحو ثلاثة عقود من نهاية مملكة المقرة المسيحية؛ وما تردد عن اجتياح القبائل العربية للسودان، وتوفّر المعلومات عنه، غير أننا لم نجد ذلك، ووجدنا جل اعتماده على العمري.

أما ابن خلدون الذي عاش في مصر، وتوفي فيها في بداية القرن (9هـ/15م)، فقد جاء ذكر البجة ثلاث مرات فقط في كتابه (العبر ومقدمته). النص الأول ورد فيه ما يلي: «ومجالات البجة في شمالي الحبشة، ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم». النص الثاني تكرّر في المقدمة جاء فيه ما يلي: «وتحت باب المندب، جزيرة سواكن، ودهلك، وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان»[]. وفيما يتعلّق بما ذكره ابن خلدون عن قبيلة جهينة فقد تمت مناقشته في موضوع مستقل[] وتبيّن أن قبيلة جهينة كانت غائبة عن أحداث انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تلا ذلك من أحداث في بلاد النوبة أو بلاد البجة.

[]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق.

[]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق، ص 280.

[]. أحمد الياس حسين، قبيلة جهينة؛ هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث (مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم العدد 15، 2009م).

وقد جعل ابن الفرات الحدربي ملك البجة، وخليفة السودان، وأعطاه اسماً عربياً هو (صارم الدين)، قال في كتابه (تاريخ الدول والملوك): «أما البجة فبلادهم تجاور بلاد النوبة، وملكهم يسمى الحدربي، وهو خليفة السودان. واسم ملكهم في الزمان الذي كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (نايكس) [بدون نقط على النون والياء] وينعت بـ(صارم الدين)، وهو خليفة السودان بزعمهم»□.

وتبدو هذه المعلومات من الغرابة بحيث يتعذَّر التكهُّن بمصدرها، خاصة أنه ذكر أن الذي أعطاه لقب (الخليفة) هم (السودان). ولست أدري هل يقصد بالسودان هنا البجة فقط أم غيرهم من أمم السودان؟. لأنه لو أراد البجة فقط لاكتفى بذكرهم، ربما أراد أن يقول إن ملكه واسع حتى اعتبر خليفة للسودان. وبالطبع فإن كل ذلك يدخل في أخبار (العجائب والغرائب) التي لا يمت أغلبها بصلة إلى الواقع.

أما ابن الوردي في كتابه، فيبدو عدم اهتمامه بتدقيق الأخبار التي نقلها عن البجة ومدينة عيذاب. فقد نعت البجة ببعض الأوصاف التي تتمشّى وعنوان كتابه فقال إنهم «شديدو السواد، عراة الأجساد ويعبدون الأوثان.. وليس بأرضهم قرى ولا خصب وإنما هي بادية جدبة»□، كما وصف جمعهم للذهب من الصحراء، وذكر أنهم أهل أنس مع التجار.

ونقل ابن الوردي معلومات قديمة عن مدينة عيذاب، التي كان نشاطها التجاري وكميناء للحج قد توقف في عصره. قال عنها: «مدينة حسنة، وهي مجمع التجار براً وبحراً، وأهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن». ويواصل ابن الوردي عن إدارة المدينة: «[بها] والٍ من قبل البجة، ووالٍ من قبل سلطان مصر، يقسمان جباياتها نصفين، وعلى عامل مصر القيام بطلب الأرزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة»□. ورغم ما ذهبنا إليه من أن ابن الوردي نقل معلوماته من مصادر متقدّمة، فلو أخذنا ما ذكره عن تقسيم دخل المدينة من الضرائب بين الوالي من قبل الحكومة المصرية والبجة يوضح أن قبيلة الحداربة ما تزال قوية، وذات نفوذ حتى عيذاب.

أما أبو المحاسن بن تغري بردي، فقد ولد بالقاهرة وعاش فيها، وألّف كثيراً في التاريخ، وتوفي عام 874هـ/1469م أي بعد نحو قرن ونصف من نهاية مملكة المقرة المسيحية، وأقل

□. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 265.

□. ابن الوردي، عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 374.

□. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من أربعين سنة من قيام سلطنة سنار، وهي الفترة التي يؤرخ لها بتدفُّق القبائل العربية على السودان واجتياحها لمناطق النيل وشرقيه، وقيام حلف عرب العبدلاب. ومن الغريب في الأمر أن أبا المحاسن لم يتعرّض لأية قبائل أو جماعات عربية دخلت مناطق البجة أو السودان.

كل ما ذكره هو أحاديث حروب المسلمين والبجة في بداية القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، ونقل أبو المحاسن عن ابن فضل الله العمري في وصف سكن بلاد البجة والنوبة والحبشة جاء بعضها كالآتي: «سكّان هذه البلاد المذكورة، لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية، لكونهم حفاة عراة ليس على أحدهم من الكسوة ما يستره». فلماذا لم يتتبّع أو يتناول زحف وتدفق القبائل العربية للسودان في الفترة التي عاصرها؟، مع العلم أن المصادر العربية كانت تهتم كثيراً بأخبار القبائل العربية وتحرُّكاتها.

وأخيراً نأتي إلى المقريزي المشهور بكتاباته واهتمامه بأحداث السودان، وبخاصة فترة نهاية مملكة المقرة المسيحية وما تلاها من أحداث، فماذا كتب عن البجة؟. تناول علاقات المسلمين المبكرة مع البجة في كتابيه (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) وكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، وقال عن سواكن: «وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة، ولهم بها ملك». ومن الغريب أنه لم يتطرّق إلى ذكر الحداربة الذين تحدّث عنهم القلقشندي الذي كان معاصراً له.

كتب المقريزي كثيراً عن عيذاب، ووضّح ازدهارها في فترة القرنين اللذين توقّفت فيهما قوافل الحج والتجارة عبر صحراء سينا بسبب تهديد الصليبيين، ثم تناول بداية تدهورها بعد عودة القوافل البرية في بداية عصر المماليك بعد ضعف قوة الصليبيين. ويبدو أن نشاط عيذاب لم يتوقّف نهائياً بل كانت ما تزال حتى عصر المقريزي على قدر من النشاط، فقد ذكر المقريزي أنه رأى قاضيها في القاهرة.

ورغم أن المقريزي أورد معلومات مفصلة عن النوبة في كتابيه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، و(المقفى)، إلا أنه لم يتعرض لأخبار البجة. وكل ما ورد عن البجة بعد انتهاء حروبهم مع المسلمين في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، هو ما ورد في (المواعظ والاعتبار) عند الحديث عن عيذاب: «وأهل عيذاب من البجاة ولهم ملك منهم، وبها والٍ

. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ص378.

. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق.

من قبل سلطان مصر، وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة، أسود اللون، والبجاة قوم لا دين لهم، ولا عقل، ورجالهم ونساؤهم أبداً عراة، وعلى عوراتهم خرق، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم، وعيذاب حرَّها شديد بسموم محرق»□.

- **مدن الحدارية:**
- **مدينة هجر**

تردَّد ذكر عاصمة الحداربة، مدينة هجر، في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، فقد ورد ذكرها في الاتفاق الذي وقع بين البجة والمسلمين عام 216هـ، كما عند ابن سليم، حيث ورد أنها كانت مقر عظيم البجة كنون بن عبد العزيز. وفي مكان آخر ذكر ابن سليم أن هجر مقر رئيس البجة.□ ثم وضَّح اليعقوبي أن «مدينة ملك البجة الحداربة يقال لها هجر، يأتيها الناس من المسلمين للتجارات»، وعند الحديث عن مملكة البجة الأولى ذكر أن «مدينة المملكة يقال لها هجر».□ كما وضح الدمشقي أن ملك الحداربة يسكن هجر.□

ولم يرد في المصادر العربية ما يساعد على تحديد موقع مدينة هجر عدا ما ذكره ابن سليم من أنها تقع في أقصى بلاد البجة. بناءً على ما ذكره المقريزي من وقوع هجر في أقصى جزيرة البجة اقتُرِح وقوعها في مكان ما بين خور بَرَكَة والبحر الأحمر.

واقترح Heuglin موقع هجر في إرتيريا نحو 80 كم شرق مدينة كسلا في مكان يعرف بـ Hagr أو Higr على خريطة موزنجر. ويعلِّق كراوفورد أنه ليس من المعقول أن تكون عاصمة البجة وفيها مسجد وسط إقليم الباريا النيليين، إضافة إلى أن الموقع يعتبر إلى الجنوب أكثر مما يعتقد موقعاً لمدينة هجر.□

وثمة مشكلة في ربط هجر أباي نجران بالموضع الذي ذكره اليعقوبي والمقريزي، لأنه لا يقع في أقصى جزيرة البجة، فهو أقرب إلى وسطها. وقد اقترح روزيني -كما نقل

□. المرجع نفسه.

□. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص110 - 111.

□. اليعقوبي، كتاب التاريخ، مرجع سابق، ص19-20.

□. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص237.

□. Crawford، «The Fung Kingdom of Sennar» op، p. 104.

كراوفورد- أن يكون موقع هجر في المكان المعروف في الخرط الحديثة بـ Tehagar شرقي فروع دلتا القاش نحو 24 كم شمال غرب مدينة كسلا. وقد استبعد كراوفورد بعض الآراء التي اقترحت أن يكون موقع هجر في مكان ما شمال غرب مدينة كسلا، أو إلى الغرب من خور بَرَكَة نحو الساحل.[1]

ويرى كراوفورد أنه بناءً على ما ورد عند اليعقوبي فإن هجر كانت عاصمة حاكم الحداربة، وقد ارتبطت كثيراً بسواكن، فقد أشار إلى ما ذكره Lobo نحو عام 1624م من أن حاكم سواكن أمير فقير، وكانت مملكته تعرف بـ(نِكران) Nekran ثم (بالو) Balou، ألا يؤدي ذلك إلى اقتراح أن البلو حققوا بذلك السيطرة على عاصمة الحدارب القديمة، ثم سيطروا على سواكن، والتي أخذها الأتراك فيما بعد. يرجح كراوفورد -بناءً على ذلك- أن عاصمة البجة هجر هي Agere Nageran التي ذكرها موزنجر، والتي أطلق عليها لوبو Nekran على خط عرض 16،37 جنوب سواكن. وربما كان هذا الموقع قرب جبل هجر الذي ذكره ضرار صالح ضرار أثناء حديثه عن قتال الأشراف والنابتاب.[2]

- **عيذاب**

تعتبر عيذاب من أهم مدن الحداربة، قبل تدهور نشاطها التجاري وانتقاله إلى سواكن منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، وقد ارتبط ذكر عيذاب في المصادر العربية منذ وقت باكر كميناء لتصدير الذهب، واستقبال السلع الواردة إلى مصر عبر البحر الأحمر، إلى جانب كونها معبراً للحجاج.

وقد وضح ابن حوقل أن ربيعة ومضر تكاملتا بالعلاقي لاستغلال الذهب منذ العام 238هـ. ومنذ ذلك الحين ارتبط اسمها في المصادر العربية بتصدير الذهب، حتى اشتهرت بميناء الذهب.[3] وتناولت المصادر نشاط الحداربة في هذا الميدان، كما وضّح المسعودي مصاهرة الحداربة لربيعة، وكيف أدت تلك المصاهرة إلى بروز قوة كلا الجانبين. وكان زعيم ربيعة أبو مروان بشر بن إسحاق في عام 332هـ يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النُّجُب من البجة بالحجف البجاوية، وهم

---

[1]. Ibid، p 106.

[2]. ضرار صالح ضرار، سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1991م، ص232.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص58.

الحداربة، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة[1].

وضّح الإدريسي أن الحداربة وحكام مصر يتقاسمون إدارة مدينة عيذاب، فعلى الولاة من قبل مصر «جلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة». كما كانا يتقاسمان أيضاً «جبايتها بنصفين». ووضّح الإدريسي أيضاً نشاط التجارة الداخلية لعيذاب فذكر أن «أهل عيذاب يتجولون في كل النواحي من أرض البجة، يشترون ويبيعون ويجلبون ما هنالك من السمن والعسل واللبن». ويدل كل ذلك أن الحداربة لم يكونوا فقط بدواً يتجولون في الصحارى، ولم يكونوا معزولين عن العالم الخارجي، بل كانوا منظمين تحت رؤسائهم يزاولون الرعي والتجارة، بل وربما صيد السمك أيضاً، كما أضاف الإدريسي: «وبالمدينة زوارق يصاد بها السمك الكثير اللذيذ الطعم الشهي المأكل».[2] لأنه يمكن افتراض أن كل هذا النشاط لا يقوم به الغرباء فقط من سكان المدينة.

وقد أشار ابن بطوطة إلى ما يفيد بمساهمة الحداربة في النشاط البحري، حيث وضّح أنه عند وصولهم عيذاب وجدوا «الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب التُرك أمامه فتعذّر سفرنا في البحر».[3] ولعل هذا يوضح أن علاقة أسلاف السكان الحاليين بالبحر كانت علاقة إيجابية، خاصة أن المصادر الرومانية وضّحت نشاط سكّان هذه المناطق البحري الواسع قبل الإسلام، ويمكن الرجوع إلى بعض ذلك النشاط في كتاب (الوعي بالذات وتأصيل الهوية).[4]

وعندما زار ابن بطوطة مدينة عيذاب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي) ذكر أن ثلث إيرادات المدينة لحاكم مصر، وثلثاها للحدربي، بينما ذكر الإدريسي في القرن السادس الهجري (الـ12 الميلادي) أن الإيرادات كانت مناصفة بين الجانبين. فهل يدل ذلك ازدياد نفوذ الحداربة في المدينة؟.

وقد شهِد ميناء عيذاب نشاطاً ملحوظاً عندما تحولت أغلب طرق التجارة وطرق الحج البرية عبر سينا إلى عيذاب بسبب تهديد الصليبيين في الشام لسلامة تلك الطرق، وظل

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ص51.

[2]. الإدريسي، مرجع سابق، ص 135.

[3]. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق، ص 254.

[4]. أحمد الياس حسين، الوعي بالذات وتأصيل الهوية، مرجع سابق، ص197-198.

الحال كذلك إلى منتصف القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي)، ويمثّل ذلك العصر الذهبي لنشاط ميناء عيذاب.

وبدأ ذلك النشاط في الضمور عندما أُعيد نشاط الطريق البري عبر سيناء بين مصر والحجاز في بداية عصر المماليك، وعلّق المقريزي أثر ذلك على نشاط ميناء عيذاب قائلاً: «وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب مراكب الهند واليمن، تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة. فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن إليها، وصارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن، إلى أن كانت أعوام بضع وعشرين وثمانمائة -العقد الثالث من القرن الخامس عشر الميلادي نحو 1422م- صارت جدة أعظم مراسي الدنيا، وكذلك هرمز فإنها مرسى جليل»[1].

وقد قل سلوك طريق الحج البحري عبر عيذاب -كما يقول المقريزي- منذ عام (666هـ/1267م) عندما أخرج الظاهر ركن الدين بيبرس «من البر سنة ست وستين وستمائة - 1267م»، ومن المعروف أن الصليبيين كانوا يهدّدون طريق الحج البري عبر سيناء قبل هذا التاريخ، ويزال ذلك التهديد بعد الهزائم التي منوا بها منذ عصر الدولة الأيوبية. ويواصل المقريزي قائلاً: «واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة - 1364م».[2]

وهكذا فقدت عيذاب مكانتها كميناء مهم، بعد تطور نشاط ميناء عدن، وازدهار دور ميناء جدة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي)، وانتقل نشاطها إلى ميناء سواكن.

- **سواكن**

يلاحظ عدم اهتمام المصادر العربية المبكرة بمدينة سواكن، مثل اهتمامها بباقي جزر وموانئ المنطقة، مثل، دهلَك، وباضع، وعيذاب. ربما لأن تلك الموانئ كانت أكثر نشاطاً في القرون الهجرية المبكرة. ومن ناحية أخرى ربما لم يقُم المسلمون صِلات قوية مبكرة مع الممالك المسيحية في السودان عبر ميناء سواكن، لأن صلاتهم التجارية والسياسية تمت عن طريق البر عبر أسوان. وقد وضّح القلقشندي أن سواكن بلد الحداربة فذكر: «أن صاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة.. ويقال في تعريفه الحدربي».

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 309.

[2]. المرجع نفسه.

وقد ورد ذكر سواكن في مصادر القرن (4هـ/10م) كما عند الهمداني□ وابن حوقل□ باعتبارها إحدى مدن البحر الأحمر. ويلاحظ سكوت المصادر العربية عن ذكر مدينة سواكن منذ القرن الرابع الهجري وحتى بداية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي). وقد نقل صالح ضرار□ نصّاً نسبه إلى المسعودي. ولا يوجد ذلك النص في كتب المسعودي المنشورة، وهي: (مروج الذهب)، و(أخبار الزمان)، و(التنبيه والأشراف). وفي واقع الأمر فإن هذا النص ذكره المقريزي.□ وقد ذكر ضرار هذا النص بعد نصٍ آخر نقله من المسعودي، فربما ظن محمد صالح ضرار أنه تابع لنص المسعودي الذي نقله.

وفي القرن السابع الهجري، وصف ياقوت الحموي مدينة سواكن بأنها: «بلد مشهور على ساحل بحر الجار [البحر الأحمر] قرب عَيذاب ترفأ إليها سفُن الذين يقدمون من جُدة وأهلها بجاة سُود نصارى».□

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري أغار المماليك على مدينة سواكن، وبدأت أخبارها تظهر في المصادر العربية. فتحدّث ابن سعيد عن نشاطها التجاري، ثم وصفتها المصادر العربية بأنها جزيرة صغيرة «أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي [البحر الأحمر] بحر قصير يخاض».□

وقال عنها ابن بطوطة: «لا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش، والمعزى عندهم كثير، والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة، وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة».□ كما ذكر ابن بطوطة أن جزيرة سواكن على نحو ستة أميال من البر، ولا يتفق ذلك مع ما تواتر عن موقعها في المصادر العربية.

□. الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص22.

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص60-62.

□. ضرار صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، مرجع سابق. ص22.

□. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص295.

□. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مسعد: المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص164.

□. ابن سعيد، الجغرافيا، مرجع سابق، ج1 ص22.

□. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق، ص 255.

ساهمت سواكن -إلى جانب موانئ البحر الاحمر الأخرى، مثل، عدن، وجدة، وعيذاب- بدور بارز في ربط الطرق البحرية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، وتزويدها بسلع أفريقيا الداخلية، إلى جانب ما تمتّعت به مناطق البجة من سلع مهمة لتجارة المنطقة، مثل، المعادن والإبل. كما ارتبطت سواكن أيضاً بالطرق الداخلية المتجهة إلى الشمال نحو القاهرة، وإلى مراكز النيل، مثل، قوص، وأسوان، وأبو حمد، وإلى الجنوب الغربي نحو كسلا.

أدى كل ذلك إلى بروز دور سواكن التجاري، وبخاصة في عصر المماليك، الذين ازداد اهتمامهم بتجارة المحيط الهندي، لذلك سعوا إلى استتباب الأمن في تلك المناطق على الطرق البرية أو البحرية، والمعاملة الكريمة للتجار، وبخاصة تجار الكارم كما ذكر العيني في كتابه. ذكر ابن بطوطة أن جزيرة سواكن على نحو ستة أميال من البر،[1] ولا يتفق ذلك مع ما تواتر عن موقعها في المصادر العربية.

وذكر ابن فضل الله العمري: «وجزيرة سواكن ليس بها مملكة مشهورة، ولا متاجر مذكورة، وكل أهلها مسلمون قائمون بالإسلام، وتجلب منها إلى مصر أغنام حسان يُقتنى بها للفرجة لا للأكل والنتاج.. وأما سواكن ففيها الشريف زيد بن أبي نمي الحسني، وهو في طاعة صاحب مصر».[2] ولا تبدو معلومات ابن فضل الله العمري عن نشاط مدينة سواكن التجاري متّسقة مع ما تواتر عن ازدهار ذلك النشاط منذ بداية عصر المماليك.

وقد أورد السخاوي في أماكن متفرّقة من كتابه الكثير من المعلومات عن التجار في مدينة سواكن، واتضح أن أولئك التجار لم ينحصروا فقط في الاشتغال بمهنتهم، بل كانوا يساهمون في المناشط الأخرى. وكان بين أولئك التجار شخصيات اشتهرت لمكانتها العلمية في مدارس العالم الإسلامية الكبرى في مكة، والقاهرة، ودمشق. وقد زار بعضهم سواكن من أجل التجارة، واستقر فيها لبعض الوقت، ومكث بعضهم لسنوات طويلة، وتزوج وأنجب في سواكن، بل وتوفي بعضهم ودفن بها. ولم ينحصر نشاط أولئك العلماء في مدينة سواكن فقط، بل امتد إلى مناطق الداخل.[3]

---

[1]. المرجع نفسه.

[2]. العمري، مسالك الأبصار، مرجع سابق، ص245

[3]. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع، (موقع الوراق)، انظر على سبيل المثال: ج 2 ص 413، ج 4 ص 129.

وعن سكان سواكن ومنطقتها، ذكر كل من النويري (ت 732هـ/1332م)،[1] والمقريزي،[2] أن أهل سواكن «طائفة من البجة تسمَّى الخاسة وهم مسلمون». بينما ذكر ياقوت الحموي (626هـ/ 1229م)، أن أهلها بجاة سُود نصارى، ولم يوضح انتماءهم القبلي.[3]

ويوصف البجة عادة بأنهم (سودان) أي سود البشرة، كما وصفهم ياقوت، غير أن القلقشندي جعلهم «أصفى السودان لوناً».[4] وقد وصلت المسيحية إلى سواحل البحر الأحمر قبل دخول المسلمين مصر، بينما اتصل المسلمون بسواكن قبل القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي).

وقد جعل النويري والمقريزي الخاسة سكّان سواكن، ووضعهم ابن سعيد على البحر الأحمر، لكنه لم يحدّد مكانهم. أما القلقشندي فقد جعل الحداربة سكّان سواكن ولم يشر إلى الخاسة. والخاسة من القبائل الكبيرة والقديمة في المنطقة، فقد ذكرهم عيزانا في نقشه في القرن الرابع الميلادي، والذي ورد فيه أنه ذهب لحرب النوبة الذين أغاروا على عدد من القبائل، من ضمنهم قبيلة الخاسة. وحدّد ابن حوقل مواطن الخاسة بما بين خور بَرَكَة وسواحل البحر الأحمر، وذكر أنهم «بطون كثيرة في السهل والجبل»[5].

وذهب الدمشقي إلى أن الخاسة يعيشون إلى جوار الحداربة، وقسَّمهم إلى قسمين: «خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن».[6] وقد يؤيد معلوماته ما ذكره ابن حوقل من انتشار القبيلة الواسع ما بين خور بَرَكَة والبحر الأحمر.

كما ربط ابن حوقل قبيلتين أخريين هما (برقابات وحنديبا) بسواكن، فقال عنهما: «وتحاذي سواكن برقابات وحنديبا، وهم خفراء على الحدربية، وخفارتهم لعبدك، وهم تحت يده، وعبدك خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي. وبعض هؤلاء القوم

---

[1]. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب، (موقع الوراق)، ج1 ص66.

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 295.

[3]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق، ص164.

[4]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص282.

[5]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.

[6]. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص 237.

في خفارة كوك خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر، وعبدك وكوك رئيسا الحدارب أجمع».

ولم يمدنا ابن حوقل بأكثر مما ورد في النص من الإشارة إلى موطنهم الذي هو بمحاذاة سواكن. ولم يتضح هل يتصلون بسواكن أم يعيشون بجوارها. وورد في النص أنهم خفراء على الحداربة، ولم يرد عن القبيلتين أي ذكر في المصادر العربية بهذين الاسمين (برقابات وحنديبا). وورد في (لسان العرب) أن «الخفير هو المجير، وخفير القوم مجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده، وهو خفير يخفر القوم حفارة، والخفارة الذمة».

وللمزيد من توضيح مفهوم الخفارة التي تعني الجوار، نورد ما ذكره ابن سعيد المغربي القرن (7هـ/13م) عن قبيلة هوارة البربرية (الأمازيغية)، حيث قال عن سكّان مدينة مسراتة (في ليبيا الحالية): «وأهلها من هوارة تحت خفارة دياب»، ودياب بطن من قبيلة بني هلال، الذين سيطروا على هذه المناطق، وزحزحوا القبائل المحلية قبل عصر ابن سعيد بقرنين من الزمان. وأضاف ابن سعيد في الموضع نفسه عند حديثه عن طلميثة، وهي أيضاً مدينة على الساحل الليبي: «وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب».

وإذا كانت قبيلتا برقابات وحنديبا خفراء على الحدرابة، فيعني ذلك أنهم كانوا يمثلون مركز القوة في المنطقة، وأن الحداربة كانوا تحت حمايتهم. وهذا يتعارض مع ما ذكرته المصادر بما فيها كتاب ابن حوقل نفسه من أن قبيلة الحداربة أكبر وأقوى قبيلة في المنطقة، ولم يرد أي ذكر لهاتين القبيلتين في المصادر الأخرى وبخاصة اليعقوبي - الذي كتب في القرن الثالث - الذي فصّل الكتابة في تاريخ قبائل وممالك المنطقة.

غير أن الزبيدي نقل رأياً آخر، وسّع في معنى الخفارة -رغم تحفُّظه في قبول هذا المعنى- وجعلها تطلق على المُجير والمُجار، فقال: «يقال فُلانٌ خَفيري أي الّذي أُجيرُه، وهو أيضاً المُجير، فكُلُّ وَاحدٍ منْهُمَا خَفيرٌ لصَاحِبه.. والخفَارَةُ: الذِّمَّة كالخُفَرَة كهُمَزة، وهذا خُفَرَتي، وهو بمَعْنَى المُجير فَقَط، ولا يُطْلَق على المُجارِ ففي كلام المصنف إيهامٌ».

وأرى أن ابن حوقل استخدم لفظ الخفارة بهذا المعنى. وبذلك تكون قبيلتا بلاقابات

. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق.

. ابن منظور الأفريقي؛ محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، مادة (خ ف ر).

. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق.

. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ماة (خ ف ر).

وحنديبا كانتا تحت خفارة الحدارية، أي تحت ضمانهم وحمايتهم. ويؤيد هذا الرأي ما ورد في نهاية النص من أن «بعض هؤلاء القوم [القبيلتان] في خفارة كوك [الحدربي]».

ظل ميناء سواكن يساهم بنشاطه التجاري إلى جانب ميناء عيذاب، إلى أن بدأ دور عيذاب في التدهور منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، فبدأ نشاط ميناء سواكن في الازدهار، وبدأت تحل محل عيذاب في استقبال تجارة البحر الأحمر منذ العام (بضع وعشرين وثمانمائة للهجرة/ 1422م).

وزاد من تدهور الأوضاع قلة العمل في مناطق الذهب، وتوقّف العمل في استخراج الزمرد في منتصف القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، ووضّح المقريزي -في مكان آخر- نهاية النشاط التجاري عبر طريق عيذاب قوص (بعد سنة ستين وسبعمائة).[1]

- مدينة بختة

وربما كانت من مدن الحدارية أيضاً مدينة بختة. وقد تردد اسم مدينة (بختة) المشهورة بالجمال البختية كثيراً في المصادر العربية. ذكر الإدريسي مدينة بُختَة من بين مدن البجة، ووصفها بأنها قرية مسكونة، وأن بها سوقاً صغيرة، وحولها قوم ينتجون الجِمال، ومنها معايشهم، وهي أكثر مكاسبهم، وإلى هذه القرية تنسب الجمال البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها، ولا أصبر على السير، ولا أسرع خُطىً، وهي بديار مصر معروفة بذلك».[2]

وتبدو جِمال البجة من هذا الوصف أجود من غيرها من الجِمال التي عرفت بالبخت، مثل التى كانت تأتي من مدينة بلخ، والتي ذكر الإصطخري أنها «المقدمة على سائر البخت بالنواحي».[3] وقد ورد ذكر مدينة بخت عند كل من ابن سعيد والحميري، غير أن اسم المدينة ورد عند ابن سعيد (نجبة)، وذكر أن الجِمال النجبية تنسب إليها.

ويبدو أنه حدث خطأ في نقل الاسم عند ابن سعيد، فالجِمال توصف بالبختية وليس النجبية. ولم تتعرّض المصادر الأخرى لهذه المدينة. وقد نقل الحميري بالنص من الإدريسي، لكن ابن سعيد اعتمد على معلومات جغرافي اسمه ابن فاطمة (ت 362هـ) تجول في مناطق

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 309.

[2]. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص134.

[3]. الإصطخري، إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك (موقع الوراق)، ج1 ص95.

إفريقيا جنوب الصحراء، لكن كتابه المعنون (ممالك إفريقيا ومسالكها) مفقود. ولم يحدّد الإدريسي مكان مدينة بختة، وجعلها ابن سعيد على خط عرض 12 وخط طول 65.[1]

ومواقع خطوط العرض في الجغرافية العربية المبكرة لا يختلف كثيراً عن مواقع خطوط العرض الحالية، فخط الاستواء في الجغرافيا العربية يقع إلى الجنوب قليلاً من خط الاستواء الحالي. أما خطوط الطول التي تحسب حالياً من خط غرنتش، الذي يمر بمدينة لندن، فقد كانت تحسب في الجغرافيا العربية من جزر الكناري الواقعة في المحيط الأطلسي بالقرب من الساحل المغربي.

وعلى كل حال فإن خط طول 65 عند ابن سعيد يقع غرب البحر الأحمر، وخط عرض 22 عنده يقع إلى الجنوب من خط عرض 22 الحالي، والذي يمر بمنطقة وادي حلفا. وبناءً عليه يمكن وضع مدينة بختة في الجزء الشمالي من خور بَرَكَة. وهذا الافتراض لموقع المدينة يجعلها قريبة من الموقع المفترض لمدينة هجر، وتحديد هذه المناطق يتطلّب تضافر جهود المؤسسات الأكاديمية التاريخية والآثارية.

- **مدينة صنجة**

وقد ورد اسم مدينة أخرى ارتبط اسمها أيضاً بالحداربة وهي مدينة (صنجة). فقد ذكر الطبري أثناء تناوله حملة القمي على البجة عام 241هـ بأن «المؤن أتت إلى القمي عن طريق البحر»[2] إلى ساحل من سواحل البحر يعرف بـ(صنجة). بينما جاءت في كتاب ابن سليم (صيحة)، وقد اتضح مما ذكرته المصادر المبكرة مثل مؤلفات اليعقوبي، والمسعودي، وابن حوقل أن البجة الذين يقطنون أرض المعدن، والذين اتصلوا بالميلميين، واختلطوا بهم هم الحداربة. فـ(صنجة) أو (صيحة) والتي تقع على ساحل البحر الأحمر تكون من مدن الحداربة.

قبيلة البليين

ورد ذكر البليين عند الإدريسي (ت 560هـ/ 1165م)، وبعد ثلاثة قرون ردّد ابن الوردي (ت 861هـ/ 1457م) بعض ما ذكره الإدريسي عنهم. فقد ورد عنهم ما يلي:

---

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

[2]. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، 38.

أورد الإدريسي نصين عن البيليين، أحدهما عند الحديث عن مدينة أسوان جاء فيه:

1. «وربما أغار على أطرافها خيل السودان، المسمُّون بالبليين. ويزعمون أنهم روم، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط، وقبل ظهور الإسلام، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبة، وهم منتقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة، ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحّالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان، مثل مما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى».
2. والنص الثاني الذي أورده الإدريسي عن البليين جاء فيه: «وبين أرض النوبة وأرض البجة، قوم رحّالة يقال لهم البَلِيّون، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم، ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة. وأكثر أهل البجة نصارى خوارج على مذهب اليعاقبة كما قدمنا ذكره».

أما نص ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)، عند حديثه عن ميناء عيذاب فقد جاء كما يلي:

3. «وبين البجة وبين النوبة، قوم يقال لهم البليون أهل عزم وشجاعة، يهابهم كل من حولهم من الأمم ويهادنونهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية»[1].

فالنصوص حددت مكان البليين، ووضّحت بعض صفاتهم كما يلي:

- **1. تحديد المكان:**

حدد الإدريسي في نص رقم 1 منطقة البليين، بأنها بين أرض النوبة وأرض البجة، وهي الحدود نفسها التي ذكرها ابن الوردي في النص رقم 3. ولمّا تناول ابن الوردي البليين عند الحديث عن ميناء عيذاب على البحر الأحمر، فإن ذلك قد يدل أن امتداد حدود البليين شرقاً ليصل إلى ميناء عيذاب. ووضح نص الإدريسي رقم 2 أن امتداد مناطق البليين غرباً يصل إلى حدود مدينة أسوان، حيث يغيرون على أطرافها. وبناءً عليه فإن هذه النصوص قد حددت منطقة البليين ما بين أسوان غرباً، وعيذاب على البحر الأحمر شرقاً، وتمتد جنوباً حتى حدود الحبشة.

---

[1]. ابن الوردي، خريدة العجائب، مرجع سابق، ص 374.

▪ 2. أوصاف البليين:

1.2. وصف الإدريسي البليين في النص رقم 2 بأنهم رحّالة، ووضح (النص رقم 1) أماكن تجوالهم، بأنها بين أرض البجة، والحبشة، والنوبة. ويدل ذلك على أن مناطق تجوالهم واسعة، ولا بد أنهم يشاركون غيرهم من قبائل المنطقة التجول في تلك الأراضي. وقد وصف الإدريسي تجوالهم هذا مثل تجوال قبائل لمتونة (الصنهاجية نص رقم 1)، والتي كانت تتجول في المنطقة الصحراوية الواسعة بين جنوب المغرب الأقصى شمالاً، وحتى مناطق نهر السنغال جنوباً.

ولمتونة قبيلة كبيرة قامت على أكتافها دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري (الـ11 الميلادي). والإدريسي الذي عاش بين صقلية والأندلس والمغرب العربي كان على علم ودراية بحجم وقوة قبيلة لمتونة الصحراوية، ووصفه للبليميين بقبيلة لمتونة يشير إلى حجم وقوة قبيلة البليين في الصحراء الواقعة ما بين مصر، والنوبة، والحبشة.

2.2. كانت قبيلة البليين كبيرة وقوية، وذات وجود مؤثر في المنطقة، فقد اتفق الإدريسي وابن الوردي (النصان 2 و3) على وصف البليين بالقوة والشجاعة، ووضّحا كيف أن القبائل الأخرى المتصلة بهم في المنطقة تهابهم. وتشير النصوص إلى العلاقة التي كانت قائمة بين القبائل في المنطقة، فرغم المنافسة الطبيعية بين القبائل البدوية على أماكن المياه والكلأ، إلا أن علاقة البليين بجيرانهم كانت تتسم أيضاً بالطيبة وحسن الجوار، ويدل على ذلك الهدايا التي كانت تصلهم من جيرانهم، ولا بد أنهم كانوا أيضاً يهادونهم.

3.2. وقد أشارت النصوص إلى جيران البليين الذين يهابونهم ويرسلون إليهم الهدايا بـ«من حولهم من الأمم»، (النصان 2 و3). والأمم هنا هم النوبة، والحبش، والمسلمين في جنوب مصر، والذين يصل إليهم البليون في تجوالهم كما ورد في النص. ويفهم من ذلك أن العلاقات بين البليين وبين تلك الدول كانت على درجة قوية من الصِلات، ودرجة متقدمة من التنظيم. وفي واقع الأمر هنالك الكثير من الإشارات في المصادر العربية وضّحت نضج التنظيمات السياسية والادارية لقبائل المنطقة، مثل، ممالك البجة التي ذكرها اليعقوبي، والتنظيمات القبلية التي أشار إليها المسعودي وابن حوقل.

4.2. ولا يقتصر تنظيم علاقة البليين مع الأمم المجاورة لها فقط، فلا بد وأن تنتظم علاقاتها مع غيرها من قبائل البجة وممالكهم التي وردت الإشارات إليها في المصادر العربية، مما يوضح أن المناطق الواقعة بين مملكة المقرة غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، وبين مملكة علوة والحبشة جنوباً، والمسلمين في مصر شمالاً، قد كانت في القرون الكثيرة السابقة لقيام سلطنة الفونج مأهولة بالسكان، وشهدت قيام أنظمة سياسية وإدارات قبلية مستقرة.

5.2. ووضح النص رقم 1 أن وجود البليين في المنطقة يرجع إلى الفترة السابقة لدخول الإسلام مصر في القرن السابع الميلادي، وأنهم اعتنقوا المسيحية على مذهب اليعاقبة، مثل، ممالك النوبة المسيحية، والذي تم في منتصف القرن السادس الميلادي.

6.2. ربط النص رقم 1 البليين بالروم. ومن المعروف أن الروم مقصود بهم البيزنطيين الذين كانوا يحكمون مصر قبل الإسلام.

7.2 كما وضح النص رقم 1 أن البليين أصحاب خيل يغيرون بها على جيرانهم. فالبليون كانوا في القرن الثاني عشر الميلادي -عصر الإدريسي- قبيلة بدوية قوية وكبيرة، تتجوّل في منطقة واسعة ما بين حدود أسوان، والحبشة، والبحر الأحمر. ويبدو البليون ذوي قوة ونفوذ في المنطقة، وعلاقات مع جيرانهم في الشمال والجنوب.

- **فمن هم البليون؟**

تعدّدت وجهات نظر الباحثين والرحّالة في التعرف عليهم، وفيما يلي بعض تلك الآراء:

1. يميل البعض، مثل، كراوفورد، وروسيني، إلى ربط بليي الإدريسي ببليي كرن[1].
2. كما ربط كيروان بين بليي الإدريسي، وبين البليميين[2].
3. رأى مصطفى مسعد أن بليي الإدريسي هم البليميون.[3]

يقول كراوفورد إن بلين هو الاسم الذي يطلقه الباقوس Bagos في منطقة كرن على أنفسهم. ويرى روسيني أن وجود البليين في هذه المناطق قد يرجع إلى القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي، وأنهم بالتأكيد كانوا في شمال إثيوبيا في القرن الرابع عشر الميلادي،

---

[1]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، p 109.

[2]. Ibid.

[3]. مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 131، حاشية رقم 1.

ولذلك افترض أنهم بليي الإدريسي، وقد اتضح مما ذكره الإدريسي أن تجوالهم كان يمتد حتى حدود الحبشة.

أما كيروان، ومسعد، فيريان أن بليي الإدريسي هم البليون. والبليميون هم فرع قديم من فروع قبائل البجة. وقد وضحت الأدلة الأثارية مثل نقش كلابشة المروي، والوثائق التي جمعت عن منطقة شمال السودان، ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي، ونشرتها جامعة بيرغن، ووثائق الجبلين المنشورة في كتاب مصطفى محمد مسعد (الإسلام والنوبة في العصور الوسطى)، في الملحق رقم 3. أرجعت كل تلك الوثائق وغيرها من المصادر الكلاسيكية وجود البليميين إلى القرون السابقة للميلاد في المنطقة الواقعة جنوب أسوان، كما أمدتنا ببعض المعلومات عنهم، حتى القرن السادس الميلادي. وقد سبق الحديث عنهم في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وإذا قبلنا الرأي الذي يقول إن بليين الإدريسي هم البليميون -وأرى أنه رأي مقبول- نتقدّم خطوة أخرى لرؤية الآراء التي ربطت البليميين بالبلو، فقد تم الربط بين البلو وبين الكثير من القبائل والمناطق في بلاد البجة، وسنتعرض لذلك عند الحديث عن البلو.

ومن الملاحظ أن المصادر العربية لم تتعرّض لذكر البليميين، ما عدا الإدريسي وابن الوردي، فلماذا لم تتعرّض المصادر للبليميين ذوي الثقل الواضح في صعيد مصر قبل أن يدخله المسلمون؟. لا شك أن الأمر يحتاج إلى المزيد من العناية والبحث، خاصة أن المصادر العربية لا تمدّنا بمعلومات وافية عن فتوحات وحروب المسلمين المبكرة في عصري عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح في صعيد مصر، كما فصّلت عن الحروب في الوجه البحري. المؤلف الوحيد الذي أورد تلك المعلومات هو الواقدي، الذي يسيطر طابع الملاحم وعدم الدقة فيما كتبه عن تلك الحروب.

غير أن إفراد ولاية خاصة لصعيد مصر منفصلة عن ولاية عمرو بن العاص، تولاها عبد الله بن سعد بن أبي السرح في الخمس سنوات الأولى من دخول المسلمين، يوضح أن الأحداث في الصعيد قد تطلّبت تلك الإدارة المنفصلة. ولكن سكوت المصادر العربية عن تلك الأحداث يتطلّب أيضاً المزيد من العناية والبحث. والمعلومات القليلة الواردة هنا وهناك في المصادر تحدثت عن البجة في الفترة المبكرة. فابن حوقل، مثلاً، يقول: «فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمّا فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز، وقهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم» تؤكّد

مثل هذه المعلومات وجود البجة في صعيد مصر، ومشاركتهم أهل الصعيد في حروبهم ضد المسلمين.

ومرة أخرى نتساءل: لماذا سكت الكتّاب الذين تناولوا المنطقة عن ذكر البليميين، مثل اليعقوبي، وهو أول من أورد معلومات مفصّلة عن قبائل البجة وممالكهم في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وابن حوقل في القرن الرابع الهجري، هو الذي زار المناطق الشرقية من أرض البجة، وكتب معلومات كثيرة عن قبائلهم، وكذلك المسعودي في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، والذي استقر في مصر بعض الوقت، وكذلك فيما نُقل عن ابن سليم الأسواني، الذي زار مملكة المقرة في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)؟.

يبدو معقولاً أن المصادر قد أشارت إلى البليين، ولكن تحت أسماء أخرى. فالمصادر تذكر أحياناً اسم البجة لوصف كل القبائل بصورة عامة دون التعرُّض لأسمائهم. فابن سليم مثلاً يقول: «والبجة الداخلة.. حالهم في الظعن والمواشي و.. كحال الحداربة».[1]

وقد أشار ابن حوقل إلى البجة عندما تحدّث عن حروب عبد الله بن سعد في منطقة أسوان، فقال: «قهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم».[2] ويبدو معقولاً أن يكون المقصود بهم البليميون. وهنالك احتمال آخر يبدو معقولاً جدّاً، وهو أن تلك المصادر تناولت هذه القبيلة، ولكن تحت اسم آخر. فالمنطقة التي تحتلها قبائل البجة الحالية، كانت ذات ثقل سكاني واضح، وقبائل متعدّدة كما سيتّضح فيما يلي.

■ خاتمة:

عرّفت المصادر بسكّان السودان منذ القرن العشرين قبل الميلاد، أي منذ ما يزيد قليلاً على الأربعة آلاف سنة. واتضح التداخل والصلة العرقية بين سكّان ما بين البحر الأحمر شرقاً، ومناطق درافور غرباً، وبين منطقة حلفا شمالاً، ومناطقة السدود جنوباً. وهؤلاء السكّان يمثلون جزءاً من السكّان الأصليين للقارة الأفريقية، لم يهاجروا إليها من الخارج، بل تكونوا نتيجة التفاعل الطبيعي بين المناطق الغنية بالموارد المائية المتمثّلة في النيل، وبين المناطق ذات الموارد المائية القليلة المتمثلة في الصحراء غربي النيل.

---

[1]. ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 113.

[2]. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص 55.

قبيلة الزنافجة

الزنافجة من قبائل البجة، التي لم ورد عنها قليل من المعلومات. فقد جاء ذكرها عند اليعقوبي، وابن سليم، والدمشقي، والمقريزي. ويمكن تقسيم النصوص التي وردت عنها إلى مجموعتين: الأولى عند اليعقوبي والدمشقي، والثانية عند ابن سليم والمقريزي. قال اليعقوبي: «ومن العلاقي إلى أرض البجة، الذين يقال لهم الزنافجة، خمس وعشرون مرحلة. والمدينة التي يسكنها ملك الزنافجة يقال لها بقلين. وربما صار المسلمون إليها للتجارات، ومذهبهم مثل مذهب الحدارية، وليست لهم شريعة، إنما كانوا يعبدون صنماً يسمونه ححاخوا». [1]

جعل اليعقوبي في نهاية القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) موطن الزنافجة على بعد خمس وعشرين مرحلة من العلاقي، وهي المسافة نفسها التي قدرها لموطن قبيلتي الحدارية والكدبيين، رغم أنه لم يذكر أن الزنافجة والحدارية يعيشون سوياً، كما ورد عند ابن سليم والمقريزي. ووضع اليعقوبى الزنافج مع سبع قبائل أخرى، بما فيهم الحدارية في مملكة نقيس -المملكة الأولى من ممالك البجة- المجاورة للمسلمين وعاصمتها هجر. [2]

وقد كان الحدارية حكاماً لمملكة نقيس، كما يفهم من نصوص المصادر العربية، وقد تعرّضنا لذلك عند حديثنا عن قبيلة الحدارية. لكن اليعقوبي وضّح أن للزنافجة مملكتهم وعاصمتهم الخاصة بهم، وهي مدينة بقلين. وجعل موقع كِلتا المملكتين على بُعْد واحد من وادي العلاقي.

فهل يا ترى حدث خطأ في نقل المسافة -في النص أعلاه- بين وادي العلاقي وموطن الزنافجة؟، وكيف أعاد اليعقوبي -في النص الثاني- وجود الزنافجة في مملكة نقيس؟. لم تسعفنا المصادر العربية بمعلومات تساعد على توضيح ذلك. والنص الوحيد الذي تعرّض لذلك هو نص الدمشقي الذي أكّد وجود مملكة للزنافجة إلى جانب مملكة الحدارية حيث قال: «البجة وهم صنفان: حدارية، وملكهم يسكن هجر، والزنافجة وملكهم يسكن مدينة تقلين». [3] ويبدو اختلاف بسيط في اسم المدينة بتغيير حرف الباء عند اليعقوبي بحرف التاء عند الدمشقي، لكن يبدو أن كلا المؤرخين يرجعان إلى المدينة نفسها. ولا يبدو أن

---

[1]. اليعقوبي، البلدان، مرجع سابق، ص19-20

[2]. المرجع السابق.

[3]. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص 236.

الدمشقي اعتمد في معلوماته على اليعقوبي، لأن المادة التي أوردها عن الزنافجة لا تتطابق مع ما ورد عند اليعقوبي.

وقد نجد بعض المساعدة أيضاً عند اليعقوبي نفسه في إلقاء المزيد من الضوء على هذا الإشكال. فقد ذكر اليعقوبي أن المملكة الثانية من ممالك البجة يقال لها (بقلين)، فتأكد وجود بقلين كمملكة مستقلة عند اليعقوبي،[] وعند الدمشقي. وكما هو واضح عند كليهما أن بقلين هي مدينة الزنافجة. فإن الزنافجة إذاً مملكة مستقلة عن مملكة الحداربة، ويفهم من ترتيب ممالك البجة عند اليعقوبي أن المملكة الثانية -مملكة الزنافجة- في بقلين تجاور المملكة الأولى؛ نقيس.

ولا يستبعد أن يكون هنالك جزء من الزنافجة يعيشون في مملكة نقيس، خاصة أن اليعقوبي ذكر أن مملكة بقلين «كثيرة المدن واسعة»، ويرى كراوفورد أن مملكة بقلين يمكن تحديد موقعها بالقرب من الساحل في المكان المعروف اليوم بـBacla والتي ظهرت على خريطة Almeida عام 1662م باسم Baghela، كما ظهرت في خط رحلة Zorzi في القرن السادس عشر على بعد خمسة عشر يوماً جنوب سواكن. ويضيف كراوفورد أن اسم بقلا قد تردد كثيراً في المنطقة الواقعه شمال وغرب كرن، ولذلك لم يتردّد في جعل موقع مملكة بقلين بالقرب من الساحل في تلك المواضع، خاصة أنه وضع مدينة هجر عاصمة الحداربة شمال تلك المناطق. ويلاحظ أن كراوفورد يضع معظم مواطن البجة ما بين الساحل وخور بَرَكَة.[]

وأرى أن موقع مملكة بقلين ربما كان إلى الغرب والشمال من المناطق التي ذكرها كراوفورد، أولاً لأنه ذَكَر اسم هضبة تقع إلى الغرب من كرن، تحمل الأسماء نفسها التي تردّدت في المنطقة الواقعة شرقي كرن، وذكر أن الاسم في الأصل ربما رجع إلى اسم لتلك المنطقة. وثانياً ليس هنالك ما يمنع امتداد المنطقة غرباً إلى ما بعد خور بَرَكَة. وكانت تلك المناطق كما اتضح من وصف المصادر العربية، تتمتع بوفرة مصادر المياه والمراعي والمزارع، مما يجعلها مواطن استقرار لقبائل البجة.

وإلى جانب ذلك فإن كثيراً من سكان مناطق غربي خور بَرَكَة قد بدأوا ينزحون شرقاً منذ القرن الرابع عشر الميلادي لأسباب سياسية وطبيعية. فأغلب الظن أن مملكة الزنافجة

[]. اليعقوبي، البلدان، مرجع سابق، ص 15.

[]. 104-Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 103.

-بقلين- كانت تمتد في المناطق الوسطى من خور بَرَكَة، وفي شماله وشرقه.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي) أورد ابن سليم معلومات عن الزنافجة، تختلف عما ورد عند اليعقوبي. ذكر ابن سليم نصين عن الزنافجة، ربط في أحدهما بين الحداربة والزنافجة؛ ولم يجعل لهم كياناً مستقلاً، بل جعلهم تابعين للحداربة، حيث ذكر عند حديثه عن البجة: «ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج، هم أكثر عدداً من الحدارب، غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم، يجبونهم ويحلبونهم المواشي، ولكل رئيس من الحدارب، قوم من الزنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديماً أظهر عليهم».[1]

وقد نقل المقريزي نص ابن سليم هذا كما هو. وفي النص الثاني أشار ابن سليم إلى وجود الزنافجة في مكان آخر فقال: «ومن هذه الموضع [شمال بلاد علوة] طرق إلى سواكن، وباضع، ودهلَك، وجزائر البحر، ومنها عَبَر من نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة، وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً، وقطنوا هناك، وهم على حدتهم في الرعي واللغة، لا يخالطون النوبة، ولا يسكنون قراهم، وعليهم والٍ من قبل النوبة».[2]

رجع النص الأول إلى الزنافجة في فترتين زمنيتين: الأولى -قديماً- حيث كان الزنافجة أقوياء «أظهر عليهم»، وربما كان الحداربة في تلك الفترة تحت سيطرة الزنافجة. والفترة الثانية، وهي التي ساد فيها الحداربة، وأصبح الزنافجة تحت سيادتهم. والنص الثاني يشير إلى وجود الزنافجة بعيداً بجوار النوبة وتحت حكمهم. وتثير هذه المعلومات الكثير من الأسئلة، مثل: متى كان زمن قوة الزنافجة؟، ومتى ضعفت قوتهم؟، وما السبب أو الأسباب التي أدت إلى ضعفهم؟، ومتى استقر الزنافجة بجوار النوبة؟، وما هي أسباب تحركهم؟، وهل تحولوا من المنطقة الشرقية نحو النيل؟، أم جاءوا من منطقة أخرى؟.

وبالطبع نفتقر إلى المعلومات التي تساعد على الإجابة عن هذه الأسئلة أو بعضها، ولكن ذلك لا يمنع من محاولة استقراء ما توفر من معلومات، وإلقاء ما يتيسَّر من ضوء على مسألة الزنافجة. ونبدأ بمحاولة تلمُّس متى ضعُف الزنافجة، وسادت قوة الحداربة.

ربما نجد الإشارة الصريحة لقوة الحداربة فيما ذكره المسعودي في النصف الأول من القرن

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

[2]. المرجع نفسه.

الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، حيث قال: »وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة، إلى أن قوي الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب، وبلاد العلاة، وعلاقي، وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب، من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة».[1]

وواضح أن البجة الذين أشار إليهم المسعودي هنا هم الحداربة، الذين صاهروا ربيعة وتقوّوا بهم، وأصبحوا كما وصفهم ابن سليم «شوكة القوم ووجوههم»، فهل نربط بداية قوة الحداربة بمصاهرتهم ربيعة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري؟. وإذا قبلنا بداية ظهور قوة الحداربة بهذا التاريخ، فمن هم البجة الذين ذكرت المصادر العربية غاراتهم على المسلمين في مدن الصعيد، وعلى القاهرة، والذين حاربهم المسلمون في ثلاث مواقع كبيرة قبل مصاهرة الحداربة لربيعة؟؛ هل هم الزنافجة؟، أم قبيلة أخرى من البجة لم تذكر المصادر اسمها؟.

في واقع الأمر فإن الحداربة هي القبيلة الوحيدة التي تردّد ذكرها في المصادر العربية، وكانت على صلة بمناطق التعدين، وعلى علاقة بالمسلمين، وورد ذكر الزنافجة بدرجة أقل وملحقين بالحداربة. ولذلك فمن غير المرجَّح أن يكون الزنافجة هم القوة البجاوية التي ناهضت المسلمين قبل العمل في المعدن، وقبل ظهور قوة الحداربة. وإذا قبلنا ذلك، ربما كان الحداربة هم البجة الذين أورد الواقدي الروايات التي تقول بمشاركتهم الأقباط بجيش كبير للدفاع عن صعيد مصر.

ومن ناحية أخرى فهل نقبل ظهور الحداربة بتلك القوة فقط بعد مصاهرتهم لربيعة في الفترة الزمنية الواقعة بين تكامل العمل في التعدين نحو منتصف القرن الثالث الهجري، وبين وقت كتابة ابن سليم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري؟، هل هذا الوقت كافٍ لنمو قوتهم وتحقيقهم كل تلك الامتيازات والسيادة؟. فرسوخ الأوضاع القبلية والطَبقية -بالصورة التي ذكرها ابن سليم- تتطلّب زمناً طويلاً، وأجيالاً متعاقبة، يرسخ بين أفرادها ذلك التنظيم الطبقي، ويصير ممارسة مقبولة في الكيان الاجتماعي. لذلك فإن افتراض وجود قوة الحداربة قبل مصاهرتهم ربيعة، وأن تلك القوة ازدادت بتلك المصاهرة يبدو أيضاً مقبولاً. فيكون الحداربة كما افترضنا عند الكتابة عنهم سابقاً، هم القوة التي ناهضت المسلمين منذ قدومهم مصر. ولا يمنع ذلك من وجود الزنافجة إلى جوارهم في ذلك

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2 ص18.

الوقت كقبيلة أقل قوة منهم.

وننتقل إلى نص ابن سليم الثاني لمحاولة التعرّف على الزنافجة المستقرين في منطقة النوبة. وضّح ابن سليم أنهم انتقلوا إلى النوبة [قديماً]، وأنهم رعاة، ويسكنون في قراهم الخاصة بهم، ولا يخالطون النوبة، ولا يتحدّثون لغة النوبة، بل لغتهم الخاصة، وأنهم تابعون للنوبة، عليهم والٍ من قِبَلهم.

فهل حدث ذلك عندما فقد الزنافجة قوتهم، ووقعوا تحت سيادة الحداربة، واختار بعضهم الهجرة غرباً نحو النيل؟. يبدو ذلك معقولاً وممكناً. أم هم من بقايا البجة البليميين، الذين كانوا يقطنون المنطقة قبل انتشار المسيحية واعتنقوها؟. فقد أشارت المصادر أنهم كانوا مستقرين في موقع وسط بين مملكتي نوباتيا وعلوة على الناحية الشرقية للنيل. وهذا هو المكان الذي حدد ابن سليم وجود الزنافجة فيه، لكنه لم يُشر إلى معتقدهم، بينما وضح أن الزنافجة في منطقة البجة يعبدون صنماً لهم.

ولا أعتقد أن الزنافجة في منطقة النوبة هم من البليين الذين ذكرهم الإدريسي، لأن هؤلاء كانوا أقوياء، وغير خاضعين للنوبة. ويبقى موضوع زنافجة النوبة والبليين المسيحيين في منطقة النوبة -مثل كثير من موضوعات تاريخ البجة قبل القرن الـ15 الميلادي- في حاجة إلى تضافر جهود المؤرخين، والآثاريين، وعلماء اللغات، لعدم توفُّر المعلومات في المصادر المتاحة.

وفي القرن نفسه الذي كتب فيه ابن سليم رابطاً الزنافجة بالحداربة، يطالعنا ابن حوقل ببعض المعلومات عن قبيلتين تعيشان في المنطقة نفسها قريبتي الشبه بما كتبه ابن سليم عن الزنافجة، هما: برقابات وحنديبا. يقول ابن حوقل: «وتحاذي سواكن بطون تعرف برقابات وحنديبا، وهم خفراء على الحدربية، وخفارتهم لعبدك وهم تحت يده». [] جعل ابن حوقل برقابات وحنديبا خفراء على الحداربة، بينما جعل ابن سليم ذلك للزنافجة. وقد علّقنا عند الحديث عن قبيلة الحداربة ما يمكن أن يكون قصده ابن سليم من (الخفارة).

ويلاحظ أن ابن حوقل دخل منطقة البجة الحداربة -كما ذكرنا أعلاه- ولذلك ربما اعتبرت معلوماته أوثق من معلومات ابن سليم، الذي دخل منطقة النوبة، ولم يدخل منطقة البجة. وبما أن اليعقوبي ذكر أن مملكة بقلين (مملكة الزنافجة)، مملكة واسعة وكثيرة

[]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

المدن، فيرجّح ذلك أن سكانها يتكوّنون من قبائل متعدّدة. فربما كانت قبيلتا برقابات وحنديبا من بين قبائل مملكة بقلين، أو فرعاً من قبيلة الزنافجة.

ويبدو معقولاً أن تعيش في مملكة بقلين الواسعة والكثيرة المدن قبائل متعدّدة مستقرة ومتنقّلة. وقد وردت في المصادر معلومات مقتضبة عن مملكة بقلين، لا تساعد في إلقاء الضوء على أوضاعها. وصف اليعقوبي سكّان مملكة بقلين بأنهم يقلعون ثناياهم، وهو الوصف الذي جعله ابن حوقل لبازين سكّان المملكة الثالثة عند اليعقوبي. وذكر اليعقوبي أن سكّان بقلين يختتنون[1]، ولم أجد هذا الوصف في المصادر العربية في غير هذا المكان.

وشبه اليعقوبي ديانة أهل بقلين بالمجوسية والنصرانية حيث ذكر: «أنهم يضارعون في دينهم المجوس والنصارى».[2] بينما ذكرت أغلب المصادر أن البجة الداخلة يعبدون الأصنام. ولست أدري معنى تشبيههم بالمجوس والنصارى، هل في طقوسهم؟، أم في تدينهم؟، أم أنه أراد شيئاً آخر؟.

قبيلة الخاسة

الخاسة من القبائل الكبيرة والقديمة في المنطقة، فقد ذكر عيزانا، كما ورد عند آركل، في نقشه في القرن الرابع الميلادي، أنه ذهب لحرب النوبة الذين أغاروا على عدد من القبائل من ضمنهم قبيلة الخاسة.[3] وحدّد ابن حوقل مواطن الخاسة ما بين خور بركة وسواحل البحر الأحمر، وذكر أنهم «بطون كثيرة في السهل والجبل».[4] ويبدو أن المعلومات عن هذه المناطق لم تتوفّر للكتّاب المسلمين بعد عصر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، وحتى امتداد حدود المماليك في مصر على سواكن 664هـ/1265م.

وأول إشارة بعد ابن حوقل للخاسة جاءت عند ابن سعيد (ت نحو 685هـ) أثناء حديثه عن تلك المناطق فذكر أن: «سحرتة من أجناس الحبشة المذكورة وعمائرهم ممتدة مع هذا النيل من الجانبين. وفي شرقيه من مدن الحبشة المشهورة كلغور، وهي مجمع لهم في

---

[1]. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص 22.

[2]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. Arkell، Anthony John، «History of the Sudan From the Earliest Times to 1821.- London: The Athlone Press، 1961»، p.172.

[4]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق.

كل ناحية، وبها ملتقى من يريد البحر أو النيل أو البرية. وموضوعها حيث الطول ثلاث وستون، والعرض إحدى عشرة درجة. وفي شمالي سحرتة من النيل إلى البحر بلاد الخاسة وهم مذمومون بين أجناس الحبشة، وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم، ويدفعون ذكور الآدميين في صداقاتهم ويفتخرون بذلك».[1]

تحدّث ابن سعيد عن بلاد الخاسة بين النيل والبحر، وإذا قصد بالنيل هنا نيل الحبشة، فهو يشير إلى النيل الأزرق، الذي ذكر أنه ينبع من بحيرة حورس، والتي تقع على خط الاستواء. وهذا الموقع لا يتناسب ووجود القبيلة في المناطق الشمالية، لأن النيل الأزرق لا يمر شمالاً. وربما قصد بالنيل نهر عطبرة أو خور بَرَكَة وكلاهما لا ينبع من بحيرة تانا. وأغلب الظن أن الإشارة هنا لخور بَرَكَة، فابن سعيد جغرافي عاش في الغرب الإسلامي، ولم يزُرْ هذه المناطق، وربما لم يعتمد على مصادر ذات صلة ومعرفة بالمنطقة، فجاء في معلوماته بعض الاضطراب. ويبدو ذلك واضحاً من وصفه للقبيلة، وهو الوصف الذي انفرد به، والذي يعكس ضعف معلوماته عن المنطقة وسكانها.

وأتت معلومات مختصرة جداً عن الخاسة بعد ابن سعيد في القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، عند النويري[2]، وعند الدمشقي والمقريزي، في القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي). وقد جاءت معلومات النويري والمقريزي متطابقة إذ جعلا مدينة سواكن موطناً للخاسة، وذكرا أنهم مسلمون، ولهم مملكة خاصة بهم.

ذكر الدمشقي أن الخاسة يعيشون إلى جوار الحدارية، وقسمهم إلى قسمين: «خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن».[3]

ويبدو أن معلومات المصادر العربية عن البجة وبلادهم كانت في غاية الندرة والاضطراب، حتى بالنسبة للمقريزي الذي عاش في القرن (الـ15 الميلادي) في مصر. ويلاحظ على موقع القبيلة عند ابن حوقل أنه إلى الجنوب كثيراً من سواكن، والتي جعلها النويري -ونقل عنه المقريزي- موطناً للخاسة، بينما لا يرتبطون عند الدمشقي بسواكن، ومن الممكن عنده أن تكون ديارهم إلى الجنوب. ومعلومات ابن حوقل تعتبر أكثر مصداقية من النويري -الذي

---

[1]. ابن سعيد، الجغرافيا، مرجع سابق، ص 60.

[2]. النويري، نهاية الإرب، مرجع سابق، ج1 ص66

[3]. الدمشقي، نخبةالدهر، مرجع سابق.

كان عاش في مصر، لكنه لم يزر المنطقة- وأصدق من معلومات الدمشقي الغريب عن المنطقة.

ويرى كراوفورد أن موطن الخاسة كان بالقرب من كرن، بينما يضعهم موزنجر جنوب أسمرا، بناءً على ما ذكره ابن سعيد من أن موطن الخاسة شمال سحرتة. فقد جعل موزنجر موقع سحرتة جنوب أسمرا. ويبدو أن قبيلة الخاسة -كما وصفتها المصادر- كانت قبيلة كبيرة، ربما امتدت من مناطق أسمرا جنوباً حتى مدينة سواكن شمالاً. فقد ذكر الدمشقي والنويري أنهم مسلمون، مما يوضِّح ارتباطهم بالمسلمين شمالاً. وذكرا أن لهم مملكة خاصة بهم، مما يوضِّح مدى قوتهم، وعدم خضوعهم للحداربة الذين رأينا قوتهم وسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب والغرب من سواكن. وقد يؤيد قوة الخاسة واتساع مواطنهم شمالاً وجنوباً ما ذكره الدمشقي من أن الخاسة قسمان متميزان: خاسة العليا وكانوا مسلمين، وخاسة السفلى الذين قال عنهم إنهم كفار، مما يشير إلى بعد مواطنهم في الجنوب.

قبائل البجة في الداخل

وردت بعض المعلومات القليلة في المصادر العربية عن القبائل البجاوية في الداخل، بالمقارنة إلى ما ورد عن الحداربة ومن جاورهم من القبائل شمالاً. وانتشرت قبائل الداخل بين ساحل البحر الأحمر شرقاً، ووادي بَرَكَة وخور القاش حتى حدود مملكة علوة الشرقية غرباً. قال عنهم ابن سليم: «والبجة الداخلة في صحراء بلد علوة مما يلي البحر المالح إلى أوّل الحبشة، ورجالهم في الظعن، والمواشي، واتّباع الرعي، والمعيشة، والمراكب، والسلاح، كحال الحدارب».[1]

قد وصف ابن حوقل مناطق الداخل هذه قائلاً: »نواحي قلعيب، وهي مواضع ذات مياه في أودية متصلة بجبل يعرف بملاحيب، وأكبر أوديته وادي بَرَكَة، وبين قلعيب وبَرَكَة غياضٌ عاديةٌ ذات أشجار، وربما كان دائرة الشجرة من أربعين ذراعاً إلى خمسين ذراعاً إلى ستين ذراعاً. وأفنيتها مراتع الأفيلة، والزرافات، والكركدن، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها. ويتّصل بحد ملاحيب من شقه الشرقي

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 113.

وادٍ يعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً والشجر والحمر والوحش».

ويواصل ابن حوقل: واصفاً منطقة جبل ملاحيب، ودلتا القاش، وأواسط نهر عطبرة قائلاً: «ويتصل بجبل ملاحيب من شقه الشرقي وادٍ يعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً والشجر والحمر والوحوش.. وكأن هذا الجبل آخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن [دلتا القاش]، وهي أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة، ومن يحضر معهم من البجة».[1]

وتعيش في هذه المناطق الكثير من قبائل البجة التي وردت عنها بعض المعلومات في المصادر العربية، كما في مؤلفات ابن حوقل، واليعقوبي، وابن سليم. وأسماء القبائل التي وردت في تلك المصادر هي: (قعصة، وبواتيكة، وكديم، والماتين، وبازين، وبارية، والديجون، والحلنقة). ولا تمكن تلك المعلومات من رسم صورة واضحة لتلك القبائل. وللبحث عن إلقاء المزيد من الضوء على تلك القبائل سنحاول ربط ما ورد عنها بما ورد عن ممالك البجة عند اليعقوبي.

تناول اليعقوبي ستة ممالك تحت عنوان (ممالك البجة)، جاءت كما يلي: «فأول مملكة البجة من حد أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حد بَرَكَات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس.. والمملكة الثانية من البجة، مملكة يقال لها: بقلين، كثيرة المدن.. ثم المملكة الثالثة يقال لها: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة.. والمملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له: باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بَرَكَات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له: حل الدجاج.. والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له: فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب، جلد، مستعدون للحرب والقتال.. ثم المملكة السادسة، وهي مملكة النجاشي».[2]

ومن الواضح أن المملكة الأولى هي مملكة شمال بلاد البجة، حيث توجد قبائل الحداربة والزنافج، وقد وضعنا معهم بطون رقابات وحنديبا، وإلى جانبهم قبيلة الخاسة. أما قبائل الداخل، كما وردت في المصادر، فهي كما يلي: (قعصة، وبواتيكة، وكديم، والماتين،

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص71.

[2]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص21-23.

وبازين، وبارية، والحلنقة). وسنتعرّف فيما يلي على هذه القبائل بناءً على ما ورد عنها من معلومات.

- **قبيلة قعصة:**

ذكر ابن حوقل قبيلة كبيرة ذات بطون متعددة ممتدة مسيرة ثلاثة لأيام ما بين خور بَرَكَة وباضع «مملوءة ببطون قعصة وهي من أجل بطون البجة الداخلة وأكثرها مالاً وأعزها». ويبدو اسم هذه القبيلة وموطنها قريباً مما ذكره ابن حوقل عن مملكة البجة الخامسة التي وصفها قائلاً: «والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب جُلُدّ، مستعدون للحرب والقتال».[1]

ويلاحظ الشبه الواضح بين الاسمين (قطعة) عند اليعقوبي، و(قعصة) عند ابن حوقل، كما يلاحظ أن المؤلفين يرجعان إلى المكان نفسه تقريباً، والذي هو بجوار باضع، مما يرجِّح أن قعصة عند ابن حوقل هي المملكة الخامسة عند اليعقوبي. ورجَّح كراوفورد أن تكون قبيلة قعصة هي نفسها قبيلة الخاسة.[2] ولست أدري كيف أتى كراوفورد برأيه هذا، مع العلم بأن ابن حوقل ذكر قبيلة الخاسة، ووضّح أنها بطون كثيرة بين السهل والجبل، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن هذه القبيلة، فهي تبدو إلى الشمال كثيراً من مناطق مملكة قصعة، كما وضعتها المصادر العربية التي أشرنا إليها عند حديثنا عن قبيلة الخاسة.

- **بواتيكة:**

وصف ابن حوقل بواتيكة ومواطنها بأنها: «مياه متصلة وبلدان عامرة بواتيكة من قبائل البجة، تزيد على الإحصاء ولا يُبلغ عددها لتوغُّلهم في أعماق الصحارى».[3] ويبدو من هذا الوصف أن قبيلة بواتيكة قبيلة كبيرة تعيش على مساحات واسعة من مناطق المياه في المرتفعات وخور بَرَكَة شرقاً، وممتدة غرباً وشمالاً إلى مناطق الصحراء، مما يوضح مدى

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 71.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 104.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 72.

كثافة السكّان وتعايش قبائل البجة إلى جوار بعضها بعضاً.

ولو رجعنا إلى ما ذكره اليعقوبي عن مملكة البجة الرابعة نجده يتحدّث عن قبيلة كبيرة وخطيرة ومحاربة على ساحل البحر، قال عنها: «المملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بَرَكَات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له حل الدجاج، وهم قوم يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل، ويقولون لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم».[1]

فهل من الممكن الربط بين مملكة جارين وقبيلة بواتيكة؟. لا يوجد ما يمكن أن يؤيد هذا الافتراض، خاصة وأن اليعقوبي ذكر أن امتداد القبيلة من ساحل البحر إلى حد بَرَكَات، فلم يجعل لها امتداداً في الصحراء كما فعل ابن حوقل. ولكن ذلك لا يمنع قيام الافتراض بأن بواتيكة ربما تكون المملكة الرابعة لافتراض أن عدم حصول كلا المؤلِّفين على معلومات كاملة ودقيقة عن المنطقة.

- **كديم:**

وضح ابن حوقل أن بطون كديم المعروفة بعجات من البجة، توجد بنواحي خور بَرَكَة، وإلى الشرق منها قبيلة الخاسة. وربما جعل هذا الوصف انتشار بطون قبيلة كديم أو عجات بنواحي خور بَرَكَة والمناطق الواقعه غربيه. وقد يكون ذلك في المناطق الصحراوية الواسعة شمال دلتا القاش. وتبدو كديم كقبيلة كبيرة لها بطون كثيرة، رغم أن ابن حوقل لم يورد ما يساعد على المزيد من التعرُّف على تلك البطون وأساليب حياتها. ويلاحظ أن ابن حوقل، أثناء حديثه عن قبائل البجة الأخرى في مناطق خوري القاش وبَرَكَة، تناول أساليب حياتها من زراعة، ورعي، وثرواتهم الحيوانية والنباتية، غير أنه لم يتناول شيئاً من ذلك عند الحديث عن بطون كديم المغروفة بعجات.

وذكر كرَاوفُورد أن أحد فروع البشاريين الذين يعيشون في منطقة أم ناجي البشارية، شرق بربر وشمال عطبرة يطلق عليه كادبين،[2] ولذلك رأى أنه ربما كانت كادبين هي نفسها كديم المعروفة بعجات عند ابن حوقل. ويعني ذلك أن بطون كديم انتشرت في هذه المنطقة الصحراوية -من مملكة نقيس- شمال غرب بلاد البجة.

---

[1]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص 22.

[2]. Crawford، «The Fung Kingdom of Sennar»، op، p. 104.

- **الماتين:**

امتدت ديار الماتين -كما يقول ابن حوقل- في مناطق «دهرا، وسيتراب، وغركاي، ودُحنت، إلى الجبل المعروف بمسمار».[1] ويعرف كراوفورد سيتراب بأنهم سكان المنطقة القريبة من جبل وخور يطلق عليه Sitrarab في الخريطة الحديثة بين 20 و30 ميلاً غرب الشمال الغربي لطوكر، ومسمار هو الجبل المعروف بهذا الاسم، لذلك فإن غركاي ودُحنت يمكن وضعهما في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سنكات. وقد ارتبط غركاي بالمنطقة المعروفة بـGarric شمال ملتقى هيا. فالماتين ينتشرون في هذه المنطقة حتى جبل مسمار.

- **بازين وباريه:**

وصف ابن حوقل المنطقة الواقعة ما بين جبل ملاحيب وأوديته من على سواحل البحر الأحمر في اتجاه الغرب مروراً بوادي بَرَكَة حتى دُكن [حوض القاش]: «أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويَزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة ومن حضر من البجة». ويتضح من النص تداخل النوبة والبجة في هذه المناطق، وفي الغالب يكون ذلك التداخل على مناطق الحدود الشمالية الشرقية لمملكة علوة المتاخمة للبجة. ويواصل ابن حوقل: «وكأن هذا الجبيل [ملاحيب] أخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن، وهي أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن. وفي شق بَرَكَة قبائل كثيرة تعرف ببازين وباريه أمم كثيرة قتالهم بالقسي، والسهوم المسمومة، والحراب بغير درق. ومن رسم باريه قلع ثناياها وبحر آذانها، ويسكنون في جبال وأودية، ويقتنون البقر والشاه ويزرعون».[2]

وعن بازين يقول ابن حوقل: «ويجاور تفلين بازين أمم مقيمة في أخصاص كالقرى، لهم الماشية من البقر والزرع. ورئاستهم بأيدي شيوخهم، وليس فيهم إلا راجل، وسلاحهم الحراب والمُرّان، ولا فارس فيهم، وليس لأحد عليهم طاعة، ولا دين لهم، ولا هم متصلون بشريعة غير الاقرار بالله وحده والتسليم له، واسمه جل وعز عندهم أننه. ومن تفلين إلى وادي بَرَكَة ثلاثة أيام». يقول ابن منظور في (لسان العرب) أن المران نبات مثل القنا تصنع منه الرماح، ويعرف بنبات الرماح.

ويواصل ابن حوقل عن بازين: «وادي بَرَكَة يجري من بلد الحبشة مجتازاً على بازين،

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 72.

[2]. المرجع نفسه.

وآخذاً إلى ناحية البُجة، وينصب بين سواكن وباضع في البحر المالح». يتحدّث ابن حوقل عن (قبائل كثيرة) في المنطقة الواقعة بين وادي بَرَكَة ودلتا القاش، غير أنه أشار إلى قبيلتين فقط هما بازين وباريه. ويبدو من وصفه للقبيلتين أنهما تتشابهان. ففي سبل حياتهم ذكر أنهم مزارعون ويربون البقر والماشية، وعن طريقة قتالهم وضح أن: «قتالهم بالقسي، والسهوم المسمومة، والحراب بغير درق». □وذكر أن سلاح بازين، الحراب والمران، ولا فارس فيهم. كما وضح بعض السمات الخاصة بكل منهما كما في النصوص أعلاه.

واتضح مما ذكره ابن حوقل أن القبيلتين متجاورتين، وأعدادها كبيرة، فقد وصف بازين بأنها (أمم) وجعل امتدادهم على مساحة واسعة بين وادي بَرَكَة وحوض القاش حتى منطقة تفلين الواقعة بين علوة والبجة، كما سبق الحديث عنها في قبائل النوبة. وهذا هو موقع نفسه بازين عند اليعقوبي -أيضاً- فهم عنده يمثلون المملكة الثالثة من ممالك البجة، قال عنهم «بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة، ويحاربون هؤلاء، وزرعهم الذي يأكلونه، وهو طعامهم واللبن». وحديث اليعقوبي عنهم كمملكة، يؤيد وصف ابن حوقل لهم كأمم. كما اتفق كلا المؤلفين على اشتغالهم الزراعة، وتربيتهم الماشية.

وقد تردد اسم قبيلتي بازين وباريه في المصادر بصور مختلفة. فابن سليم تحدث عن بازة، ووضعهم على نهر عطبرة. ولا يبدو هذا الموقع بعيداً عن دلتا القاش الذي جعله ابن حوقل في مناطق قبيلتي بازين وباريه. ويلاحظ أن بن سليم يتحدث عن البازا باعتبارهم جنساً، حيث يقول: «جنس يقال له بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة». □

فالحمام الذي يأتي من عند شعب البازا يطلق عليه بازين، فهو لا يفصل بين البازة وبازين، فهم إما قبيلة واحدة أو ينتميان إلى الجنس نفسه. وقد جعل ابن سليم جنس البازة يمتد حتى حدود الحبشة. أما ابن عبد الظاهر فقد تحدث عن بارة ضمن المناطق التي وصلها مبعوث السلطان قلاوون (678 – 689هـ/ 1280م – 1290م). □ ولم يشر إلى موقعها.

□. المرجع نفسه.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

□. ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، في: مسعد، المكتبة السودانية، ص167.

ولذلك فقد يكون بازين، وبارين، وبازة، وبارة، يرجعون إلى الأمم التي أشار إليها ابن حوقل أعلاه «بازين وباري أمم كثيرة». وقد نقل ماكمايكل عن كواترمير Quatremere ودي فلارد، كما نقل ماكمايكل ومصطفى مسعد أن بارة هي نفسها بازة.

ويرى كراوفورد أنه ما يزال الاسم حياً as Baza بين القاش وستيت تكازي، يحده من الغرب السودان، ومن الشرق الحدود الإثيوبية.[1] والسكان الحاليون بالإضافة إلى الباريا في الشمال يتكلمون لغة نيلية. ويبدو أن اليعقوبي تناول تحت اسم بازين شعب الباريا المتصلين ببَرَكَة، وربما كانوا في سمت بقلين. وليس للباريا أو البازا صلة لغوية أو ثقافية بالبجة ذوي النظم الاجتماعية الأرستقراطية. وفي نظام المجتمع الأمومي البازيني ليس للأسرة أثر سياسي.

ويرجح كراوفورد أن انتشار اللغة النيلية إلى تلك المناطق شمالاً، وانفصالها من وطنها في الجنوب بنحو 500 ميل قد تم -كما يرى روزيني- على الأقل نحو 1500 قبل الميلاد إذا ربط الـMennus في قائمة Thotmes الملكية بـMemnons of Pliny.

قبيلة الحلنقة

قبيلة الحلنقة من قبائل الداخل الكبرى، والتي ورد عنها قليل من المعلومات في المصادر العربية، شأنها في ذلك شأن باقي قبائل الداخل. وردت الإشارة إلى قبيلة الحلنقة في المصادر العربية مرة واحدة عند النويري، بصورة مباشرة، ومرة أخرى عند ابن عبد الظاهر، بصورة غير مباشرة.

يتعلّق نص ابن عبد الظاهر بالسفارة التي أرسلها السلطان المملوكي الملك المنصور قلاون إلى حكام السودان. وتاريخ هذه السفارة 685هـ/1286م، يشير إلى بداية تطوّر العلاقات بين المماليك حكام مصر، وبين السودان. فقد أرسل المماليك حملة بحرية في العام 664هـ/1265م إلى ميناء سواكن، وتمكّنوا من إنشاء مملكتهم عليها. ثم أغار ملك المقرة 674هـ/1275م على ميناء عيذاب، وعلى منطقة أسوان، مما أدى إلى بداية الصراع الذي نشب بين مملكة المقرة والمماليك، والذي انتهى باعتلاء أمير مقُري مسلم عرش مملكة المقرة.

---

[1] .Crawford، «The Fung Kingdom of Sennar»، op، p. 106.

كان السودان في تلك الفترة تحت حكم مملكتين كبيرتين، هما مملكة المَقُرّة وعاصمتها دنقلة، ومملكة علوة وعاصمتها سوبة. ويبدو أنه كانت هنالك الكثير من الوحدات الإدارية، تحت إدارة حكام أو ملوك مستقلين، توجهت إليهم سفارة السلطان المملوكي في العشرين من ذي القعدة عام 685هـ/1286م. وقد ذكر ابن عبد الظاهر تسعة من أولئك الحكام وهم: «أدر ملك الأبواب، وصاحب بارة، وصاحب التاكة، وصاحب كدرو، وصاحب دنفوا، وصاحب أري، وصاحب بِفال، وصاحب الأنج، وصاحب كرسة».[1]

وقد حاول الكثير من الباحثين التعرف على المناطق الواردة في هذا النص، منهم على سبيل المثال، الدكتور أحمد المعتصم الشيخ،[2] ومنهم الدكتور مصطفى محمد مسعد،[3] ومنهم كراوفورد الذي نودّ التوقّف معه هنا، هو أن أغلب المؤرخين رجّحوا أن المناطق التي ذهبت إليها سفارة السلطان المملوكي تقع في ديار البجة الحالية.

وليس هنالك غرابة في ذلك، لأن منطقة البجة كانت معروفة للمسلمين لِما بها من المعادن والسلع التجارية الأخرى التي تأتي من مناطق الداخل، ثم لأن اتصال المماليك بالسودان كان أكثره عبر بلاد البجة، نسبة للقيود التي كانت تفرضها مملكة المقرة على دخول التجار إلى أراضيها. والدليل على قوة الصِلة بين المسلين ومناطق البجة ما ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، من وجود مملكة إسلامية ملكها مسلم، يتكلّم العربية في منطقة خور القاش.[4]

فإذا استثنينا ملك الأبواب، وملك كرسة، فإن باقي كل الحكام الذين أُرسلت إليهم السفارة، يرجّح وجودهم في مناطق البجة الداخلة، وهي المناطق من أرقام 2 إلى رقم 7 في النص. وليس هذا موضع تتبُّع ذلك، لكنني أريد الإشارة إلى صاحب التاكة، وصاحب العنج، لارتباطهما بقبيلة الحلنقة. ويقودنا ذلك للتوجُّه إلى النص الثاني المباشر عن الخاسة، والذي أورده النويري عندما تناول الحملة التي أرسلها السلطان المملوكي الناصر محمد لمطاردة بعض العربان في الصحراء الشرقية.

---

[1]. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، مرجع سابق، ص 196 – 198.

[2]. أحمد المعتصم الشيخ، في بحثه القيم عن «زمن العنج» والذي قدمه إلى معهد الدراسات الافريقية والأسيوية، وفي بحثه لدرجة الدكتورة عن منطقة التكاكي [أبو حمد] في الفترة الواقعة بين إسلام ملوك مملكة المقرة وسقوط مملكة علوة.

[3]. مصطفى مسعد في تعليقاته على النصوص في كتابه المكتبة السودانية العربية.

[4]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.

وكان سبب إرسال الحملة، هو أن حاكم قوص بصعيد مصر اعتقل أحد زعماء الأعراب في صحراء عيذاب، فقطع هؤلاء الأعراب الطريق على مبعوث حاكم اليمن إلى السلطان المملوكي في طريقه من عيذاب إلى القاهرة، وأخذوا ما كان معه، ومن رافقه من غلمان التجار، فأمر السلطان والي قوص بتجريد حملة لمطاردة هؤلاء العربان.

تحرّكت الحملة المكونة من نحو خمسمائة فارس من مدينة قوص، ومعها فياض، زعيم العربان الذين أغاروا على مبعوث حاكم اليمن في العشر الأول من محرم عام 717هـ/1317م. وصلت الحملة إلى ميناء عيذاب بعد خمسة عشر يوماً، وأقامت بها اثني عشر يوماً، ثم تحرّكت إلى سواكن، ووصلتها في اثني عشر يوماً. مكثت الحملة ستة أيام بسواكن، ثم خرجت لمطارة العربان.

- **وصف الحملة:**

ونلخِّص وصف النويري للحملة في الآتي: «فساروا سبعة عشر يوماً، وفي أثناء سيرها ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه في أودية هناك، فقتل العسكر منهم وسبى.. وانتهوا إلى وادي إيتريب في اليوم السابع عشر، وأقاموا يومين.. ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا.. فأقاموا يوماً واحداً، ثم توجهوا يتبعون آثار العربان، وهم يسيرون على شاطئ ذلك النهر ثلاثة أيام، والنهر على يمين العسكر. ثم فوَّزوا ودخلوا البرية إلى أرض التاكة، فانتهوا في اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كسلان [جبل كسلا].. في أرض صفراء.. كثيرة الأشجار من السنط، وأم غَيلان [شجر الطلح]، وشجر الإهليلَج، والأبنوس، والعقر، والحر، وهو الذي يطرح التمر هندي، إذ طلع عليهم غبار أمامهم فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كثير. فتقدم العسكر إليهم، وقد عبوا طلابهم ولبسوا لأمة حربهم».

ويواصل النويري: »واجتمع العسكر في أرض خالية من الأشجار، وهي من طرق السيل، وقد صارت مثل البركة، ولها فجة، فدخل العسكر فيها وتبعهم الأثقال، فسدت جمال أثقالهم تلك الفجة، وهلنكة من أعلى البركة، والعسكر أسفل منهم، وبأيدي هلنكة الحراب، والمزاريق والسيوف، ومع بعضهم النبل. فوقف العسكر، وأرسل إليهم «إنا لم نأتِ لقتالكم، وإنما جئنا في طلب طائفة من العرب أفسدوا وعصوا وقطعوا السبيل»، وأمنوهم. فردوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكر، ورموهم رشقاً واحداً بالسهام،

فقتل من هلنكة أربعمائة وستين نفراً، وجرح منهم خلق كثير. ولم يتمكن العسكر من أسرهم، فإنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر. وقتل منهم اثنان من ملوكهم، على ما حكاه من اجتمع بهم من غلمان العسكر. وكان سبب اجتماعهم بهم أنهم وسلامتهم منهم، أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا فلحقتهم كشافة هلنكة، فمسكوهم وأتوا بهم إلى أكابرهم، فسألوهم من أين أنتم؟ وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا: نحن تجار أغار علينا هذا العسكر ونهبونا، وأخذوا أموالنا وأسرونا، فلما قاتلتموهم هربنا منهم، فرقّوا إليهم وأطلقوهم».

ويواصل النويري: «ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة، تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم، فأخذ العسكر منها ما قدروا على حمله من الذرة، وليس لهم طعام غيرها، وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك في سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة. وعادوا حتى انتهوا إلى أربيباب، ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذي دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوقات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرة، فساروا على شاطئه عشرين يوماً، وكانت دوابهم ترعى من الحلف، ثم انتهوا إلى قبالة الأبواب».[1]

لاحظ أن اسم الجبل الصغير على نهر عطبرة كتب في المرة الأولى في النص (أزبينات)، وفي المرة الثانية (أربيباب)، والأبواب هي منطقة أبي حمد. وربما لوحظ أيضاً بعض المآخذ على النص، على سبيل المثال: عبرت الحملة كل أراضي البجة من الشمال إلى الجنوب في نحو ثلاثة أشهر، مرت خلالها بمناطق خوري بَرَكَة والقاش وضفاف نهر عطبرة، ولم يصادفه في كل هذا التجوال سوى بعض البجة ثم قبيلة الحلنقة، وهذا يتعارض مع ما وصفت به هذه المنطقة من وفرة الموارد المائية والنباتية، ووجود عدد كبير من القبائل، كما تعرّضنا إليها فيما سبق تحت عنوان قبائل الداخل.

كما لم يوضِّح النص العدد الكامل لأفراد الحملة، بل أشار فقط إلى عدد قوة الفرسان «نحو خمسمائة فارس»، وليس من المعقول أن تتوغّل حملة في كل تلك المناطق وقوامها نحو خمسمائة فارس، فلا بد أن يكون هنالك بعض القوات الأخرى إلى جانب الفرسان لم يُشِر إليها النص. وقد أشار المؤلف إلى انضمام بعض الأعراق للحملة عندما خرجت من سواكن.

[1]. النويري، نهاية الأرب، مرجع سابق، ص230-233 .

ويلاحظ أيضاً أنه ليس من المعقول أن يقتل من الحلنقة في يوم واحد 360 فرداً إلى جانب عددٍ من الجرحى بما فيهم اثنان من ملوكهم، ويحدث كل ذلك رشقاً بالسهام فقط. ولو حدث ذلك بالسلاح الناري لكان معقولاً، في الوقت الذي لم يذكر فيه أي قتلى أو جرحى من جنود الحملة. فإذا وضعنا في الاعتبار أن مؤلف الكتاب كان يتولّى وظيفة ناظر الجيش في حكومة المماليك، وهو منصب يمكّنه من معرفة كل ما يتعلّق بالحملات العسكرية، أدركنا أنه لم يكن مهتماً في كتابه بالأخبار الكاملة للحملة، بل أورد ملخصاً عاماً ركز اهتمامه فيه على ما يتّصل بأخبار الحملة فقط، دون الاهتمام بغيرها. ورغم ذلك يعتبر ما كتبه النويري من أقدم النصوص عن قبيلة الحلنقة.

- **ارتباط قبيلة الحلنقة بالتاكة وكسلا**

ارتبط اسم الحلنقة في هذا النص بأرض التاكة ومدينة كسلا، وتبدو بلاد التاكة في النص ممتدة بصورة كبيرة. فالحملة بعد أن غادرت نهر عطبرة، سارت في أرض التاكة ثلاثة أيام إلى أن وصلت جبل كسلان [المراد به كسلا]. وقد ورد أيضاً اسم كسلا في وثيقة عربية في الحبشة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، كما ذكر كراوفورد.

وربما ارتبط اسم كسلا بالأمير الحبشي **(الأمهري)** كاسا، الذي غادر بلاده لخلاف نشب بين أفراد أسرته، ووجد هذه المنطقة الخصبة فاستقر عليها. فكلمة (لا) في اللغة الأمهرية تعني الأرض الخصبة، فاندمجت كلمة **(لا)** مع اسم الأمير كاسا فأصبحت علماً على المكان (كاسا – لا)= كسلا.[1]

فكسلا إذاً كلمة غير عربية، فوجود الاسم سابق لدخول اللغة العربية في المنطقة. لذلك نستبعد بعض الروايات التي ربطت اسم كسلا بكلمة الكسل. وقد ظهر اسم كسلا قبل ذلك في الوثائق الأكسومية التي تعود إلى فترة ما بين القرنين السابع والثامن عشر الميلاديين، إذ ورد أن بعض جماعات من كسلا أغاروا على قبيلة الباريا. واسم مدينة كسلا قد يرجع إلى ما قبل القرن السابع الميلادي، أي قبل قرون كثيرة من عصر الحكم التركي الذي ربط به البعض ظهور اسم كسلا.

وكما ارتبط اسم الحلنقة بكسلا، ارتبط كذلك باسم التاكة، كما رود في النص. فالنص يوضّح أن كسلا تقع في أرض التاكة. وكلمة التاكة بجاوية الأصل تعني شجرة الدوم،

---

[1]. السر سيد أحمد العراقي، كسلا: التاريخ والحضارة، (د. ن)، الخرطوم، (د. ت)، ص 21.

وهي شجرة واضحة الوجود في المنطقة. وإلى جانب استخدام المصادر العربية لكلمة التاكة استخدمت أيضاً كلمة (دُجْن أو دُكْن) وتعني دلتا القاش. يقول ابن حوقل: «والنهر المعروف بالدُجْن يأتي من بلاد الحبشة فينقطع في أعمال دُجْن ومزارعها».□ ويصف دُجْن بأنها «أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل».□

والمقصود بالنيل هنا نهر القاش، فقد اتفق المؤرخون مثل كراوفورد□ ومصطفى محمد مسعد□ على أن دُجْن هي أرض التاكة. وقد نقل كراوفورد عن بوركهارت في القرن التاسع عشر أن سكّان منطقة دلتا القاش يطلقون على (دلتا القاش) بلاد التاكة. وأورد كراوفورد أيضاً أن الرحّالة الفارز في القرن السابع عشر ذكر أن نهر دُجن (القاش) يُسمّى التاكة، وأن كلمة تاكة تعني أو تصف المياه المنسابة في الدلتا.□ فقبيلة الحلنقة إذاً ارتبطت بكسلا والتاكة، أو بالدُجْن ونهر القاش.

وقد أدى موقع بلاد الحلنقة (التاكة) داخل المثلث الواقع بين وادي النيل، والبحر الأحمر، وبلاد الحبشة، إلى القيام بدور مهم في تاريخ المنطقة. فوفرة الموارد الزراعية والحيوانية والبحرية في المنطقة، وسهولة الاتصال مع أضلاع المثلث الثلاثة، أدّت إلى تطوُّر مؤسّسات السكّان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي يمكن ملاحظتها في ما توفّر من القليل من المعلومات عن سكّان المنطقة القدماء. فقد وردت الإشارات إلى سكّان منطقة التاكة في الآثار والمصادر القديمة والمصادر العربية المبكرة، كما رأينا عندما تحدّثنا عن سكّان قبائل البجة في الداخل.

فسكان التاكة القدماء، هم الذين أشارت إليهم الوثائق الأكسومية في القرن الرابع قبل الميلاد. فقد نقل كراوفورد عن روزيني وكارتير وبدج، أن منطقة التاكة ربما كانت موطناً للسكّان الذين ورد اسمهم في المصادر القديمة المتت m-tt-t أو m-t-t في القرن الرابع قبل الميلاد. وربط كراوفورد بين المتت والماثيتي Mathetae الذين ذكرهم بليني في القرن الأول الميلادي، ورأى كراوفورد أن اسمهم لا يزال يعيش في اسم محطة السكة حديد

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص74.

□. المرجع نفسه، ص71.

□. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar،op، p. 107.

□. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص70.

□. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op.

متتيب mitatib شمال أروما.[1]

فقبيلة الحلنقة تمثّل واحدة من أقدم السلالات في المنطقة، ربما يعود تراثها إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد. ولم أعثُر فيما اطلعت عليه من مصادر على اسم الحلنقة قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن ورد ما يوضِّح أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان، مما يشير إلى أن القبيلة ظلت موجودة في المنطقة.

ويبدو معقولاً أن تكون قبيلة الحلنقة هي التي قامت بالحملة التي خرجت من كسلا، وأغارت على قبيلة الباريا بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين، كما ورد في الوثائق الأكسومية. لأن قبيلة الخاسة هي القبيلة القوية التي كانت تحكم منطقة التاكة، ويظهر ذلك من وصول سفارة المماليك إلى صاحب التاكة، حيث قامت مملكة الحلنقة. وقد وضّح النص المتعلّق بحملة المماليك، أن المقاومة الوحيدة التى واجهتها حملة المماليك على أرض التاكة، أتت من قبيلة الحلنقة التي خاضت الحرب، وقُتل اثنان من ملوكها فى أرض المعركة.

- **مملكة قطعة جنوب بلاد البجة**

ولو رجعنا إلى ممالك البجة التي ذكرها اليعقوبي في القرن العاشر الميلادي، لأمكن ترجيح الربط بين مملكة قطعة وبين الحلنقة، خلافاً لما ذهب إليه كراوفورد بربط مملكة قطعة بقبيلة الخاسة، لأن مناطق قبيلة الخاسة في الشمال وحول سواكن، كما ذكرت المصادر العربية. فقد وضع اليعقوبي مملكة قطعة آخر ممالك البجة في الجنوب بجوار الحبشة، وهذا الموقع يتفق مع موقع مملكة الخاسة في بلاد التاكة جنوب بلاد البجة، ومجاورة للحبشة.

ووصف اليعقوبي مملكة قَطعة بأنها: «وهي آخر مملك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له باضع إلى موضع يقال له فيْكون، ولهم حد شديد وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب جلد مستعدون للحرب والقتال».[2]

ورغم أن اليعقوبي حدّد موقع المملكة ما بين باضع على الساحل وفيْكون التي ذكر كراوفورد أنه لم يتمكن من التعرُّف على موقعها، وقد يبدو هذا الموقع بعيداً بعض الشيء من دلتا القاش، حيث عاش شعب التاكة، إلا أن تحديد اليعقوبي ليس بالضرورة أن يكون

---

[1]. Ibid.

[2]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص23.

دقيقاً. فاليعقوبي في ذلك الوقت المبكر القرن (الـ10 الميلادي)، جمع رواياته من التجار، وربما لم تكن معلومات مخبريه دقيقة، فهي على كل حال معلومات رواة معرّضة لعدم الدقة.

ومن ناحية أخرى ربط أحمد المعتصم الشيخ بين اسمي الحلنقة والعنج، نلخّصه فيما يلي: ورد في تراث البجة أن القسم النوبي من الحلنقة كانوا دائماً يحملون سياطاً فأطلق عليهم عليهم الحبش (ألنجا) ويعني السوط في لغتهم، وكلمة (ألنجا) الأمهرية قد تكون هي كلمة أنج العربية نفسها التي أطلقوها على الشعب المعروف باسم (العنج)، وهو الاسم الذي اشتهر به السوط (سوط العنج). وافترض أحمد المعتصم الشيخ أن الحلنقة والعنج يمثلان كياناً واحداً.[1] وسنتعرَّض لهذا الموضوع عند الحديث عن سكان مملكة علوة الذين اشتهر ارتباط اسم العنج بهم.

أما ما ورد في تراث الحلنقة، وتناقلته المراجع العربية والأجنبية عن قبيلة هوازن العربية، وعبورها البحر الأحمر لبلاد البجة، فسنتناوله عندما نأتي للحديث عن السكّان بعد القرن الخامس عشر.

■ خاتمة

وفي نهاية استعراضنا لقبائل شرق السودان، يمكننا القول إن تلك القبائل انتشرت قبل دخول الإسلام في إفريقيا على مساحات واسعة بين الهضبة الإثيوبية جنوباً، وحتى الصحراء الشرقية في صعيد مصر شمالاً، ومن النيل شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً. وكان لبعضها وجود واضح ومؤثّر على مناطق نهر النيل ما بين حلفا جنوباً حتى الأقصر شمالاً. وكانوا حكاماً لبعض تلك المناطق. وقد عُرف أولئك السكّان في الحضارات القديمة، وعند الكتّاب اليونانيين والرومان بأسماء مختلفة لعل أشهرها الأسماء الثلاث التي تناولناها وهي: (المِجا أو المِجاباري، والترجلودايت، والبليميين).

ثم ظهر اسم البجة للدلالة على سكّان المنطقة في نقش عيزانا في القرن الرابع الميلادي، وساد استخدامه بعد ذلك في المصادر العربية، للدلالة على كل قبائل البجة التي تعرفوا عليها، والتي جاءت أسماؤها في كتاباتهم مختلفة عن أسماء قبائل البجة الحالية، فيما عدا القليل منها.

---

[1]. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، ص11.

الفصل الثالث

النوبا
سكان شمال ووسط وغرب السودان

- الصحراء الكبرى وتاريخ وادي النيل
- مؤسّسو الثقافات المبكِّرة ودولة كوش
- النوبا في مملكة مروي والواحة الخارجة
- تحرُّك النوبا من صحراء الواحة الخارجة
- من هم النوبا في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر؟
- إطلاق كلمتي نوبا ومريس ومراحل استخدامهما في المصادر العربية
- بلاد مريس: مملكة مريس، وصف بلاد مريس، وصف ابن سليم للمنطقة
- سكان السودان والأصل الحامي للشعوب في المصادر العربية

في دراستنا لقبائل السودان، قبل القرن الخامس عشر، تتبّعنا سكّان شرق السودان، وسنبدأ هنا بتناول تاريخ سكّان شمال السودان، ونبدأ بالنوبا التي سبق أن عرضنا بعضاً من تاريخهم قبل القرن السابع الميلادي في كتابنا (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية)،[1] والذي تناولنا فيه مقدمة لسكّان السودان قبل دخول العرب والإسلام. وسنبدأ بمقدّمة صغيرة عن تغيُّر المناخ، وظهور الصحراء الكبرى، وأثرها على تاريخ السودان، ثم نأتي بملخّصٍ عام، نلقي من خلاله المزيد من الضوء على ظهور المجموعات التي أطلق عليها اسم النوبا، قبل ظهور اسم النوبة بالتاء المربوطة، منذ القرن السابع الميلادي في المصادر العربية، ثم نتناول موضوع ظهور النوبا في اتفاقية المسلمين مع أهل مصر، كل ذلك بمثابة تمهيد لما سنتناوله في موضوعاتنا عن تاريخ النوبا وأرضها، وسكّان شمال السودان بعد القرن السابع الميلادي.

الصحراء الكبرى وتاريخ وادي النيل

كتب المفكر والمؤرخ السنغالي الشيخ أنتا ديوب، الذي تأسّست جامعة باسمه في الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن الماضي: «إن تاريخ إفريقيا السوداء سيبقى معلّقاً في الهواء، ولا يمكن كتابته بصورة صحيحة ما لم يتجرّأ المؤرخون بربطه بالتاريخ المصري»[2] يقصد ربطه بالتاريخ المصري القديم.

وأرى أن تاريخ السودان، والتاريخ المصري القديم، سيبقى معلّقاً في الهواء، ولا يمكن كتابته بصورة صحيحة ما لم يربطه المؤرخون بتاريخ الصحراء الكبرى. فالصحراء الكبرى

---

1. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاسي غرافيك، كوالالمبور، 2008م.

2. Cheikh Anta Diop، The African Origin of Civilization: Myth or Reality، . Chicago: Lorance Hill & Books، 1974.

أثّرت على تاريخ وادي النيل تأثيراً قويّاً منذ فجر تاريخه. وفهم ذلك الأثر يتطلّب منا الرجوع قليلاً إلى الوراء للتعرُّف على التغيُّرات المناخية وتأثيرها على طبيعة المنطقة.

يرى العلماء أن مناخ الكرة الأرضية كان في العصور المبكرة دائم التقلبات، وإذا رجعنا إلى نحو خمسة عشر ألف سنة نجد آثار تحوُّلات كبرى، وتعاقب فترات جفاف ورطوبة في مناخ الكرة الأرضية أدت -كما يقول علماء المناخ والجيولوجيا- إلى تغيُّرات كبيرة في المعدَّل السنوي لسقوط الأمطار، وفي معدَّل مناسيب المياه في البحار والأنهار، وفي الحياة الحيوانية والنباتية.

فعلى سبيل المثال يقول رشدي سيد: «كان حجم بحيرة تشاد أكبر اثنتي عشرة مرة من حجمها الحالي، وامتدت شمالاً حتى فزان، الأمر الذي أثّر كثيراً على المناخ، ونسبة الأمطار في المنطقة. وكانت هنالك أنهار دائمة الجريان، وبحيرات في جنوب ليبيا، والمناطق الواقعة إلى الشرق منها حتى جبل العوينات. كما كان إقليم السدود في جنوب السودان عبارة عن بحيرة تمتد شمالاً حتى منطقة الخرطوم الحالية».[]

وذكر وندورف وورلند أنه كانت هنالك بحيرة في مِرجا؛ غربي دنقلا، وفي نبتة بلايا غربي وادي حلفا، وكان وادي هوار نهراً دائم الجريان وGrassy valley، ومياهاً دائمة، وبرك ماء موسمية كما في واحات دنقل، والفرافرة، واللقية أربين، وسليمة وبير صحاري، وبير طرفاوي، ومنطقة جبل عوينات، والجرف الكبير، والواحة الخارجة.[] وكان معدّل سقوط الأمطار في شمال ووسط السودان، كما ذكر آركل، أعلى من معدّل هبوطه في صعيد مصر، وبلغ منسوب فيضان النيل الأزرق في تلك الأوقات ما بين أربع إلى عشر مرات أعلى من منسوبه الحالي.[]

وهكذا كانت منطقة الصحراء الكبرى مأهولة بالسكّان، وتتمتّع بكميات غزيرة من الأمطار، وكانت بها بحيرات وأنهار دائمة الجريان، وغابات وغطاء نباتي غزير. جاء

[] Said، Rushdi and Faure، H.، «Chronological Framework: African Pluvial and Glacial Epochs.| In J. Ki-Zerbo (ed)، General History of Africa I: Methodology and African Prehistory، 1981، P385-386.

[] Fred Wendorf، R. Shcild (1994) «Are the early Holocene cattle in the western Sahara domestic or wild» Journal of Anthropological Archeology، 3 No. 4.

[] A. J. Arkell، History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press، 1961، p.25-32.

في دائرة المعارف البريطانية تحت مدخل Sahara أن الرسومات الصخرية، والأدوات الحجرية، والفخارية، والعظمية المنتشرة على طول الصحراء الكبرى، توضِّح أنها كانت مأهولة بالسكّان. كما أثبت علماء الجيولوجيا والآثار وجود أنواع كثيرة من الحيوانات في كل المنطقة، مثل، الظباء، والجواميس، والزراف، والأفيال، ووحيد القرن، وفرس البحر، والتماسيح.

وقد تعرّضت هذه المنطقة إلى التقلُّبات المناخية التي حدثت منذ نحو اثني عشر ألف سنة مضت، وهو التغيُّر الذي أدى في نهايته إلى تكوين كل من الصحراء الكبرى، وصحراء شبه الجزيرة العربية. ولعبت تلك التقلُّبات دوراً بارزاً في تحرُّكات واستقرار المجتمعات البشرية. ولم يبرز أثر ذلك الجفاف ويؤثِّر تأثيراً محسوساً على تحرُّكات سكّان المنطقتين منذ البداية، بل بدأ ذلك منذ نحو سبعة آلاف سنة مضت، وهو الوقت الذي بدأت فيه تحرُّكات السكّان من منطقة الصحراء الحالية جنوباً، نحو أحواض نهر السنغال، ونهر النيجر، وبحيرة تشاد، وشمالاً نحو سواحل البحر المتوسط، وشرقاً نحو وادي النيل. وأدَّت تلك التحرُّكات إلى ظهور ثقافات تلك المناطق، والتي قادت فيما بعد لقيام حضارات وادي النيل وشمال إفريقيا.

وتاريخ السودان في كل مراحله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمناطق الصحراوية الواقعة إلى الغرب من النيل. وفي حديث مع الدكتور علي أحمد قسم السيد[] عن ارتباط تاريخ السودان بالمناطق الصحراوية، خلصنا إلى أن الصِلات والتداخل السكّاني بين سكّان وادي النيل والصحراء الغربية، لم يكن في كل الأوقات من جانب واحد، بل حدث في حوالي عام 2613 قبل الميلاد. واضطر سكّان منطقة ما بين الشلالين الأول والثاني تحت تهديد الحملات المصرية إلى الهجرة نحو الصحراء الغربية بمواشيهم، واستقر أسلافهم هناك لمئات السنين.

فمنذ عصور الثقافات المبكرة في منطقة الشهيناب بشمال أم درمان، وثقافات المجموعة (أ) (Group A) والمجموعة الثقافية (ج) (Group C) في شمال السودان، وما تلاها من حضارات كانت تلك المناطق تتعرَّض من وقت لآخر لهجرات من المنطقة الغربية للنيل، تساعد على ظهور طور حضاري جديد في المنطقة، كما سنلاحظ ذلك عند حديثنا عن سكّان شمال السودان.

[]. علي أحمد قسم السيد، أستاذ التاريخ القديم بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.

مؤسسو الثقافات المبكرة ودولة كوش

المقصود بسكان شمال السودان، هنا سكان المنطقة الواقعة بين موقع مدينة الخرطوم الحالي جنوباً، وحتى منطقة الشلال الأول بالقرب من مدينة أسوان شمالاً، لأن منطقة ما بين حلفا وأسوان كانت تنتمي عبر العصور إلى عنصر بشري واحد، هو العنصر الذي يرى فيه بعض المؤرخين، مثل، سليم حسن، أن أولئك السكان القدماء ينتمون إلى العنصر الحامي،[1] بينما يرى آخرون -كما ذكر وليام آدمز- أن سكان هذه المنطقة القدماء ينتمون إلى سلالة شعوب شمال إفريقية المطلّة على البحر المتوسط.

وذكر آدمز أن سكان شمال السودان في ذلك الوقت «كان لهم لون البشرة الداكن نفسه مثل الأفارقة اليوم، إذ إن ذلك يعتبر بصورة عامة تلاؤماً شائعاً لأقوام المنطقة الحارة».[2] ومن المعروف أن سواد لون البشرة يرجع في أساسه إلى المادة السوداء الموجودة تحت الجلد (Melanin pigment)والتي يفرزها جسم الإنسان عندما يتعرض لأشعة الشمس، حماية له من حرارتها. ويزداد إفراز هذه المادة السوداء كلما ازدادت حرارة أشعة الشمس، ويقل إفرازها كلما قلّت حرارة أشعتها. لذلك تصير ألوان أجسام من يتعرّضون إلى أشعة الشمس الحارة في المناطق الاستوائية والمدارية سوداء، ويقل سواد البشرة كلما ابتعد الإنسان شمالاً، حتى يصبح لون الجسم أبيض حيث تعتدل حرارة الشمس.

وقد وردت بعض أخبار أولئك السكان القدماء في الآثار المصرية القديمة، وبخاصة في الألف الثالثة قبل الميلاد، فقد أرسل بعض حكام مصر في ذلك الوقت بعثات تجارية نحو الجنوب، فدوَّن قادة تلك البعثات -مثل حرخوف- أسماء سكان بعض تلك المناطق. فأطلقوا اسم نحسيو أو نحسي على السكان المنطق الواقعة إلى الجنوب من بلادهم، واسم التِمح أو التِمْحو وإرتت على سكان المناطق الواقعة إلى الغرب من النيل. ويرى آركل أن السكان الذين تحدّث عنهم حرخوف غربي النيل ربما ما تزال سلالاتهم تعيش حتى اليوم في شمال دارفور، فقد يكون الأرتي Urti في منطقة جبل ميدوب هم بقايا الإرتت، وقد يكون التاما في شمال غرب دارفور هم بقايا التمح، فروايات التامة الشعبية تذكر أنهم كانوا يعيشون في منطقة بئر النطرون، والتي هي الآن عبارة عن صحراء قاحلة.[3]

---

[1]. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت)، ص 1.

[2]. William Adams، The Nuba Road to Africa، p.122.

[3]. Arkell، History of the Sudan، op، p.172.

ظل هذا العنصر السكاني القديم، والمعروف في كتب التاريخ بثقافة المجموعة الأولى (أ)، يعيش في المنطقة حتى نحو القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، حيث تعرّض لوصول مجموعة مهاجرة، يرى أغلب المؤرخين، أنها أتت من المناطق الواقعة غربي النيل. وقد تحرّكت تلك الهجرات بفعل تغيُّر المناخ في المنطقة التي أصبحت اليوم الصحراء الكبرى، وبدأت آثاره في قلة موارد المياه والغطاء النباتي، فازدادت التحركات السكانية متجهة نحو النيل.[1]

ويرى المورخون أن هؤلاء الوافدين المعروفين بالمجموعة الثقافية ج (Group C)، ينتمون إلى سلالة المجموعة الثقافية (أ) نفسها المستقرة على النيل، لكنه يقول إن دراسة آثار هذه المجموعة وضّحت اختلاطهم ببعض الزنوج.[2] وأرى أنه ينبغي أن نوضّح هنا أن أغلب الكُتّاب الغربيين عندما يطلقون كلمة الزنوج، يقصدون بها السود. ولذلك عُرف كل سكان الصحراء الكبرى، بما فيهم السودانيون بـEthiopians أي السود، وهو الاسم نفسه الذي عرَّبته المصادر العربية وأطلقته على سكان المنطقة، وهو السودان (جمع أسود). وبالطبع ليس كل السود زنوجاً، بل الغالبية العظمى من السود ليسوا زنوجاً.

فسكان جمهورية جنوب السودان، ليسوا زنوجاً، فهم في تصنيف علماء الأجناس شعوب نيلية، وهي خليط بين العنصرين الزنجي والحامي. والزنوج يوجدون في قليل من المواضع في إفريقيا مثل بعض الأماكن في الغابات الاستوائية. ويشترك الزنوج في بعض السمات التي تميِّزهم عن السود الآخرين. لذلك يوجد عدد كبير من الشعوب السوداء في القارة الإفريقية، مثل سكان جمهورية السودان ليسوا زنوجاً. فهنالك خطأ كبير مُسَلّم به، وهو أن الزنوج فقط هم سكان إفريقيا الأصليون، وأن ما عداهم غرباء في القارة، والواقع أن السود من غير الزنوج، هم سكان أصليون في إفريقيا، بل يمثّلون الغالبية العظمى من سكانها.

فالوافدون الجدد من مناطق الصحراء غربي النيل، ذوو بشرة سمراء مثل السكان الذين نزلوا عليهم. ويذكر المؤرخون -كما نقل آركل- أنهم كانوا رعاة بقر (بقارة)، وتحرّكوا بأبقارهم ذات القرون الكبيرة نحو النيل، إذ إن مناطقهم أصبحت غير صالحة لرعي البقر. ويبدو أن مجموعة منهم تحرّكت جنوباً نحو أواسط وغرب دارفور، لأن هيرودوتس،

---

[1]. المصدر السابق، ص 44

[2]. المصدر نفسه، ص 46-52.

المؤرخ اليوناني الذي كتب بعد قرون كثيرة من تلك الهجرات عن قبائل البقارة جنوبي ليبيا، ذكر أن أبقارهم ذات قرون كبيرة ممتدة للأمام، ولذلك ترعى وتتحرك نحو الخلف، لأنها لو تحرّكت إلى الأمام لغرست قرونها في الأرض. وبالطبع فإن هيرودوتس لم يزُر تلك المناطق، ولكنه جمع الروايات عنها، بما يمكن أن يكون فيها بعض المبالغات. وربما ما تزال سلالة أبقار (المجموعة ج) وسلالات الأبقار التي ذكرها هيرودوتس موجودة حتى الآن عند قبائل البقارة في غرب السودان.

فالتداخل بين سكان وادي النيل السوداني، وسكان غرب السودان يعود إلى قرون كثيرة قبل ميلاد المسيح، وآثار الحضارات المتعاقبة التي توجد أطلالها على النيل اليوم، قامت نتيجة ذلك التلاقح السكاني بين الشعوب المستقرّة على النيل وروافده، وسكان المناطق المتصلة بالنيل، وبخاصة المناطق الغربية.

ويبدو أن أعداد الوافدين الجدد (المجموعة ج) إلى النيل كانت كبيرة، فلم يتركوا آثارهم على مناطق النيل فقط، بل امتدت تلك الآثار إلى مناطق شرق السودان، حيث أثبتت الحفريات الآثارية للمقابر القديمة في شرق السودان، كما ذكر آركل، أن السكان هنالك ينتمون إلى سلالة المجموعة (ج) نفسها، وأضاف آركل: «إن البديَّات، والميدوب، ونوبا الجبال، والبجة الذين هم سلالة المِجا أو الـMedju أو Mejayw ميجايو، كل هؤلاء هم سلالة ذلك الجنس الأسمر نفسه الذي كان مستقراً في الصحراء غربي النيل».[1]

كل هذه المجموعات التي استقرت في شمال السودان، إلى جانب مجموعات أخرى في الوسط والشرق، أسست فيما بعد دولة كوش في كرمة، بعد أن استقبلت المنطقة تحرُّكات سكانية من الغرب والجنوب الغربي. وقد امتدت حدود دولة كوش شمالاً حتى أسوان، كما وضَّح محمد إبراهيم بكر.[2]

وقد شهِدت الفترة التالية لانهيار دولة كوش في كرمة، واحتلال مصر لشمال السودان منذ منصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، صراعاً متصلاً بين سكان شمال السودان والمصريين. ويبدو أن المنطقة كانت تستقبل المزيد من المهاجرين من الغرب والجنوب الغربي، مع ازدياد مراحل الجفاف في الصحراء. وقد أدّت المزيد من الهجرات إلى ازدياد تحركات السكان شمالاً، وازدياد الصراع مع المصريين الذين دأبوا على تحصين المناطق

---

[1]. المصدر نفسه.

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 52.

الجنوبية من حدودهم، وإقامة القلاع للدفاع عنها.

وفي بداية الألف الأخيرة قبل الميلاد تمكّن الكوشيون من استعادة سلطتهم السياسية على المنطقة بقيام مملكة نبتة. ويلاحظ أن الباحثين اختلفوا في أصل الأسرة النبتية، وقد ذهب أحد الآراء إلى الأصل الليبي للأسرة، أي أن مؤسسي الأسرة قدموا من ليبيا.

والمقصود بليبيا هنا منطقة الصحراء الغربية. فقد أطلقت المصادر اليونانية القديمة على هذه المناطق الصحراوية اسم (الصحراء الليبية). استند أصحاب هذا الرأي على التشابه الذي لاحظوه في بعض أنواع الأسلحة والأسماء بين الكوشيين، وسكان الصحراء الغربية. وبالطبع فإن ذلك التشابه أمر طبيعي للتداخل والصِلات القوية والدائمة بين المنطقتين. لكن أصل الأسرة محلي وليست ليبية، لكنها ترتبط بصِلات عرقية وثقافية بسكان الصحراء الغربية. كما أن أصل الأسرة ليس مصرياً، كما يقول البعض، لكنها ترتبط مع المصريين بعبادة آمون، الذي يرى بعض الباحثين أن أصله صحراوي أو كوشي، وليس مصرياً.

فسكان المناطق الواقعة بين جنوب ليبيا غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، ودارفور جنوباً كانوا ينتمون إلى سلالة وثقافة واحدة، وقد تأثّروا عرقياً وثقافياً بالهجرات المتصلة من المناطق الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربي، وهي مناطق دارفور وكردفان الحاليتين، وامتدادهما شمالاً وغرباً. وقد استمر هذا التمازج بين المنطقتين حتى القرون الأخيرة السابقة للميلاد، حيث أشارت المصادر اليونانية والأكسومية (الحبشية) إلى تأثيره على مملكة مروي.

وهكذا يتبيَّن لنا أن الأثر الواضح، على التكوين السكاني في السودان، جاء من ناحية الصحراء الغربية للنيل، نتيجة طبيعية للعلاقة بين المناطق الخصبة ذات الموارد المائية الدائمة، وبين المناطق الجدبة قليلة الموارد، تماماً مثل علاقة صحراء شبه الجزيرة العربية بتاريخ بلاد ما بين النهرين القديم. فالتحرُّكات السكانية حدثت على مرِّ العصور بين الصحراء والنيل، ولم يقتصر تأثيرها على مناطق النيل وروافده فحسب، بل تعدّى ذلك إلى مناطق الشرق، كما رأينا في مثال آثار المجموعة (ج). ولذلك فإنني أرى أن البحث عن تاريخ السودان، على الأقل حتى نهاية العصر المروي، ينبغي أن يتّجه غرباً وليس شرقاً، كما يتردّد في التراث والرويات الشفاهية المحلية في السودان.

النوبا في مملكة مروي والواحة الخارجة

يرى المؤرخون أن بداية العصر المسيحي شهدت تحركات جديدة من منطقة الصحراء الغربية، ربما أتت من مناطق كردفان ودارفور، وانتشرت على طول أراضي مملكة مروي. وقد عرف أولئك المهاجرون في المصادر اليونانية والأكسومية (الحبشية) باسم النوبا. وتناول توروك تلك التحرّكات واجتياحها واستقرارها على أراضى مملكة مروي، وكيف أدى ذلك إلى إضعاف المملكة وتقلّص حدودها إلى مناطق محدودة على نهر النيل شمالي الخرطوم.

يقول توروك: «يمكن تصوُّر أن تكون مجموعات نوباوية بحلول القرنين الأول والثاني الميلاديين قد استقرت في داخل حدود مملكة مروي. ووجود تلك المجموعات قد يكون ولّد عمليات اجتماعية وثقافية قادت بطريقة ما -وهو ما نعرفه في حالات معاصرة أخرى- إلى تفكُّك مملكة مروي، والنتيجة النهائية يمكن أن تكون مثل حالات مماثلة لا حصر لها في الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية؛ استمرارية سياسية تم الاحتفاظ بها عن طريق المصاهرة بين الأسرة القديمة، وزعماء القبائل الجديدة الوافدة التي استقرت في المملكة».

وهكذا يشبه توروك -وهو باحث مرموق في تاريخ تلك الحقبة- اجتياح قبائل النوبا لمملكة مروي، باجتياح القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية الغربية، وكيف أدّت في النهاية إلى تفتُّت الإمبراطورية من الداخل. والجزء الأخر المهم فيما أورده توروك، أن جماعات النوبة المهاجرين قد أسّسوا مملكة علوة، التي خلفت مملكة مروي في المناطق الوسطى من حدودها. ويلاحظ ظهور اسم النوبا في المصادر اليونانية والأكسومية، وارتباطه بالمهاجرين الجدد والمستوطنين القدامى.

وقد تتبّع الباحثون ما ورد في تلك المصادر عن تحرّكات أولئك المهاجرين، ودرسوا أصولهم، وأماكن استقرارهم، وما ترتب عليه من نتائج. وتوصّلوا إلى أن أولئك المهاجرين لا يختلفون كثيراً عن سكان المناطق التي استقروا عليها على طول النيل وشرقيه، وذكروا أن لونهم يميل إلى السواد أكثر من الشعوب التي استقروا بينها. فهم -كما يرى ماكمايكل- سلالة الشعب نفسه الذي هزمهم سيزستريس الثالث، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد في منطقة وادي حلفا، والذي جعل سمنة التي تقع على بعد 35 ميلاً شمال منطقة مدينة حلفا حداً فاصلاً يُمنَعون من تخطّيه شمالاً.

. توروك، «تاريخ ما بعد مروي وأركيولوجيته»، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة (أركاماني) الإلكترونية، العدد السادس، 2005م، ص2.

وهم سلالة سكان منطقة الجزيرة الحالية القدماء نفسها، الذين وجدت بعض آثارهم في منطقة جبل مويا غرب مدينة سنار، وذكر ماكمايكل أن الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية التي قام بها كل من Derry وSeligman وضّحت أن سلالة سكان منطقة النيل في الشمال حتى وادي حلفا، والذين وجدت صورهم في الآثار المصرية منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والذين كونوا سكان المنطقة في العصور اللاحقة، هم سلالة السكان أنفسهم الذين وجدت آثارهم في جبل مويا بمنطقة الجزيرة الحالية في القرن الثاني قبل الميلاد.[1]

وبناءً عليه فإن السلالة التي كوّنت المجتمع السوداني في الشمال، ومناطق الجزيرة، والبطانة قبل العصر المسيحي، هي السلالة نفسها التي ظهرت في الآثار المصرية منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد درس العالمان Derry وSeligman مُخلّفات بعض أولئك الشعوب، فأظهرت نتائج الدراسات المعملية لأحجامهم، وجماجمهم، وفكوكهم (جمع فك)، أن أولئك السكان القدماء يشبهون بدرجة كبيرة سكان جبال النوبا الحاليين، مما يشير إلى صلة القرابة بين السلالتين. فسكان السودان القدماء في الشمال، والوسط، والغرب، هم من السلالة نفسها التي تعيش اليوم في جبال النوبا، كما قرّر ذلك الباحثان.

ومما يزيد هذا الرأي قبولاً، الآثار التي وجدت في معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، والتي ترجع إلى نهاية الألف السادسة عشرة قبل الميلاد. فقد ظهرت أشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم الـ Irm وNimiu يقدمون الذهب للملكة. وقد رأى ماكمايكل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكونا Nimiu أسلاف الـNyima الحاليين في جبال النوبة، والـIrm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد بأرض Irm والتي تقع في منطقة الإستبس الواقعة غربي النيل الأبيض، والمعروفة اليوم بكردفان، حيث ما يزال بعض فروع الميما يعرف بـArmi.

ويبدو مما جاء في الآثار المصرية أن المناطق الواقعة في السودان الأوسط والغربي، كانت مأهولة بالسكان. فالرحلات التي قام بها حرخوف في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد عبر الصحراء غربي النيل، والتي ربما وصلت -كما يرى ماكمايكل- إلى مناطق كردفان

[1] Harold Alfred Macmichael، A History of the Arabs in the Sudan، London: Frank Cass & Co. Ltd، 1967، vol. 1، p.20.

ودارفور□، والحملات العسكرية التي دخلت شمال السودان منذ مطلع القرن العشرين قبل الميلاد، كما يقول محمد إبراهيم بكر، تشير إلى عدد كبير من المناطق المأهولة بالسكان.□ فقد ورد في إحدى حملات سنوسرت الأول، نحو منتصف القرن العشرين قبل الميلاد، أسماء عشر مناطق أولاها منطقة كوش. وورد في أثر آخر أسماء اثنتين وعشرين منطقة.

وكما ذكرنا فإن المصادر اليونانية أطلقت اسم الإثيوبيين بصورة عامة على كل سكان السودان، كما أطلقت اسم النوبا بدرجة أقل شمولاً على السكان. وقد ورد أول ذكر لكلمة النوبا، كما يرى المؤرخون، عند إيراتوستين Eratosthene (276ق.م – 194ق.م)، والذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية. وعنه نقل سترابو Strabo (64ق.م -24م). وقد تمكّن إراتوستين، بحكم وظيفته، من الاطلاع على المؤلّفات السابقة له، والتي كتبت عن مروي والمناطق الواقعة جنوبي مصر، مثل كتابات داليون وسيمونيد، والذي يقال إنه زار مروي، ومكث فيها عدة سنوات. لذلك يمكن اعتبار ما كتبه إيراتوستين عن الأوضاع في السودان راجعاً إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وصلت إلينا كتاباته عبر ما نقل عنها كما فعل سترابو.□

يقول إيراتوستين: «ويسكن النوبا الضفة اليسرى من النيل في ليبيا، وهم قبيلة كبيرة تمتد من مروي وحتى انحناءة النيل. وليسوا تحت حكم المروية Ethiopians، بل ينقسمون إلى ممالك مستقلة متعدِّدة».□ وكتب إيراتوستين اسم النوبا هكذا Noûβoι وهو الرسم نفسه عند بطلميوس، والذي نقله أجاثارس باللاتيني Nubei. وجاءت الإشارة إلى جماعات النوبا قبل القرن الثالث الميلادي في المؤلفات المكتوب باللغة الإنجليزية، كما في ترجمة كتب الجغرافيا لسترابو، والتي أخذت عن إيراتوستين هكذا Nubae، واستخدم بعضها الآخر الرسم اللاتينيNubei ، وجاء رسم الكلمة في ترجمة نص عيزانا Noba.

وقد أطلق الكتّاب اليونانيون اسم ليبيا على كل المناطق الواقعة غربي نهر النيل حتى المحيط الأطلسي. وفي الواقع فإن ليبيا في مفهومهم كانت تعني إفريقيا. وبناءً على ذلك فإن قبائل غربي نهر النيل (النوبا) كانت في القرن الثالث قبل الميلاد منتشرة في المناطق المعروفة

□. Ibid، vol. 1، p.17.

□. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مرجع سابق، ص 45-48.

□. (Strabo، Geography Book xvii، p 7، (online.

□. Ibid.

حالياً بـ(كردفان، ودارفور، والصحراء الواقعة جنوب الواحة الخارجة). وقد خرجت هذه القبائل عن طاعة مملكة مروي، وكوّنت وحدات إدارية مستقلة عنها. ولعل خروج تلك القبائل حدث بالتدريج، حيث تكاثرت أعدادها، وربما تمكّنوا من وضع يدهم على مسالك التجارة التقليدية بين مصر ومناطق الجنوب عبر الواحة الخارجة، والواحات الواقعة جنوبيها. وهذا الطريق هو ما عرف في العصور اللاحقة بـ(درب الأربعين). وحرمت تلك القبائل دولة مروي واحداً من أهم مواردها التجارية مما ساهم في ضعفها.

وحافظت قبائل النوبا على مواقعها واستقلالها من مروي في المناطق الواقعة غربي النيل. فعندما دخل سترابو أسوان عام 24 قبل الميلاد، لم يغيِّر ما كتبه إيراتوستين عنهم. بل وتأكد ذلك عند الكُتَّاب اللاحقين أيضاً، مثل بطليموس في القرن الثاني الميلادي، فقد ذكر أركل عن بطليموس أن «النوبا Nubei يسكنون الساحل الغربي للنيل والأراضي الداخلية».[1] ويعتقد أركل أن ارتباط النوبا بغربيّ النيل يرجِّح أن موطنهم الأصلي امتد من كردفان جنوباً وحتى مناطق غربيِّ وادي حلفا شمالاً.

وكانت كردفان كذلك مرتبطة ارتباطاً قوياً بالنيل شمالاً عبر وادي المقدم والملك، اللذين يجريان من شمال كردفان، ويصبان في النيل في منطقتي كورتي والدبة على التوالي. ولم يكن الواديان طرقاً للاتصال فقط، بل كانا مأهولين بالسكان، الأمر الذي يوضِّح الصلات السكانية الدائمة بين مروي وكردفان.

ويرجح أركل أن التشابه بين لغة النوبة الحالية في شمال السودان، وبين لغات الكثير من سكان شمال كردفان، يرجع إلى تلك الصلات. ويرى أن مملكة مروي عندما سقطت في الشمال، ظلت قائمة في كردفان ودارفور. واستدل بأن اسم كوش الذي لم يعد مستخدماً في الشمال بعد سقوط مروي، ظل حياً بين سكان كردفان ودارفور، كما في مناطق جبل ميدوب شمال كرفان، والكاجار، أو البرقد، في وسط دارفور.

ويبدو انتشار جماعات النوبا الواسع في مملكة مروي واضحاً فيما ورد في لوحة عيزانا ملك آكسوم (الحبشة)، والتي دوَّن فيها انتصاراته على دولة مروي. وفيما يلي ترجمة لنص عيزانا من كتاب أركل الذي نقله عن كيروان. وسأكتب بعض الأسماء بالإنجليزية، كما جاءت في ترجمة النص، للمحافظة على طريقة نطقها، بما في ذلك كلمة النوبا، وما كُتِب خلال النص بين قوسين معقوفين [ ] ليس جزءاً منه، بل شرح للكلمة المكتوبة قبل القوسين.

[1]. Arkell، History of the Sudan، op، p.178.

نقش عيزانا

«أنا ملك الملوك عيزانا ابن Ella' وAmida' مواطن Halen ملك أكسوم وحمير وريدان وSaha وSalhen وSeyamo والبجة وKasu [كوش]. حاربت النوبا [Noba] لأنهم ثاروا وتباهوا بذلك، وقالوا إن الأكسوميين لن يعبروا نهر تكازي [نهر عطبرة]، ولأنهم كرّروا الهجوم على Mangurto والخاسا، والباري [منطقة كسلا الحالية]، وعلى السود [قصد بهم سكان جزيرة مروي الوسطى]، والحمر [قصد بهم سكان شمال مروي]. لقد حنث النوبا عن قسمهم مرتين وثلاثاً، وقتلوا جيرانهم دون رحمة، وهاجموا المبعوثين الذين أرسلتهم للتحقيق معهم بخصوص غاراتهم، وسرقوهم، وجرّدوهم من ممتلكاتهم. وقد حذّرتهم، لكنهم رفضوا الانصياع وتَرْك أعمالهم الشريرة، وتهيّأوا للحرب. فحاربتهم على نهر تكازي عند مخاضة Kemalke فلم يصمدوا وفروا، وطاردتهم 23 يوماً، قتلت بعضهم، وأسرت بعضهم الأخر، وأحرقت مدنهم المشيدة بالقصب، والمشيّدة بالطوب، وأخذت طعامهم ونحاسهم، وحديدهم، وحطّمت التماثيل في معابدهم، وخرّبت مخازنهم، وقُطْنهم، وألقيت بكل ذلك في [Seda النيل]. ثم أتيت إلى Kasu وخضت معركة، وأخذت أسرى عند التقاء نهري تكازي وسيدا. وفي اليوم التالي أرسلت جيش Damawa و Palha وSera للإغارة على القطر، والمدن المشيّدة بالطوب والقصب؛ المدن المشيّدة بالطوب هي مدن علوة وDaro [ربما الكدرو الحالية]. ثم بعد ذلك أرسلت جيش Halen وLaken في مجرى سيدا الأدنى لمحاربة المدن الأربع المشيدة بالقصب.. والمدن المشيدة بالطوب، والتي أخذها النوبا وهي Tabito وFertoti ووصل جيشي إلى حدود النوبا الحمر وهزموهم بعون الإله، ورجعوا بسلام، وعيّنت حاكماً على ذلك القطر عند ملتقى نهر سيدا وتكازي»[62].

.62-Ibid، p.122; L. P. Kerwan: A Survey on Nubian Origin»، S.N.R. XX 1937 p.47 .

يوضِّح النص أن كل حروب عيزانا كانت موجهة ضد النوبا. وقد سبقت هذه الحرب اتصالات ومراسلات تعدّى فيها النوبا على رُسُل عيزانا، وحنثوا أيمانهم ونكثوا عهودهم، وتمادوا واستعدّوا للحرب، كما وضّح النص. خاض عيزانا حروبه ضد النوبا على نهر عطبرة، وعلى المناطق النيلية شمال وجنوب نهر عطبرة. كما حارب النوبا في منطقة البطانة، والجزيرة، وعلوة وجنوبيّها وشماليّها. وهو في ذلك كله يخاطب النوبا، سواء أشار إلى الوافدين الجدد، أو إلى السكان المحليين.

فالنوبا، في نقش عيزانا، هم الثوار الذين هدّدوا أكسوم على حدودها الغربية بغاراتهم المتكرّرة على سكان مناطق القاش، ونهر عطبرة. والنوبا هم سكان جزيرة مروي، الذين وصفهم عيزانا بالنوبا السود. فالنوبا هم كل سكان منطقة الجزيرة ما بين النيلين الأبيض والأزرق، ومنطقة البطانة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة. والنوبا أيضا في النقش هم سكان الشمال الذين وصفهم عيزانا بالنوبا الحمر، فهم سكان نهر النيل شمالي نهر عطبرة وحتى حدود السودان الشمالية.

النوبا في نقش عيزانا هم: أصحاب المدن المشيّدة بالطوب والمشيّدة بالقصب، «وأحرقت مدنهم المشيّدة بالقصب، والمشيّدة بالطوب». وهم أصحاب المزارع، والنحاس، والحديد، والمعابد، والتماثيل، «وأخذت طعامهم ونحاسهم وحديدهم، وحطّمت التماثيل في معابدهم وخرّبت مخازنهم وقطنهم». وبناءً على ذلك، وكما ورد في المصادر القديمة، فـ(النوبا) هو الاسم الذي أطلق على سكان الوسط والشمال، وهو الهوية التي عرف بها جميع أولئك السكان.

ويبدو مفهوم وإطلاق اسم النوبا على كل السكان واضحاً أيضاً حتى بعد سقوط مملكة أكسوم بزمن طويل. فقد جاء في كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الحبشة في القرن الخامس عشر الميلادي، كما ورد عند Crawford أن Nubi هي بلاد المملكتين المسيحيتين اللتين قضى عليهما الفونج. وأن حدود مملكة علوة الجنوبية تمتد حتىAgaua جنوبي بحيرة تانا وDembian شماليها، وأن في إقليم النوبا خمسة أنهر تأتي من الجنوب، والجنوب الشرقي، والجنوب الغربي، قصد بها نهر عطبرة، والنيل الأزرق وفرعيه، والنيل الأبيض.[]

[]. Crawford، (ed)، Ethiopian Itineraries Circa 1400-1520، Cambridge: University Press، 1955، p. 104-111.

وهكذا يتضح أن شعب النوبا الذي هاجر من المناطق الصحراوية الغربية، واستقر في أراضي مملكة مروي في القرون السابقة لانهيارها في القرن الرابع الميلادي، لم يكن مختلفاً عن الشعوب التي استقر بينها، فكلتا المجموعتين؛ المهاجرة حديثاً والمستقرة من قبل، يرجعان إلى السلالة نفسها التي عرفت بأسماء كثيرة (الكوشيون، والإثيوبيون، والنوبا).

تحرُّك النوبا من صحراء الواحة الخارجة

وهنالك تحرُّك سكاني، آخر من الصحراء الغربية نحو النيل جنوبي أسوان، حدث هذا التحرّك بتشجيع من الرومان الذين خاضوا صراعات دائمة على حدودهم الجنوبية مع القبائل الصحراوية المشهورة باسم البربر. واستخدم الرومان الجمل لقطع الصحراء الكبرى في مطاردة تلك القبائل، غير أن قبائل الصحراء أخذت عنهم استخدام الجمل، وبدأ يحلّ محل الحصان في الصحراء التي كانت حتى ذلك الوقت صالحة لاستخدامه، كما توضح رسومات الخيل الواسعة الانتشار في الصحراء. وأصبح الجمل وسيلة المواصلات الأولى في الصحراء، واستخدمته القبائل للهجوم على الرومان.

وكان الرومان في مصر، في القرن الثالث الميلادي، إلى جانب مواجهتهم خطر القبائل الصحراوية على حدودهم الجنوبية في مناطق الواحات المصرية، كذلك كانوا يواجهون خطر البليميين (البجة) على حدودهم جنوبي أسوان، حيث قام الرومان بتوجيه عدة حملات ضدهم. وللحد من خطر البليميين فكّر الرومان في الاستعانة بإحدى القبائل الصحرواية المجاورة، والتي كانت تهدِّد حدودهم في مناطق الواحات، فقدَّموا لها عرضاً سخياً وهو السماح لهم بالاستقرار على النيل في منطقة الحدود الرومانية في جنوب مصر، كي يكونوا حاجزاً بينهم وبين البليميين من جانب، ويتخلّصوا من شر غاراتهم بعد الاستقرار على النيل من جانب آخر، فيضربون عصفورين بحجر واحد.

وبالطبع وافقت القبيلة الصحراوية بهذا العرض. وذكر المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (ت 565م)، كما ورد عند كل من ماكمايكل[] وآركل[] أن الاتفاق تم بين الرومان في عام 297م للقدوم من الواحة الخارجة X وقبيلة النوباتي (Noβtaι) والاستقرار على النيل جنوبي أسوان، بينهم وبين البليميين، وقد كُتِب اسم تلك القبيلة الصحراوية في الترجمات

.Harold Alfred Macmichael، A history of the Arabs in the Sudan، vol. 1، p24 .[]

.Arkell، A History of the Sudan،op، p.178 .[]

الإنجليزية Nobatae ، وكُتب بالعربية النوباتيين أو النوباطين.

وقد اتفق المؤرخون أن النوباتيين أتوا من الصحراء الغربية، سواء من منطقة الواحة الخارجة المقابلة لصعيد مصر شمال غربي مدينة أسوان، أو من المناطق الصحراوية الواقعة جنوبيّها. ويرى بدج، كما ذكر ماكمايكل، أن النوباتي قبيلة بدوية قوية، كان موطنها الأصلي في القرن الثالث الميلادي كردفان ودارفور، وعندما استدعاهم الرومان، كانوا قد انتشروا شمالاً حتى الواحة الخارجة، فهم بذلك السلالة النوبية نفسها التي رأينا وجودها في منطقة كردفان ودارفور، قبل القرن الثالث قبل الميلاد، ويحملون الاسم نفسه تقريباً. وهم سلالة النوبا نفسها التي انتشرت في مملكة مروي، كما في نقش عيزانا.

ويبدو انتشار قبيلة النوباتيين على طول المنطقة ما بين كردفان ودارفور والواحة الخارجة مقبولاً للآتي:

أولاً: لأن اسم النوباتي أو النوبا، هو اسم عام يضم سكان المنطقة كلها، فيصدق على القبائل في دارفور، أو كردفان، أو المناطق الشمالية حتى الواحة الخارجة.

ثانياً: كانت تلك المناطق في ذلك الوقت ما تزال تتمتّع بقدر معقول من المطر والمياه الجوفية والسطحية، مما وفّر وسائل الحياة والتجول.

ثالثاً: ما تزال صلات سكان النيل حتى العصر الحديث قوية بالمناطق الغربية، ويتّضح ذلك في تراث بعض القبائل في المنطقة، والذي ربط تحركاتهم مع النيل، مثل تراث قبائل القرعان والتبو والتنجر.

ويبدو أن العلاقات تحسّنت بين النوباتيين والبليميين بعكس ما خطّط له الرومان الذين استقدموهم لمساعدتهم ضد البليميين. فقد ورد في بردية، ترجع إلى الربع الثاني من القرن الخامس الميلادي، كما ذكر مسعد أن أسقف فيلة وجه نداءً للإمبراطور البيزنطي لحماية كنائسه من غارات البليميين والنوباتيين.

وفي بداية النصف الثاني من القرن الخامس، ذكرت المراجع أن القائد الروماني ماكسمينيوس ألحق بالبليميين والنوباتيين هزائم متكررة. وانسحب البليميون إلى جنوبي

Macmichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1، p.24.

. مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى: بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م، ص 13.

أسوان، حيث مركزهم في كلابشة، بينما انسحب النوباتيون جنوبيهم إلى إبريم، ووقعوا معاهدة صلح لمدة مائة عام، لم تكن كل شروطها في مصلحة الرومان.

وقد ظل اتحاد البليميين والنوباتيين قوياً ضد الرومان، حتى أن الرومان اضطروا لدفع مبالغ سنوية محدّدة ثمناً للسلم معهم. ويبدو أن قوة النوباتيين قد نمت في المنطقة إلى جانب البليميين، ووضحت إحدى الوثائق اليونانية الراجعة إلى عامي (535ـ537م) أن البليميين والنوباتيين كانوا ما يزالوان حلفاء. كما ذكر بروكوبيوس نحو نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي أن البليميين والنوباتيين مازالون وثنيين. غير أن نشاط البعثات التبشيرية وصِلات البيزنطيين بالنوباتيين قد حوَّل موقفهم المعادي للمسيحية واعتنقوها، وتمكّنوا بقيادة زعيمهم سلكو من تأسيس مملكة على حدود مصر الجنوبية، عُرفت باسم مملكة نوباتيا منذ عام 530م. بينما واصل البليميون سياستهم المعادية للمسيحية. وكان ذلك إيذاناً بنهاية الود والتحالف بين البليميين والنوباتيين، وبداية الصراع بينهما.

وبعد اعتناق النوباتيين المسيحية تحسَّنت العلاقات بينهم وبين البيزنطيين، وتمكّن البيزنطيون من الحصول على تعاونهم ضد البليميين، الذين لم يعتنقوا المسيحية حتى ذلك الوقت، وكانوا دائمي الاعتداء على صعيد مصر. وتمكّن سلكو بالتعاون مع أسقف مدينة فيلة، جنوبي أسوان، والبيزنطيين من تحقيق انتصارات متعددة على منافسيهم في المنطقة، بما فيهم البليميين، ووحّد كل المنطقة تحت حكمه.

سجّل سلكو تلك الانتصارات في نقش باللغة اليونانية في معبد كلابشة، واورد مسعد بعضاً مما جاء فيه: «أنا سلكو رئيس النوباتيين وجميع الإثيوبيين.. وحاربت البليميين.. ثم هاجمتهم للمرة الخامسة حتى توسلوا إليّ، ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي [جنوب حلفا]، ولما تمت لي السيادة عليه، لم أشأ أن أكون في مؤخّرة ملوكه، بل أصبحت في مقدمتهم.. أما عن أولئك الذين نازعوني الزعامة، فإنني لم أسمح لهم بأن يعيشوا في بلدهم إلا إذا التمسوا مني المغفرة.. أما رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة فإنني لم أدعهم يعيشون في الظل بل في الشمس.. ومن قاومني منهم قضيت على أولاده ونسائه».[]

ومن الواضح في النص أن سلكو خاض معارك متعدّدة لتوحيد المنطقة تحت حكمه، ونجح في تحقيق ذلك، مكوناً في منتصف القرن السادس الميلادي أول مملكة مسيحية (مملكة نوباتيا)، التي امتدت من جنوب وادي حلفا وحتى منطقة أسوان شمالاً، واتخذت فرس عاصمة لها.

[]. المصدر نفسه، الملحق الأول، ص 241 243-.

وضَّح نقش سلكو أن حروبه كانت في المناطق الواقعة من جنوبي أسوان، وحتى جنوب وادي حلفا. وإلى جانب هؤلاء الملوك في الجنوب خاطب سلكو أيضا: «أولئك الذين نازعوني الزعامة»، و«رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة». ويبدو أن المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثالث -والتي أصبحت تحت حكم سلكو- كانت مأهولة بالسكان ومتعدّدة الزعامات، وكان البليميون في الجزء الشمالي من المنطقة. يبدو أن النوباتيين أنفسهم كانوا تحت زعامات متعدّدة سيطر عليها سلكو. وإلى جانب النوباتيين والبليميين، كانت هنالك جماعات أو قبائل أخرى هزمها سلكو، وهي التي اندرجت تحت اسم الإثيوبيين.

ويلاحظ أن سلكو لقب نفسه بملك (جميع الأثيوبيين)، والإثيوبيون هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون -ومن جاء بعدهم- على كل السكان جنوبي أسوان. ويبدو أن سلكو أشار إلى النوباتيين إشارة مستقلة، باعتبارهم الطبقة الحاكمة التي تمثل المجموعة الجديدة التي استقرت في بلاد الإثيوبيين، ولا يعني أنهم عنصر أو جنس يختلف عن سكان المنطقة.

وقد ارتبط النوباتيون بثقافة بلانة التي تطوّرت إبّان ضعف وانهيار مملكة مروي، وقد أطلق المؤرخون عليها اسم ثقافة المجموعة المجهولة (x-group)، ولم يقبل وليام آدمز هذا الاسم، وفضّل أن تنسب إلى اسم المكان الذي يحتوي على أكثر آثارها، فأطلق عليها ثقافة بلانة، وهذا ما سنتبعه هنا.

عثر على آثار ثقافة بلانة في مناطق متعدّدة بين أسوان شمالاً ومروي الحالية جنوباً، ويرى أركل أن المقابر الكثيرة المنتشرة في المنطقة الواقعة غربي الخرطوم، ربما ترجع إلى ثقافة مشابهة لها. تعود ثقافة بلانة إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وقد اتفق الباحثون[1] على أن مكوني هذه الثقافة يتميّزون بوضوح أثر العناصر السوداء أكثر من العناصر السابقة لهم، وبوضوح الثقافة المروية على مخلفاتها. وقد رأى فرث Firth الذي فحص محتويات القبور في العقد الأول من القرن العشرين أن مؤسسي هذه الثقافة هم النوباتيون، الذين استقدمهم الإمبراطور الروماني دقلديانوس عام 297 ليستقروا على النيل جنوبي أسوان. وتبعه في هذا الرأي أركل، وسار عليه كثير من المؤرخين مثل محمد إبراهيم بكر ومصطفى مسعد.[2]

[1]. Arkell، History of the Sudan، op، p. 181.

[2]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصر سابق، ص 19.

وأبعد آركل[] ومن تبعه، أي أثر للبليميين في هذه الآثار، لأنهم -كما يرون- رعاة متجوّلون في الصحراء الشرقية، ولم يسيطروا على تلك المناطق لفترات طويلة، وإنتاج مثل تلك الثقافة يتطّلب استيطاناً طويل المدى. ويبدو أن آركل الذي كتب في منتصف القرن العشرين، ومن وافق رأيه، لم تتح له فرصة الاطلاع على الوثائق التي نشرتها جامعة بيرغن، والتي أشرنا إليها سابقاً، والتي توفّرت عن البليميين في النصف الأخير من القرن العشرين.

فقد وضَّحت تلك المصادر أن البليميين بدأوا الاستقرار في مناطق جنوبي أسوان منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبدأت أعدادهم تزداد في المنطقة، حتى أصبحوا منذ بداية العصر المسيحي القوة المسيطرة على المنطقة حتى القرن السادس الميلادي، كما وضحنا أعلاه. ويعنى هذا أن ارتباط البليميين بمنطقة ثقافة بلانة يبلغ نحو 1200 سنة. فكيف يكون وجودهم في المنطقة كما عبَّر مسعد وجوداً مؤقتاً؟.

ولم يستخدم آركل المصادر المبكرة، مثل، كتب بلايني، وسترابو، وأولبميودورس.. وغيرهم، والذين ظهر البليميون في كتاباتهم مستقرين في المنطقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي، أي نحو 900 سنة. ويكفي ما ذكره أولبميودورس، الذي زار البليميين في كلابشة في أول القرن الخامس الميلادي، من أنهم سادة المنطقة، وأن المدن الرئيسة ما بين أسوان وحلفا تحت سيادتهم.

الأدلة كلها تشير إلى أنه من غير المقبول، بل ومن المستحيل إبعاد البليميين من ثقافة بلانة، وهم الذين قدموا تاج بلانة، كما ذكر ونتر، هدية للإمبراطور قسطنطين عندما كانوا في سفارة مشتركة مع المرويين عام 336م.[] ولذلك رأى كثير من الباحثين أن المقابر الملكية التي تم كشفها في المنطقة، هي مقابر ملوك بليميين. وأرى أن تفسير وليام أدمز لظهور هذه الثقافة ومؤسسيها يمثل الرأي المنطقي المقبول.

ماذا حدث للبليميين ولمملكتهم بعد هزيمة سلكو؟. يرى بعض المؤرخين مثل آركل[]، ومسعد[]، الذي نقل عن كيروان، ودي فلارد، أن تلك الهزيمة أدت إلى نتيجتين: الأولى

[]. Arkell، A History of the Sudan، op، p.181.

[]. كلايدي ونتر، «بينة مروية عن الإمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس»، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد 5 مارس 2004م(online) .

[]. Arkell، A History of the Sudan، op، p.184.

[]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص 18-242.

نهاية المملكة، والثانية طرد البليميين نهائياً من على النيل.

ويبدو واضحاً أنه لم يرد في نص نقش سلكو أنه طردهم من على النيل. فالنص يشير إلى أن سلكو هزمهم أكثر من مرة، واحتل مدنهم وعقد معهم (سلاماً)، وفي ترجمة مسعد عقد معهم «صلحاً ووثقت من أيمانهم هذه لأنهم رجال شرفاء». وقد علّق مسعد في الحاشية على أن ما ورد في النقش «لا يشير صراحةً إلى طردهم من المنطقة».[]

وفي واقع الأمر فإن النص لا يشير صراحة ولا ضمناً إلى طردهم. وقد علّق بوري على هزمة البليميين قائلاً: «إن تنصير البليميين ساعد الإمبراطور جستنيان على إنهاء كل مظاهر الوثنية».[] ولم يقل إنه طرد البليميين، بل ذكر تنصيرهم.

غير أن أخبار البليميين انقطعت من المصادر حتى دخول المسلمين مصر، حيث بدأت تظهر بعض أخبارهم في المؤلّفات العربية. لكن هنالك بعض الأخبار التي وردت عنهم في وثائق الجبلين، والنصوص التي جمعها بَرنارد والتي ارتبطت بإقليم طيبة بصعيد مصر، وأرّخ لها بالقرن السادس الميلادي.

ونخلُص إلى أن المجموعات النوباوية المهاجرة التي اجتاحت مملكة مروي، والتي أدت إلى انهيارها، قد استقرت على أراضيها، واختلطت بالسكان الذين كانوا يعرفون في المصادر اليونانية والرومانية بالإثيوبيين والمرويين، مكوّنة سكان تلك المناطق قبل العصر المسيحي. وفي الوقت نفسه استقرت مجموعة النوباتيين الذين هم سلالة النوبا نفسها في مناطق وادي حلفا، واختلطت بالسكان البليميين، وغيرهم من السكان الذين عرفوا في المصادر اليونانية والرومانية بالإثيوبيين والمرويين.

ومن الجدير بالملاحظة، أن المؤلفات الغربية الحديثة التي كتبت عن علاقة الرومان في مصر بدولة مروي John Wacher تناول كل سكان المنطقة جنوبي مصر تحت اسم النوبا قبل القرن الثالث الميلادي، أي قبل دخول النوباتيين، وجعلت نباتا عاصمة النوبا.[] فاستخدام النوبا في تلك المراجع أتى مرادفاً لكلمة المرويين والإثيوبيين الذين تشير إليهم تلك المرجع.

[]. المصدر نفسه.

[]. Bury: History of the Late Roman Empire، New York: Dover Publication، 1958 p. 330.

[]. John Wacher (ed)، The Roman World، London: Rutledge، 2002.

من هم النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر[1]

كانت مصر عندما دخلها المسلمون تحت حكم البيزنطيين، وكانت الإمبراطورية البيزنطية امتداداً للإمبراطورية الرومانية. فالرومان عندما تعرضت إمبراطوريتهم لغزو القبائل الجرمانية، وعجزت عن الدفاع عن أراضيها، أنشأت عاصمة جديدة في شرق الإمبراطورية لتكون بعيدة، وفي مأمن من هجوم تلك القبائل. واختاروا موقعاً حصيناً في مكان إسطنبول الحالية. وكان هذا الموقع يدعى بيزنطة، فأسسوا عليه عاصمتهم، وأطلقوا عليها اسم القسطنطينية. واشتد هجوم القبائل الجرمانية، واستولوا على أراضي الإمبراطورية الرومانية في وسط وغرب أوروبا.

وفي النهاية سيطرت القبائل الجرمانية على روما، وأنهوا بذلك الإمبراطورية في الغرب، غير أن الإمبراطورية ظلت حية في الشرق في عاصمتها القسطنطينية، وسيطرت على ما تبقى من أراضي الإمبراطورية في شرق أوروبا، وجنوب وشرق البحر المتوسط بما في ذلك مصر. وعرفت الدولة باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، غير أن الاسم القديم للمكان الذي قامت عليه، وهو بيزنطة، اشتهر وأصبح علماً للإمبراطورية، فعرفت بالإمبراطورية البيزنطية، كما عرفت عند المسلمين بإمبراطورية الروم، أو دولة الروم. وهو الاسم الذي ورد في القرآن الكريم في سورة (الروم). ويشبه هذا ما حدث لعاصمة العباسيين التي أنشأها الخليفة أبوجعفر المنصور في منتصف القرن الثاني الهجري، وأطلق عليها مدينة السلام، غير أن هذا الاسم لم يشتهر، وعرفت ببغداد، وهو اسم المكان القديم الذي أنشئت عليه العاصمة.

وقد تعرّضت مصر عبر تاريخها القديم لسلسلة من الغزوات والهجرات، كان آخرها هجرات اليونانيين، فدخلت تحت حكم الإسكندر الأكبر في آخر القرن الثالث قبل الميلاد، واتصل ذلك بحكم البطالمة، ثم الرومان، وأخيراً البيزنطيين. وتدفّقت نحو مصر خلال هذه الفترة السابقة للفتح الإسلامي -والتي تقدر بنحو ألف سنة- لمجموعات كبيرة من المهاجرين اليونانيين والرومان.

ولذلك فقد خاطب العرب عند دخولهم مصر في معاهدة عمرو بن العاص ثلاث فئات من السكان؛ أهل مصر، والنوبة، والروم. والأمر الذي يسترعي الانتباه في تلك الاتفاقية هو تردّد ذكر النوبة بصورة منفصلة ومتميِّزة عن أهل مصر، مما يثير افتراض وجود النوبة

[1]. John Wacher (ed)، The Roman World، London: Rutledge، 2002.

بثقل واضح ومتميز كمًّاً وكيفاً عن أهل مصر. وفيما يلي نص الاتفاق نقلاً عن ابن كثير، وقد قسّمنا النص إلى فقرات لكي يسهل تتبعه.[]

بسم الله الرحمن الرحيم

1. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، وملّتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصُلُبهم، وبَرِّهم وبَحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص.
2. ولا يساكنهم النوبة.
3. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جُنِّيَ لصونهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته رفع عنهم بقدر ذلك.
4. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم.
5. ومن أبى [من النوبة والروم]، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا.
6. لهم ما عليهم أثلاثاً، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.
7. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً.
8. على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.
9. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر.

جاء نص الاتفاق هذا في كثير من المصادر العربية، مثل كتاب (البداية والنهاية)، لابن كثير -الذي أخذ منه هذا النص- وكتاب (الكامل في التاريخ)، لابن الأثير، وكتاب (صبح

[]. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء، البداية والنهاية، (موقع الوراق)، ج7 ص7.

الأعشى)، للقلقشندي، وكتاب (النجوم الزاهرة)، لابن تغري بردي، وورد باختلاف طفيف عند الطبري، وابن خلدون، الذي وضّح أنه نقله عن الطبري، فقد جاءت الكلمة (النوب) مرتين في نص الطبري بدلاً عن النوبة (في الفقرتين 2 و4 أعلاه). ووردت في المرة الثالثة (النوبة) (فقرة رقم 7 أعلاه)، فجاء هذا الجزء من النص عند الطبري كالآتي: «لا يساكنهم النوب.. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب.. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً».

وجاءت الإشارة في الاتفاق إلى ثلاث مجموعات هم: 1ـ أهل مصر. 2ـ النوبة. 3ـ الروم. ووضحت المصادر العربية أن أهل مصر في نص الاتفاق يراد بهم الأقباط. وكلمة (الروم) في النص تشير إلى الرومان والبيزنطيين سواء أكانوا جنوداً أم مَن استقر منهم في مصر. والسؤال هنا هو: من هم النوبة الذين وردت الإشارة إليهم في الاتفاق؟.

ويبدوا واضحاً أن كلمة (النوب) فى نصّي الطبري وابن خلدون المراد بها النوبة، وذلك لأن الإشارة أتت إليهم باسم النوبة عند كليهما في نهاية النص. ولم تختلف المصادر العربية في أن المعنيين بالنوب في النص هم النوبة، وإن لم توضح تلك المصادر من هم أولئك النوبة.

وقد أتت كلمة (نوب) في المصادر العربية في أكثر من مكان مرادفة لكلمة النوبة. فقد ذكر ياقوت الحموي الذي حاول أن يجد للكلمة أصلاً في اللغة العربية فذكر أن: «نوبة بضم أوله وسكون ثانيه وياء موحدة، والنوب جماعة النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها. فشبَّه ذلك بنوبة الناس، والرجوع لوقت مرة بعد مرة. وقيل النوب جمع نائب من النحل، والقطعة من النحل تسمى نوبة، شبهوها بالنوبة من السودان، وهو في عدة مواضع».

وجاء في لسان العرب: «قال أبوحنيفة: ومريس أدنى بلاد النوب التي تلي أرض أسوان». كما ورد في تاج العروس: «قالوا أسود لوبيّ ونوبيّ منسوب إلى اللوبة والنوبة، وهما للحرة. قال شيخنا: وقيل هو نسبة إلى اللوب لغة في النوب الذي هو جيل من السودان.. النوبُ والنوبةُ بالضم جيل من السودان، الواحد نوبي.. النوبَ والنوبة جيل من السودان، والمصنف هنا فرّق بينهما فجعل النوب جيلاً والنوبة بلاداً».

. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية العربية، مرجع سابق، ص 165.

. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص315.

. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ج1 ص948 و990 و991.

ويوضح هذا أن (النوبَ) بفتح الباء وبدون تاء في آخر الكلمة كما ضبطها الزبيدي أعلاه هم النوبة، وهذا يَرُدّ بوضوح على ما وقع فيه لين بول من لبس إذ اعتقد أن (النوب) في نص الاتفاق يراد بهم الجنود الرومان. وقد ناقش بتلر ذلك باستفاضة، وبيَّن خطأ لين بول. وتوصل بتلر مستنداً إلى أدلة تاريخية أن (النوب) في النص يراد بهم النوبة. لكنه لم يتعرّض لما ورد في المصادر العربية من ترادف كلمتي النوب والنوبة.[1]

وفي مكان آخر ذكر الطبري: «لما نزل عمرو على القوم بعين شمس؛ وكان المسلك بين القبط والنّوب، ونزل معه الزبير عليها، وقال أهل مصر لمليكهم ما تريدون من قوم فلّوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟ صالح القوم ولا تعرض لهم ولا تعرض لهم».[2]

وقد أوضح الطبري وغيره من المؤرخين المسلمين المبكرين أن المفاوضات بين المسلمين والبيزنطيين كانت تدور بواسطة رجال الكنيسة القبطية. فالأقباط كانوا أقرب للمسلمين من البيزنطيين. وبناءً على ما ذكره الطبري في النص الأخير «المسلك بين القبط والنّوب»، فهل شارك النوبة الأقباط في التفاوض مع المسلمين لإقناع البيزنطيين بالاستسلام؟.

وقد حدث أيضاً خلط في هذا النص (المسلك كان بين القبط والنّوب)، أدّى إلى عدم التمكّن من فهمه فهماً صحيحاً. ففي بعض نسخ كتاب الطبري أتى النص كالآتي: «لما نزل عمرو على القوم بعين شمس؛ وكان الملك بين القبط والنّوب».[3] ويبدو أن حرف السين في كلمة (المسلك) قد سقطت في هذا النص وأصبحت الكلمة (الملك) بدلاً عن المسلك. ويبدو أن هذه هي النسخة المترجمة التي رجع إليها لين بول وبتلر. وحاول بتلر أن يوضح قوة النوبة وإمكانية أن تكون لهم سلطة مع الروم.

وتتبادر إلى الذهن هنا بعض الأسئلة حول ما ورد عن النوبة في اتفاق المسلمين مع أهل مصر، وحول ما ورد عن مشاركتهم في مفاوضات الصلح مثل:

- هل شارك النوبة أو البجة البيزنطيين في حروبهم للمسلمين؟.
- كيف كان حجم الوجود النوبي الكمي والكيفي في مصر، حتى يخاطبوا في المعاهدة أكثر مما خوطب به الروم حكام مصر؟.

---

[1]. Butler، A. J. The Treaty of Misr in Tabari، p. 39 – 43.

[2]. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 35.

[3]. المصدر نفسه.

- هل شارك النوبة في مفاوضات الصلح.. ولماذا؟.
- وإلى أين كان خروج النوبة الذين خرجوا وفقاً للاتفاق في البند رقم 5.
- وأين كان النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين؟.
- فكيف خاطبت معاهدة أهل مصر النوبة في ذلك الوقت المبكر وقبل بداية الحروب بين المسلمين ومملكة نوباتيا؟، هل تدخل النوبة أو تدخّلت مملكة نوباتيا في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في مصر؟.

لمحاولة فهم ذلك الوضع هنالك جانبان مهمان في هذا الصدد بحاجة إلى المزيد من البحث والتقصي:

- الجانب الأول يتعلّق بعلاقات النوبة بالبيزنطيين في مصر قبيل الفتح الإسلامي.
- الجانب الثاني يتعلّق بالفتوحات الإسلامية في الصعيد الأعلى من مصر.

■ **علاقة النوبة بالبيزنطيين**

من المعروف أن النوباتيين أقاموا مملكتهم على حدود مصر الجنوبية، فهل كان لهم وجود على أراضي مصر شمالي أسوان؟ ومن المعروف أيضاً أن النوباتيين اعتنقوا المسيحية وفقاً لتعاليم الكنيسة المصرية، والتي لم تكن على وفاق مع كنيسة القسطنطينية التي يؤيّدها الأباطرة. ونشبت خلافات وصراعات حادة بين الكنيستين أدى إلى ممارسة الإدارة البيزنطية العنف ضد قادة الكنيسة المصرية القبطية، مما أدّى لوقوف الأقباط إلى جانب المسلمين عند فتح مصر.

هل انعكس ذلك الصراع على علاقات النوباتيين التابعين للكنيسة القبطية ضد البيزنطيين قبل دخول المسلمين مصر؟. ذكر بتلر، استناداً إلى مصادره، أن البيزنطيين أرسلوا عام 580م -أي قبل نحو ستين سنة من دخول المسلمين مصر- حملة ضد النوبيين، كما ذكر أنه كان هنالك جنود نوباتيون، أو جنود من النوبة في الجيش البيزنطي.

وكان إقليم الصعيد في العصر الروماني، كما يقول بتلر، متميّزاً عن منطقة شمالي مصر. فقد كانت مصر الرومانية مقسّمة إلى ثلاث مديريات (Provinces). المديرية الأولى: مصر، وتمتد من البحر المتوسط جنوباً حتى منطقة الأقصر الحالية. المديرية الثانية: ليبيا، وتقع إلى الغرب من مصر على البحر المتوسط. المديرية الثالثة: طيبة، أي منطقة الأقصر الحالية وتمتد جنوباً حتى أسوان. فهل كان للنوبة استقرار في هذه المنطقة؟.

ويرى بعض الباحثين أن كلمة البقط التي أطلقت على الاتفاقيات بين المسلمين ومملكة مقرة ترجع إلى أصل لاتيني يوناني الجذر pactum استخدمها البيزنطيون بمعنى التزام أو ميثاق مشترك، وما يرتبط به من عمليات دفع بين طرفين، كما عند يوسف فضل، أو بمعنى اتفاق تجاري بين قوتين أو دولتين تتمتّعان بالاستقلال الكامل كما عند كراوفورد.

وارتباط كلمة pactum البيزنطية بعلاقات المسلمين ومملكة مقرة يثير التساؤل عن طبيعة العلاقات بين البيزنطيين والنوباتيين؛ هل كانت هنالك اتفاقيات تجارية أو التزامات أو مواثيق مشتركة بين الجانبين؟، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن البيزنطيين، كما أوردت المصادر، كانوا قد لجأوا إلى ما يعرف بنظام المحالفة، أو المعاهدة، مع الشعوب التي تعيش على أطراف حدودهم، فقد ارتبط هؤلاء المحالفين بمعاهدة تحالف مع البيزنطيين، تعهدوا فيها بحماية حدود الإمبراطورية مقابل إعفائهم من الضرائب أو الإتاوات، وتطوّر الأمر إلى أن أصبح هؤلاء المحالفين يحصلون على أموال مقابل تلك الخدمات.

ومن المعروف أن البليميين (البجة)، كانوا مستقرين في إقليم طيبة في العصر البيزنطي، بل كانوا حكاماً لبعض المناطق. فقد ذكر مصطفى مسعد ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية تؤكّد ذلك، ونورد هنا ترجمة واحدة منها:

«أنا شاراشن ملك البليميين، أكتب إلى أولادي شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقاً لأمري هذا فقد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تناري، وألا يقف في سبيلكم أحد، وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الإتاوة العادية لكم، فإنه لا الفيلاركولا الهيبوتيرانوس يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتي».

وتقع جزيرة تناري هذه على نحو 25 ميلاً جنوب مدينة الأقصر الحالية، والتي كانت عاصمة لإقليم طيبة. ويشير النص إلى وجود مستوطنين رومان في الجزيرة، وأنه على الإداريين البيزنطيين ألا يمنعوا أبناء الملك شاراشن من تحصيل الالتزامات المالية المفروضة على أولئك المستوطنين الرومان. وقد نقل مسعد أيضاً عن، وولي وماسيفر، أن البليميين لم

Hasan، Yousef Fadl، The Arabs and the Sudan. Khartoum: Khartoum University. Press، 1973، p.24.

Crawford، (ed.): Ethiopian Itineraries Circa 1400-1520، op، p. 23.

. إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ مصر البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص10.

. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص251-252.

يكونوا مجرد غزاة، بل أنهم استقروا في منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية.[1]

فالصِلات بين إقليم طيبة والبجة -وربما النوباتيين- في عصر البيزنطيين كانت قوية لم تقتصر على العلاقات التجارية والخدمة في الجيش البيزنطي فقط، بل تعدّت ذلك إلى المشاركة في الأوضاع الإدارية في إقليم طيبة. وأرى أن فهم الصِلات المبكرة بين المسلمين في مصر من جهة، وبين البجة والنوباتيين، من جهة أخرى، يتطلّب ضرورة الاهتمام بدراسة علاقات البيزنطيين مع البجة والنوباتيين.

- **الفتوحات الإسلامية في صعيد مصر**

يلاحظ أن المصادر العربية -كتب الفتوح والتاريخ- قد سكتت عن حروب المسلمين في صعيد مصر، عدا إشارات قليلة وعابرة، لا تُمكِّن من فهم وتتبُّع الفتوحات الإسلامية في تلك المنطقة. فالبلاذري قال: «لما فتح عمرو بن العاص الفسطاط وجّه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجّه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشر، ودات، وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك»[2].

فالبلاذري اختصر كل حروب المسلمين في صعيد مصر في جملة واحدة، وليس من الواضح: هل كانت هنالك مقاومة في صعيد مصر أم لا؟، وإلى أين وصلت جيوش المسلمين في الصعيد؟. فقد ذكر أسماء خمس مناطق وصلتها قوات المسلمين، ثم اختصر بقية حروب المسلمين بقوله «وقرى الصعيد» دون تفصيل. كما وضّح البلاذري أن المسلمين وقّعوا مع أهل الصعيد صلحاً مثل صلح عمرو بن العاص مع أهل شمال مصر، لكنه لم يورد بنود الصلح، وأغلب الظن أن يكون هنالك أكثر من صيغة صلح واحد، لأن الصلح أو الاتفاق يعقب كل معركة.

أما ابن عبد الحكم، فقد جاء ما ذكره عن فتوحات المسلمين بصعيد مصر أكثر اختصاراً، فقد ذكر أنه «لما تم الفتح للمسلمين، بعث عمرو جرائد الخيل إلى القرى التي حولها، فأقامت في الفيوم سنة، لم يعلم المسلمون بمكانها، حتى أتاهم رجل فذكرها لهم (...). ويقال بل بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها، وبه سميت القيس، فراث [أبطأ] على عمرو خبره، فقال ربيعة بن حبيش كفيت، فركب فرسه فأجاز عليه

---

[1]. المصدر نفسه.

[2]. البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م، ص214.

البحر، وكانت أنثى، فأتاه بالخبر. ويقال إنه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى إلى الفيوم»[1].

فرواية ابن عبد الحكم لا تذكر شيئاً عن حروب المسلمين جنوبي الفيوم التي تقع بالقرب من القاهرة، والتي يبدو أن المسلمين اعتبروها أول الصعيد. وذكر أن المسلمين أقاموا في مصر سنة كاملة، ولم يرسلوا قواتٍ للصعيد، حتى أنهم لم يكونوا يعلمون بموقع الفيوم. وبالطبع فإن الرواية بهذه الصورة من الصعب قبولها، إذ لا يعقل أن يظل المسلمون سنة في الوجه البحري لمصر ولا يعلمون شيئاً عن مناطق الصعيد.

ومن الملاحظ أن المصادر الأخرى التاريخية والجغرافية والموسوعات لم تتعرّض لفتوحات المسلمين في الصعيد. ورغم أن عبد الله بن سعد قضى عدة سنوات والياً على الصعيد حتى عام 25هـ قبل أن يخلف عمرو بن العاص والياً على مصر كلها، فالمصادر لم تذكر حروبه في الصعيد، وباستثناء ما ورد عن حربه للنوبة، وما عدا ما أوجزه ابن حوقل، حيث ذكر أنه «فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز، وقهر جميع من كان بالصعيد بها من فراعنة البجة وغيرهم»[2].

ويلاحظ أن حروب عبد الله بن سعد لم تُوجّه من الفسطاط عاصمة المسلمين في شمال مصر، بل أتت عبر البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية مباشرة. ولا تتضح الحروب التي خاضها عبد الله بن سعد في الصعيد، ما عدا ما ورد عن إخضاعه أسوان. ويلاحظ أن ابن حوقل تحدث عن ثلاث مجموعات حاربها عبد الله بن سعد وهم: 1ـ أهل أسوان. 2ـ فراعنة البجة. 3ـ وغيرهم. فهنالك مجموعتان إلى جانب أهل أسوان، هما البجة وغيرهم، فهل غيرهم هنا إشارة إلى النوباتيين؟، ولماذا وصف البجة بالفراعنة، وهو الوصف المفروض يصدق على أهل أسوان؟. يظل وجود البجة والنوبة في صعيد مصر في حاجة إلى المزيد من الاهتمام.

والمصدر الوحيد الذي تناول حروب المسلمين في صعيد مصر، هو الواقدي (ت 207ه/823م)، في كتابه الذي تحمل إحدى طبعاته اسم فتوح الشام. وفي واقع الأمر فإن الكتاب تضمّن فتوح الشام، والعراق، ومصر. ورغم أن الكتاب طبع عدة مرات منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنه يلاحظ عليه أنه يحمل طابع الملاحم، وعدم تحري الدقة في الأخبار.

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص125.

[2]. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، ص 59، نقلاً عن: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص55.

وقد اطّلعت على ثلاث نسخ من الكتاب، النسخة التي ضمنها مصطفى مسعد في كتابه (المكتبة السودانية)، وهي نسخة مأخوذة عن الكتاب تحت اسم (فتوح مصر والإسكندرية)، والنسخة الثانية من موقع الوراق (warraq.com)، وذكر الموقع أنه أخذها من طبعة مكتبة ابن خلدون بدون تاريخ. والنسخة الثالثة طبعة بيروت دار الجيل بدون تاريخ، وهي النسخة المستخدمة هنا، ورغم أن عنوانها (فتوح الشام)، إلا أنها تناولت فتوح مصر. وتتفق النسخ الثلاث في المعلومات التي سنتعرّض لها. غير أن مصطفى مسعد لم ينقل النص كاملاً.

أورد الواقدي معلومات مفصّلة عن الحروب الطويلة التي خاضها المسلمون في صعيد مصر، كما تناول أيضاً سكان الصعيد، وأشار لوجود النوبة بالصعيد في قوله: «لما فتح عمر بن الخطاب، مصر، والإسكندرية، والبحيرة، والوجه البحري كله، كان بالصعيد نوبة، وبربر، وديلم، وصقالبة، وروم، وقبط».[1] وذكر في أكثر من موضع استنجاد البيزنطيين بالبجة والنوبة، قبل المعارك الفاصلة مع المسلمين.[2]

ورغم أنه ذكر أن البجة والنوبة لم يرسلوا قوات لمساعدة البيزنطيين بسبب الحرب التي نشبت بينهما، إلا أنه عاد وذكر وصول جيوش (حليف) ملك النوبة، و(مكسوج) ملك البجة، وتحدث عن مشاركتهم القتال مع البيزنطيين. وذكر أنه: «كان مع ملك البجة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان، طوال القامة، عراة الأجساد، على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور.. وغيرها، ومعهم الدرق، والحراب، والكرابيج، والقسي، والمقاليع، والأعمدة الحديدية، والطبول، والقرون، وكانت عدتهم عشرين ألفاً».[3]

ولم يذكر الواقدي وَصْف أو عدد جنود النوبة، كما فعل مع البجة، لكنه قدّر عدد الجنود الذين حاربوا المسلمين في الصعيد بـ«مائتي ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة، والبربر، والبجاوة، والفلاحين».[4]

ورغم أن رواية الواقدي عن حروب المسلمين بالصعيد تعتبر -بصورة عامة- رواية

---

[1]. الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ج1 ص211.

[2]. المصدر نفسه، ج2 ص47 و55 و58.

[3]. المصدر نفسه، ج2 ص60.

[4]. المصدر نفسه، ج2 ص227 و243 و249.

ضعيفة، إلا أنها قد تتضمن بعض الإشارات التي من الممكن التوقّف معها قليلاً. فقد ذكر الواقدي عدد الأجناس التي كانت بصعيد مصر إبَّان الفتح الإسلامي، بما فيهم النوبة والروم، العنصران اللذان تناولتهما شروط صلح عمرو بن العاص مع أهل مصر. ومن ناحية ثانية لو أخذنا ما ذكره الواقدي من مشاركة النوبة والبجة في الحرب إلى جانب البيزنطيين، لأمكننا افتراض وجودهم في محادثات وشروط الصلح بين المسلمين وأهل مصر.

- **عودة إلى النوبة في اتفاقية الصلح**

ومن خلال ما أمكن تسليط بعض الضوء عليه من علاقات البيزنطيين بالنوبة والبجة قبيل الفتح الإسلامي، وما ورد عن إمكانية وجود النوبة في صعيد مصر إلى جانب البجة، وما ورد عن حروب المسلمين المبكرة في صعيد مصر، نعود إلى التساؤلات التي طرحناها عن النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر. فقد خاطبت هذه الاتفاقية ثلاث فئات متميزة من النوبة هم:

الفئة الأولى: النوبة الذين لا يساكنون أهل مصر، (فقرة رقم)2.

الفئة الثانية: النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين، (فقرات رقم 4 و7 و)8.

الفئة الثالثة: النوبة الذين لم يدخلوا في صلح المسلمين، (فقرة رقم)5.

الفئة الأولى النوبة الذين لا يساكنون أهل مصر

يلاحظ عدم وضوح وضع ما يتعلّق بهذه الفئة من النوبة في الصلح. فقد خاطبت الفقرة الثانية من الاتفاق النوبة بصورة عامة، ونصَّت على أن لا يساكنوا أهل مصر. فهل نفترض أنه على النوبة مغادرة مصر؟، أو نفترض قبولهم في مصر؟، ولكن المطلوب منهم عدم مساكنتهم أهل مصر؛ بمعنى أن لا يعيشوا بينهم، بل يعيشون منعزلين، وهل هذا الانعزال في المساكنة فقط؟، أم في الحياة الاجتماعية أيضاً؟.

وإذا افترضنا أن منع النوبة من مساكنة أهل مصر في الاتفاق، يعني عدم قبولهم داخل حدود مصر، وينبغي عليهم مغادرتها، وجدنا أن هذا التفسير يتعارض مع باقي بنود الاتفاق الخاص بالنوبة، وخاصة البند رقم (4)، والذي ينصّ على أن من دخل من النوبة في اتفاق المسلمين يصبح وضعه كوضع أهل مصر، عليهم ما على أهل مصر من الواجبات، ولهم ما لأهل مصر من الحقوق. أي أن هذا البند لم يفرِّق بين من قبِل الصلح من النوبة وبين أهل مصر. فوضع النوبة هنا مساوٍ لوضع أهل مصر، الأمر الذي لا يتفق مع ما ورد من عدم

مساكنة النوبة لأهل مصر بصورة عامة دون تخصيص لفئة منهم. فالبند الثاني يطلب منهم عدم البقاء في مصر، والبند الرابع يعطيهم بعض حقوق المواطن المصري!.

ويبقى البند رقم (2)، والذي ينصُّ على أن لا يساكن النوبة أهل مصر، في حاجة للمراجعة من أجل الفهم الواضح، وأغلب الظن أن نصّ الاتفاق ربما تعرَّض لبعض التحريف أثناء تداوله في مراحل الرواية المبكرة، أو حدث ذلك أثناء نقله من مخطوط لآخر. وإذا قبلنا هذا الافترض يمكن استبعاد هذا النص من تتبُّعِنا للنوبة في بنود صلح عمرو بن العاص مع أهل مصر حتى التحقّق من صحته. ويبقى لدينا الفئتان الأخريان من النوبة، وهما: من دخل صلح المسلمين، ومن لم يدخل في الصلح.

الفئة الثانية النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين

جاء نص الاتفاق مع هذه الفئة كالآتي: (أرقـام الفقرات كما كتبناها في نص الاتفاقية):

4ـ من دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم.

7ـ وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً.

8ـ على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

تناولت الفقرة رقم (4) الفئة التي اختارت الدخول في صلح أهل مصر، وأقرَّت الاتفاقية أن لهم مثل ما لأهل مصر، وعليهم مثل ما على أهل مصر. وقد وضَّح البند الأول من الصلح ما لأهل مصر من الحقوق وهي: «الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبهم، وبَرِّهم وبحرهم». ووضَّح البند رقم (3) ما عليهم من الواجبات، وهي أن يؤدوا ما فرضته عليهم الاتفاقية من الضرائب التي وُضِّح مقدارها وكيفية دفعها.

ويبدو واضحاً أن ما ورد في البند رقم (4)، والذي وضَّح أن للنوبة الذين استجابوا لصلح المسلمين لهم مثل ما للمصريين، قصد بها الحقوق المتعلّقة بالأمان على النفس، والمال، والكنائس، وما ورد في بقية البند رقم (4) والذي جعل للنوبة المصالحين ما على المصريين من الواجبات لم يقصد بها الضرائب التي فرضت على أهل مصر، لأن البند رقم (7) من الاتفاقية وضَّح ما ينبغي على النوبة دفعه من ضرائب، وهي عدد محدّد من الرقيق والخيل. وهذا يختلف عن ما فرض على أهل مصر.

ونظم البند رقم (8) علاقات النوبة بالمسلمين، تعهّد فيها المسلمون بألا يغزوا النوبة،

ولا يمنعوهم من تجارة صادرة أو واردة. والتعهّد بعدم الغزو هنا يوحي بأن هذا الاتفاق لم يتم مع قوم داخل حدود المسلمين. وبقية البند رقم (8) ينظِّم العلاقات التجارية بين النوبة والمسلمين، ونصَّ على ألا يمنع النوبة من تجارة صادرة أو واردة. وتجارة الصادر والوارد تكون عبر الحدود، فكأن شروط الصلح سمحت للنوبة بهذا النشاط عبر حدود المسلمين، والإشارة هنا تنصرف إلى حدود مملكة نوباتيا. فأغلب الظن أن الخطاب هنا لم يوجَّه إلى فئة داخلية، بل وُجِّه إلى كيان أو مملكة مستقلة.

فالافتراض المقبول أن هذين البندين رقم (7) ورقم (8) يخاطبان جماعة غير مستقرة داخل الحدود المصرية، والنوبة غير المستقرين داخل الحدود المصرية هم النوباتيون على حدود مصر الجنوبية، وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم النوبة. فهل النوبة المخاطبون في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر مقصود بهم النوباتيون؟، وهل شارك النوباتيون في حروب البيزنطيين ضد المسلمين، فأتت الإشارة إليهم في الصلح؟.

ليس من السهل إعطاء إجابة سريعة عن ذلك، وقد حاول بعض الباحثين التعرُّف على أولئك النوبة. فمصطفى مسعد رأى أن النوبة هنا مقصود بهم سكان مملكة نوباتيا. وذهب إلى أن هذا النص (البندان 7 و8) يرجع إلى هدنة وقِّعت بين النوبة والمسلمين بعد المعركة التي وُصِف فيها النوبة برماة الحدق.[1] ومن المعروف أن معاهدة أهل مصر مع عمرو بن العاص وقِّعت بعد هزيمة البيزنطيين مباشرة، أي قبل حروب المسلمين مع النوبة، والتي يفترض مسعد أن الشروط التي وردت عن النوبة في معاهدة أهل مصر تعود إليها. ويبدو ذلك مستبعداً للفارق الزمني الكبير بين الحملتين، إلا إذا افترضنا مشاركة النوباتيين مع البيزنطيين في حربهم للمسلمين، وهو الأمر الذي لم يرد في المصادر المعروفة لنا، ولم يفترضه مسعد. كما حاول بتلر أن يجد تفسيراً لورود اسم النوبة في معاهدة أهل مصر، فذكر أن المسلمين عند دخولهم مصر كانوا يعتقدون أن النوبة جزء من مصر، ولذلك ضمّنوهم في الاتفاق. ولا أرى أن ذلك مقبولاً، لأن المسلمين كانوا حريصين على دقة بنود معاهداتهم، ولا أعتقد أن المسلمين يقعون في مثل هذا الخطأ الكبير فيضيفون قوماً لا وجود لهم داخل مصر في نطاق الاتفاقية، إضافة إلى أن مصر لم تكن غريبة تماماً على المسلمين.

ويظل السؤال قائماً: من هم النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر؟.

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص112.

الفئة الثالثة النوبة الذين لم يدخلوا في الصلح

نص البند رقم (5) في صلح أهل مصر أن من أبى الدخول في هذا الصلح من النوبة والروم «واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه»، أي يخرج إلى حيث يجد الأمان. وأضاف البند «أو يخرج عن سلطاننا» أي يخرج عن حدود سلطة المسلمين، ويعني ذلك يخرج خارج حدود مصر. فالنوبة هنا عوملوا معاملة الروم نفسها، واعتبروا أجانب في أرض مصر، وعليهم الخروج، ولا بد أن خروجهم سيكون إلى مملكة نوباتيا.

وإذا ألقينا نظرة عامة إلى وضع النوبة في صلح عمرو بن العاص لأهل مصر، نجد أنه من الصعب الخروج بخاتمة واضحة. فالبند رقم (2) يخاطب النوبة بصورة عامة أن لا يساكنوا المصريين، ثم يأتي البند رقم (4) ويخاطب من دخل من النوبة في الصلح ويعطيهم حقوقاً مساوية للمصريين «له مثل ما لهم وعليه مثا ما عليهم»، ولكنّ البندين رقمي (7) و(8) يحملان ما يرجّح أن هؤلاء النوبة الذين عوملوا معاملة المصريين غير مستقرين داخل حدود مصر، الأمر الذي يجعل فهم وضع النوبة من قبل الصلح صعباً. والوضع الواضح هو من لم يدخل في صلح النوبة فعليه مغادرة الأراضي المصرية. فوضع النوبة في صلح عمرو بن العاص لأهل مصر بفئاتهم الثلاث يحتاج إلى مزيد دراسة وبحث.

إطلاق كلمتي نوبة ومريس ومراحل استخدامهما في المصادر العربية

تناولنا فيما سبق ظهور كلمة النوبا، واستخدامها في المصادر اليونانية والرومانية، ورأينا أنها كانت تطلق إطلاقاً عامًّا على جميع سكان السودان في الغرب، والوسط، والشمال. فكلمة النوبا في تلك المصادر مرادفة لكلمة الإثيوبيين. وسنتناول هنا ظهور ومراحل استخدام كلمة نوبة في المصادر العربية.

لم تطلق كلمة النوبة في المصادر العربية في كل الأوقات على منطقة واحدة بعينها، بل ورد إطلاقها عامّاً مرة، ومحدوداً مرة أخرى. وفي كلتا الحالتين قد يأتي إطلاقها دون الإشارة إلى أيِّ المعنيين هو المقصود. وفي هذه الحالة ينبغي على القاريء التعرُّف على مدلول كلمة النوبة، هل هو إطلاق عام، أم إطلاق خاص؟ فعندما يقول المسعودي: «ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة». فالنوبة هنا تعني –من خلال المفهوم العام للنص– المنطقة الشمالية من مملكة مُقُرة المجاورة

لأسوان فقط. وعندما يقول المسعودي: «وأما النوبة فافترقت فرقتيْن». يشير هنا إلى نوبة علوة ونوبة مُقُرة، كما وضَّح في ما تبقى من النص. وأحياناً أخرى ترد كلمة النوبة، ولا يوضِّح النص المعنى المراد بها؛ وهنا ينبغي علينا أن نتبصّر ونتأنّى في حكمنا على معنى كلمة النوبة، حتى نتوصّل إلى دلالتها، أو ما يمكن أن تكون دلالتها. كما في كلمة النوبة في نص عهد البقط عند المقريزي.[1]

ولو رجعنا إلى الفترة التي سبقت دخول المسلمين مصر، لوجدنا أن المملكة التي كانت تجاور حدود مصر الجنوبية هي مملكة نوباتيا، ويطلق على سكانها اسم النوباتيين، وكانت على علاقات طيبة مع البيزنطيين، الذين هزمهم المسلمون وأجلوهم من مصر. سكان مملكة نوباتيا هم أول من تعامل المسلمون معهم من سكان مناطق جنوبي أسوان. ويبدو معقولاً أن المسلمين أطلقوا عليهم اسمهم الذي وجدوه في المنطقة، وهو النوباتيين، أو النوباتي، وهو الاسم الذي أصبح (النوبة) فيما بعد في اللسان العربي. فيكون اسم (النوبة) في الوثائق الإسلامية المبكرة راجعاً إلى مملكة نوباتيا المجاورة للحدود المصرية.

وتوجد بعض الأدلة التي تساعد على قبول هذا الرأي. أولاً يرى كثير من المؤرخين أن المسلمين عندما دخلوا مصر وجدوا ثلاث ممالك هي، من الشمال إلى الجنوب: مملكة نوباتيا، وعاصمتها فرس. ومملكة مُقُرة، وعاصمتها دنقلة. ومملكة علوة، وعاصمتها سوبا. فالمسلمون تعاملوا مع أول مملكة واجهتهم جنوبي أسوان، وهي التي كانت تعرف بنوباتيا.

ويبدو مما ورد عند ابن سليم الأسواني (ت 386ه/996م) أن إطلاق اسم النوبة كان -حتى عصره- يصدق بصورة خاصة على منطقة شمال وادي حلفا الحالية. فقد كتب ابن سليم تاريخه عن كل المنطقة ما بين أسوان حتى حدود علوة وما جاورها جنوباً. إضافة إلى منطقة البجة. وأطلق على كتابه (أخبار النوبة، والمقرة، وعلوة، والبجة، والنيل) ورغم أنه عرف بمؤرخ النوبة، إلا أنه تناول تاريخ ثلاث مناطق منفصلة فيما عرف ببلاد النوبة وهي: (النوبة، ومُقُرة، وعلوة)، مما يؤكِّد أن لفظ النوبة حتى وقته كان يطلق بصورة خاصة على المناطق الواقعة إلى الشمال من مملكة مُقُرة.

ويبدو الفصل واضحاً في استخدام المصادر العربية لكلمتي (نوبة، ومُقُرة)، فيما أورده ياقوت الحموي، عندما تحدّث عن ملك دنقلة، حيث قال: «وكتاباته إلى عماله وغيرهم من

---

[1]. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ج2 ص17.

كابيل ملك مُقُرة ونوبة». ورغم أن مملكة مُقُرة تدخل تحت المعنى العام لكلمة (نوبة)، إلا أن لكلمة نوبة خصوصيتها في الاستعمال، حيث كانت تطلق على الجزء الشمالي لمملكة مُقُرة، وهي مملكة نوباتيا.

ويميز ابن سليم بوضوح في أكثر من موضع، بين النوبة الذين هم سكان شمال مُقُرة أو نوباتيا، وبين سكان مملكة مُقُرة. يقول مسعد: «اعلم أن النوبة ومُقُرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة وهم المريس المجاورون لأرض الإسلام». فالنوبة متميِّزون عن سكان مملكة مُقُرة، وبالطبع متميِّزون عن سكان مملكة علوة. ورغم أن المصادر تطلق كلمة النوبة كثيراً في معناها العام، وتريد بها كل المناطق، من أسوان وحتى علوة، إلا أنها أطلقت كلمة النوبة على وجه الخصوص، ويريدون بها المنطقة الواقعة ما بين حلفا وأسوان فقط.

فلماذا هذه الخصوصية؟. ربما كان مصدرها أن أغلب سكان هذه المنطقة الواقعة بين أسوان شمالاً وحلفا جنوباً هم المهاجرون الذين وفدوا من الصحراء الغربية في القرن الثالث الميلادي، واستقروا إلى جانب البليميين، ثم أسَّسوا تحت قيادة سلكو المملكة التي عرفت باسمهم (مملكة نوباتيا)، فارتبط اسم النوبة عند المسلمين الأوائل بهذه المنطقة.

بلاد المريس

وقد أطلقت المصادر العربية اسم (المريس) على هؤلاء النوبة، سكان هذه المنطقة، ووضح ابن سليم أن حدود المريس تمتد حتى بستو في منطقة الشلال الثالث، والتي هي: «آخر قرى مريس، وأوّل بلد مقرة، ومن هذا الموضع إلى حدّ المسلمين لسانهم مريسي، وهي آخر عمل متملكهم»، فمن هم المريس الذين تمتد حدودهم في مملكة مُقُرة؟.

ذكر الجاحظ أن «النوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام». ووضَّح المسعودي: «أن البلد المتصل بمملكته [ملك مُقُرة] بأرض أسوان يعرف بمريس، وإليه تضاف الريح

. ياقوت الحموي، معجم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 166.

. مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 98.

. ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص89.

. الجاحظ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص405.

المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان». □

وفي أثناء تناوله المشكلة التي أثارها المسلمون الذين اشتروا ضياعاً من سكان منطقة جنوب أسوان، ولم تسمح لهم السلطات بتملكها، باعتبار أن المواطنين الذين باعوا تلك الأراضي لا يملكون حقّ التصرف فيها، لأن الأرض ملك للملك، وما هم إلا عبيدٌ للملك. ذكر المسعودي أن السكان لم يقرّوا بالعبودية للملك، وأقرّت ملكيتها لمن اشتروها. وأضاف: «وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس، وصار النوبة أهل مملكة. هذا الملك نوعان: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهي بلاد مريس». فأرض المريس المجاورة لأسوان تعتبر من ضمن بلاد النوبة. وحدّد المسعودي: «أن أهل مصر يُسمُّون أعالي الصعيد إلى بلاد النوبة مَرِيس». أشار المسعودي هنا إلى مملكة مُقُرة ببلاد النوبة إلى جانب مريس، وفي النص أعلاه ذكر: «بأرض النوبة من بلاد مريس»□ فأحياناً يشير المسعودي إلى مملكة نوباتيا بمريس، وأحيانا يشير إليها كجزء من أرض النوبة.

ولم تنحصر منطقة مريس في المصادر العربية على جنوبي أسوان فقط، بل تمتد شماليها. يقول اليعقوبي: «إن عجم مصر جميعاً القبط، فمن كان بالصعيد يسمون المريس». □ وعن مدينة إسنا في صعيد مصر ذكر أنه «يقال إن أهلها المريس». □ ووردت الإشارات نفسها تقريباً عند المقريزي حيث قال: «كان أهل مصر يُسمُّون من سكن من القبط بالصعيد المريس»□، وعن مدينة الأقصر ذكر أنه يقال «إنّ أهلها المريس»□.

وقد تناولت المصادر العربية - التاريخية والجغرافية والقواميس العربية، كما في الجدول (1)، بلاد مريس، وحدّدت موقعها وحدودها. غير أن المصادر لم تتفق على بداية الحدود الشمالية لبلاد مريس. فقد اتفق كل من اليعقوبي، والمسعودي، والزبيدي، وابن منظور، واليافعي، على أنها ممتدة داخل صعيد مصر. جعلها الزبيدي وابن منظور (من بلاد الصعيد)

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج2 ص18.

□. المصدر نفسه، ج2 ص22.

□. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ج1 ص42.

□. المصدر نفسه، ج1 ص 40.

□. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان لبنان، (د. ت)، ج1 ص161.

□. المصدر نفسه، ص254

دون تحديد لموقعها في بلاد الصعيد، بينما وضعها المسعودي في أعالي الصعيد على حدود مصر، فذكر: «أن أهل مصر يسمون أعالي الصعيد إلى بلاد النوبة مَرِيس.. البلد المتصل بمملكته [ملك مُقُرة] بأرض أسوان يعرف بمريس».□ أما اليافعي فقد جعلها «قرية من قرى مصر».□ وذكر كل من اليعقوبي، والمقريزي، أن سكان مدينتي إسنا والأقصر بصعيد مصر يطلق عليهم المريس.

- **جدول (1): ما ورد في المصادر العربية عن موقع مريس**

الحدود الشمالية	امتداد الحدود داخل بلاد النوبة	الحدود الجنوبية
أعالي الصعيد (المسعودي)	بأرض النوبة (المسعودي)	بيستو -جنوب الشلال الثاني- آخر قرى مريس (ابن سليم)
من بلدان الصعيد (الزبيدي، ابن منظور)	جزيرة ببلاد النوبة (ابن منظور)	
قرية من قرى مصر (اليافعي)	أدنى بلاد النوبة التي تلي أسوان (أبو حنيفة)	بين بلاد النوبة والسودان (اليافعي)
من مدن الصعيد (اليعقوبي، المقريزي)		
البلاد المجاورة لأسوان (المسعودي)		
البلد المتصل بمملكة مُقُرة بأرض أسوان (ابن سليم)		

الجدول من إعداد المؤلف

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق.

□. اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، (موقع الوراق).

ونخلص من ذلك إلى أن المصادر العربية المبكرة والمتأخّرة قد وضّحت أن الصعيد الأعلى من أرض مصر، كان تابعاً لبلاد مريس، وأن سكان بلاد الصعيد من منطقة الأقصر جنوباً كان يطلق عليهم (مريس)، مما يعني أن تلك المناطق كانت تعرف ببلاد مريس. وبناءً عليه فإن الحد الشمالي يبدأ -كما أعلاه- من بلاد صعيد مصر، ويمكن تحديده بمنطقة الأقصر. أما حد مريس الجنوبي فقد وضعه ابن سليم ـ الذي مر بالمنطقة ـ بوضوح في مدينة بيستو عند الشلال الثالث، والتي قال عنها: «وهي آخر قرى مريس، وأول بلد المُقُرة».[1]

ونقل مسعد عن دي فيار أن حدود مريس الجنوبية كانت تنتهي في مدينة المقس الأعلى عند الشلال الثاني، وأن بيستو تمثّل آخر امتداد للغة الكنوز. وهذا لا يتفق مع عبارة ابن سليم الصريحة التي وضحت أن مدينة بيستو عند الشلال الثالث: «هي آخر قرى مريس وأول بلد المُقُرة»، كما ذكرنا أعلاه.

وقد وردت بعض أسماء مناطق ومدن في بلد مريس، فقد ذكر ابن سليم أن مدينة بجراش -فرس الحالية- كانت عاصمة مريس[2]، وأن بلدة تقوى عند الشلال الثاني من بلاد مريس.[3] وأورد أبو صالح الأرمني عن مدينة إبريم أن بها مسكن «صاحب الجبل، وجميع من بها مريس».[4]

فبلاد مريس قبل الفتح الإسلامي كانت مقسّمة إلى قسمين: القسم الشمالي تحت الإدارة البيزنطية، يقاسمهم البليميون (البجة) إدارة بعض المناطق، والقسم الجنوبي من بلاد مريس هو مملكة نوباتيا والتي تمتد حدودها حتى الشلال الثالث، كما ذكر ابن سليم. وبالطبع فإن مملكة نوباتيا لم تكن موجودة في عصر ابن سليم، فقد ضمّتها مملكة مُقُرة بعد نحو ثمانية عقود من دخول المسلمين مصر. لكن تحديد ابن سليم بني على امتداد العنصر السكاني المريسي حتى عصره جنوباً حتى الشلال الثالث. ولما كان المريسيون هم سكان مملكة مريس، أو نوباتيا فقد وضع ابن سليم حدها الجنوبي عند نهاية هذا العنصر البشري عند الشلال الثالث.

وقد ذكرنا أن سكان هذه المنطقة ينتمون إلى الشعوب التي استقرت في المناطق الوسطى

---

[1]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية.

[2]. المصدر نفسه، ص92.

[3]. المصدر نفسه، ص 140.

[4]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

لوادي النيل، وأقامت الثقافات المبكرة منذ العصور القديمة بين صعيد مصر وموقع مدينة الخرطوم الحالية، هي ذات السلالة التي أسّست عصر الأسرات في صعيد مصر. وقد تعرّضت المنطقة لبعض الهجرات من المناطق الغربية لوادي النيل، ومن المناطق الجنوبية؛ مكونة السلالات التي أقامت حضارة كوش في حقبها المتتالية، حتى العصر المروي.

وفي القرون القليلة السابقة لفتح المسلمين مصر، اشتهرت مجموعتان من سكان هذه المنطقة هما: (البليميون والنوباتيون). ورغم أن الملك سلكو، مؤسس مملكة نوباتيا، أشار في نقشه المشهور إلى عناصر سكانية أخرى في المنطقة، إلا أنه لم يُسمِّها، بل ورد اسما البليميين والنوباتيين فقط. وقد تناولنا بشيء من التفصيل هاتين القبيلتين فيما سبق. وقد رأينا أن النوباتيين أسّسوا مملكة نوباتيا المسيحية في منتصف القرن السادس الميلادي على حدود مصر الجنوبية. وعلى هذا فإن مملكة نوباتيا قامت على أرض مريس الواقعة إلى الجنوب من أسوان.

- **مملكة مريس**

عندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص، وجدوا في بداية الأمر مملكة نوباتيا، فحاربوها ووقعوا معها الاتفاقيات كما سنوضح ذلك، ولذلك احتفظت روايات الأخباريين المبكرة بأحداث المسلمين مع مملكة نوباتيا في أرض مريس. وظلت علاقة المسلمين بأرض مريس ومملكتهم نحو خمسين سنة، قبل أن تتحد نوباتيا مع مملكة مُقُرة. وبعد اتحاد المملكتيْن لم يعد لمكة نوباتيا وجود، وأصبحت أرض مريس جزءاً من أراضي مملكة مُقُرة.

وفي القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) -أي بعد نحو قرنين من نهاية مملكة نوباتيا- بدأ تدوين كتب الفتوح والتاريخ والجغرافيا العربية وازدادت -في هذه الفترة- صِلة المسلمين ومعرفتهم بالشعوب المجاورة لهم جنوباً. وحملت تلك المؤلفات الروايات المبكرة عن حروب المسلمين والنوباتيين الذين عرفهم العرب باسم النوبة، ولم يعُد لاسمي النوباتيين ومملكة النوباتيين حياة في ذاكرة رواة الأخبار المعاصرين، لظهور المؤلفات في القرن الثالث الهجري والقرون التالية، ولذلك لم يعُد إطلاق كلمة النوبة قاصراً على سكان منطقة مريس فقط، بل توسَّع ليشمل الكثير من العناصر السكانية في جنوب مصر.

فالمصادر العربية المبكرة والمتأخرة لم تستخدم كلمة (النوباتيين أو مملكة النوباتيين)، إذ اختصر العرب كلمة النوباتيين فأصبحت النوبة، وأصبح النوباتيون يعرفون في المصادر العربية بالنوبة. وأطلقوا على مملكة النوباتيين اسم مملكة مريس، وهو اسم المكان الذي قامت

عليه المملكة. فالجاحظ الذي عاش في القرن الثالث الهجري ذكر أن «النوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام». □

وفي القرن (الـ4 الهجري /الـ10 الميلادي) بيَّن ابن سليم الأسواني -المنسوب إلى أسوان، والذي كتب تاريخ المنطقة بعد زيارتها- بوضوح الفرق بين النوبة والسكان المجاورين لهم جنوباً، فقال: «اعلم أنّ النوبة والمقرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة هم: المريس المجاورون لأرض الإسلام، وبين أوّل بلدهم، وبين أسوان خمسة أميال». □

وفي القرن الرابع الهجري أيضاً، صوَّر لنا المسعودي الوضع على حدود مصر الجنوبية قبل نهاية مملكة نوباتيا، فقال المسعودي: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما افتتح عمرو بن العاص مصر، كتب إليه بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون، فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صُرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المدعو بملك مريس المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة وغيرها من أرض النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب». □

يوضح هذا النص بصورة قاطعة أن عبد الله بن سعد حارب النوبة في أرض مريس، وأن الملك الذي وقع معه الصلح هو ملك مريس، وليس ملك دنقلة. وهنالك بعض الأدلة الأخرى التي تؤيِّد وجود مملكة مريس بعد خمسين سنة من حرب عبد الله بن سعد عام 31هـ.

فقد ذكر أبا مِنا Abba Mina الذي كتب حوالي عام (81ه/700م) سيرة بطريرك الإسكندرية إسحق (67-70ه/ 686-689م) ما يفيد وجود مملكتي مريس (نوباتيا)، ومملكة مُقُرة، ككيانين منفصلين حتى سنة (81ه/700م). وأشار إلى أن العلاقات بينهما كانت متوترة، إذ من المعروف أن المسيحية دخلت مُقُرة على مذهب الكنيسة البيزنطية، بينما تبعت نوباتيا مذهب الكنيسة المصرية. قال أبا مِنا: «في الحقيقة يوجد ملكان في المنطقة، كلاهما مسيحيان، ولكن ليس بينهما سلام، لأن واحد منهما ملك موريتانيا دخل في صلح

□. الجاحظ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 405.

□. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 90.

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 2 ص 21.

مع المسلمين، والآخر ملك مُقُرة العظيم، ولم يكن في صلح مع المسلمين». □

وقد أطلق أبا مِنا لقب (ملك موريتانيا) على (ملك نوباتيا)، كما جرت عادة بعض الكتاب الأقباط عندما يتحدّثون عن نوباتيا. فقد أورد أبا مِنا نفسه في بقية نصه الذي أشرنا إليه ما يوضح أن مملكة موريتانيا تقع شمال مُقُرة. وقد ذكر John of Nikiou الذي كتب عام (67هـ/686م) «أن بربر منطقتي نوباتيا وإفريقية يدعون بالموريتانيين». □

فنصُّ أبا مِنا الذي كتب بعد خمسين سنة من صلح عبد الله بن سعد مع النوبة، يوضِّح وجود ملكيْن، هما ملك الموريتانيين (مريس أو نوباتيا) والذي كان على صلح مع المسلمين، وإشارة الصلح هنا تعود بالطبع إلى صلح عبد الله بن سعد. والملك الثاني ملك مُقُرة والذي لم يكن في صلح مع المسلمين. ويؤيد هذا أن اتحاد المملكتيْن تم بعد حروب عبد الله بن سعد التي كانت عام 31هـ، وهو الرأي الذي قبله كثير من المؤرخين، مثل، كيروان، وعلي عثمان، وآدم.

وقد ذكر الأب ج. فانتيني، أثناء تناوله سيرة بطريرك كنسية الإسكندرية إسحق القبطي، أن هذا البطريرك بعث برسالة لكل من ملك موريتانيا (أي نوباتيا)، وملك مُقُرة، داعياً إليهما إلى التصالح بينهما، لأن كليهما مسيحيان. وكان ملك نوباتيا يمنع وصول مبعوث البطريرك إلى مملكة مُقُرة، كما يمنع وصول رسول مملكة مُقُرة إلى البطريرك عبر أراضيه. □

وبناءً عليه، استنتج فانتيني أن مملكة نوباتيا كانت ما تزال مستقلة عن مملكة مُقُرة في زمن البطريرك إسحق القبطي (70-75هـ/686-689م). وذكر فانتيني أن لوحة التدشين في كاتدرائية فرس (89هـ/707م) وضَّحت اسم ملك مُقُرة مرقوريوس باعتباره الملك الوحيد لكل من نوباتيا ومُقُرة، مما يوضِّح أن المملكتين كانتا متحدتين في عصر هذا الملك. □

وقد أورد هذا الحديث ساورس بن المقفع، لكنه نسب الرسالة من البطريرك إلى ملك الحبشة وملك مُقُرة. □ وربما اعتمد فانتيني على مصدر آخر غير كتاب ساورس، رغم أنه أورد كتاب ساورس ضمن مصادره، فقد ترجم فانتيني ونشر مجموعة من النصوص السوريانية

□. Abba Mina Vantini، Oriental Sources Concerning Nubia، p. 36.

□. John of Nikioumm، La Choronique de Jean de Nikiou، in Vantini، p. 43.

□. جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، 1978م، ص 74.

□. المصدر نفسه.

□. ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 77.

والقبطية عن النوبة. ويبدو أن فانتيني كان مطمئناً لمصدره -الذي لم يوضحه- فقد ذكر أن العلماء استندوا على هذه الرسالة في أن ملك مُقُرة كان تابعاً لطائفة الأقباط، بينما كان ملك نوباتيا تابعاً لطائفة الروم.[1]

ونعود إلى المصادر العربية التي أطلقت بوضوح (أرض مريس) على المناطق المجاورة لأسوان جنوباً، وأطلقت على مملكتها (مملكة مريس) التي حاربها عبد الله بن سعد، ووقّع معها الصُلح الذي اشتهر فيما بعد بمعاهدة البقط. وأطلقت المصادر العربية على سكان مملكة مريس اسم (النوبة)، وهو الاسم الأصلي الذي أتى من الصحراء الواقعة إلى الغرب من النيل، وهو Nobatae.

وقد استخدمت المصادر العربية اسم النوبة أيضاً للدلالة على معنى عام، ضم سكان كل الممالك المسيحية: (مريس، ومُقُرة، وعلوة). فأصبح لكلمة النوبة دلالتين، دلالة خاصة تصدق على سكان منطقة مريس. ودلالة عامة تصدق على سكان الممالك المسيحية الثلاث.

ولعل عنوان كتاب ابن سليم يشير بوضوح إلى دلالة النوبة على المعنى الخاص بأهل مريس، فقد فصَل فصلاً واضحاً بين النوبة من جهة، ومُقُرة وعلوة من جهة أخرى. وقد فعل الشيء نفسه أبو صالح الأرمني عندما تحدث عن السلطة في ممالك السودان فقال: «ملك النوبة له النوبة وأعمالها، وأرض علوة ومُقُرة والأجناس المضافة إليها».[2] فالفصل واضح بين النوبة الذين هم سكان مريس، أو مملكة نوباتيا القديمة، وبين مملكتي مُقُرة وعلوة.

وعلى هذا فإن اسم النوبة قد مر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى؛ النوباتيون: وقد أطلق على سكان مملكة نوباتيا قبل دخول المسلمين مصر.

المرحلة الثانية؛ النوبة: أطلقه المسلمون عند دخولهم مصر على النوباتيين سكان الجزء الجنوبي من بلاد مريس.

المرحالة الثالثة؛ تعميم المصادر العربية لإطلاق كلمة النوبة لتشمل سكان مناطق (مريس، ومُقُرة، وعلوة).

---

[1]. فانتيني، تاريخ المسيحية، مرجع سابق.

[2]. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 144.

- **وصف بلاد مريس**

أتى وصف بلاد مريس في بعض المصادر العربية، ولعل أكثرها شمولاً ما أورده ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، وابن سليم. فقد جاء وصف المنطقة لابن أبي الفضائل، وابن الفرات، عندما تناولا حملة السلطان المملوكي الملك الظاهر بيبرس عام (674هـ/1275م) على مملكة مُقُرة، ودخولها عاصمة المملكة مدينة دنقلة. كما ورد وصف المنطقة عند ابن سليم الأسواني (ت 386هـ/996م)، والذي دخل مملكة مُقُرة، وقابل ملكها في عاصمته دنقلة مبعوثاً من قِبَل الخليفة الفاطمي في مصر.

ويلاحظ أن المصادر العربية الأخرى التي توسَّعت في ذكر أخبار الحروب بين المماليك ومملكة مُقُرة، مثل، مؤلّفات النويري، والمقريزي، لم تتعرّض لتفاصيل سير حملة الظاهر بيبرس، كما فعل ابن أبي الفضائل، وابن الفرات.

- **جدول (2) المناطق بين الشلال الأول وبلاد العَلي**

رقم	ابن أبي الفضائل	ابن الفرات
1	جزيرة بِلاق	جزيرة بِلاق
2	لهاستة	لم يذكرها
3	يودي	يوي
4	أرض الما	أرض الماء
5	الفَيْنق	الفَتيق
6	دَمْهيت	دَمْهيت
7	هندِوا	هندو
8	دَرْبن	درتين
9	الهِرية	الهِرية
10	إقليم البرَيك ويعرف بالسبع قرى	اقليم البرَيك ويعرف بالسبع قرى
11	ويحادي	–
	بـــــــلاد العَلي	

الجدول من إعداد المؤلف

أورد كل من ابن أبي الفضائل (ت759هـ/1358م)[1]، وابن الفرات (ت 807هـ/1305م)[2]، أسماء عدد كبير من المدن والمواضع في بلاد مريس، في المنطقة الممتدة بين الشلال الأول والثاني، وقسَّماها إلى قسمين؛ القسم الشمالي من جزيرة بلاق جنوب الشلال الأول، وحتى ويحادي، وهو الموضع رقم (11) كما في الجدول (2)، ولم يعطيا اسماً لهذا القسم، والقسم الثاني أطلقا عليه بلاد العَلِي.

ورغم أن حملة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وصلت إلى مدينة دنقلة وتخطّتها جنوباً، إلا أن المعلومات المفصَّلة عن طريق الحملة التي ذكرها المؤلِّفان انحصرت كلها في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني، كما يتضح في جدول (2). وسنبدأ هنا بتتبُّع تلك المواضع بتناول المنطقة الواقعة بين الشلال الأول وبلاد العَلِي.

- **منطقة ما بين الشلال الأول وبلاد العَلِي**

يوضح الجدول (2) أسماء أحد عشر موضعاً بين الشلال الأول وبلاد العَلِي، والتي فتحها السلطان المملوكي في حملته على مملكة مُقُرة، كما ذكرها كل من ابن أبي الفضائل وابن الفرات في هذه المنطقة. ويلاحظ أن المصادر التي عاصرت حملات المماليك على مملكة مُقُرة لم تذكر أسماء المناطق التي مرّت بها الحملة، وبالتالي لم يرِدْ ذكر في تلك المصادر لهذه الأماكن. وحتى ابن سليم الذي زار هذه المنطقة لم يذكر إلا موضعَين فقط هما: جزيرة بلاق، ومدينة القصر، المجاورتين لأسوان، ثم انتقل من هنالك مباشرة إلى منطقة العَلِي.

وقد أورد كل من ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، أسماء المناطق فقط دون التعريف بها أو التعريف ببعضها، وحتى ذِكْرها لم يرد مرتباً حسب موقعها الجغرافي من الشمال إلى الجنوب. ولا يبدو أن المؤلفَين قد اعتمدا على مصدر واحد، للخلاف الواضح في الأسماء المذكورة. فقد ذكر ابن أبي الفضائل أسماء أحد عشر موضعاً، بينما ذكر ابن الفرات تسعة مواضع، كما اختلفا في كتابة بعضها كما في الأسماء أرقام 3 و5 و7 و8 في الجدول.

وإذا استثنينا جزيرة بلاق، فإنه من الصعب جداً التعرُّف على باقي المناطق، لأنها لم

[1]. ابن أبي الفضائل، المفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 252.

[2]. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 267.

ترد في المصادر العربية الأخرى. ومما يزيد الأمر صعوبة أن هذه المنطقة ترقد الآن تحت مياه بحيرة السد العالي. ولعل البحث فيما تيسّر من الكتابات التي تناولت سير قادة الكنيسة القبطية، وما تم التنقيب عنه من كتابات باللغات النوبية القديمة واليونانية والعربية، وما تم العثور عليه من مواد أثرية أخرى في المنطقة قبل أن تغمرها مياه السد يساعد في التعرُّف على بعض معالم تاريخ المنطقة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ هذه المنطقة في عصر ثقافة بلانة، وهي الفترة السابقة للعصر المسيحي، فإن نتائج الأعمال الأثارية تمدُّنا ببعض المعلومات، كما يتضح في خريطة آدمز، فقد تم الكشف في هذه المنطقة على عدد كبير من الجبانات بلغ ثلاثة وثلاثين موقعاً على طول المنطقة، وتم الكشف أيضا عن مستوطنتين إحداهما مستوطنة كبرى في منطقة كلابشة التي كانت عاصمة للبليميين (البجة) في عصر ثقافة بلانة، ومستوطنة صغرى في منطقة وادي العرب في آخر الجزء الجنوبي لهذه المنطقة. وهذان هما فقط الاسمان اللذان ظهرا على خريطة آدمز.[1]

وفي الفترة المسيحية المبكرة التي تلت عصر ثقافة بلانة، وردت أيضاً على خريطة أخرى لآدمز أسماء أربع مناطق منها مركز رئيس هو Qurta (كرته)، كما هو مكتوب في الترجمة العربية من كتاب آدمز، كما ظهرت أسماء ثلاث مستوطنات محصنة، هي من الشمال إلى الجنوب: (كلابشة، وسقمورة، وإخميندي)، ولا توجد هذه الأسماء أيضاً بين أسماء المناطق التي وردت في فتوحات السلطان المملوكي في هذه المنطقة. كما تضمنت الخريطة آثار خمس عشرة كنيسة على طول المنطقة.[2]

ويلاحظ أن الموضع الأخير رقم (11) في الجدول أطلق عليه (إقليم البريك، ويعرف بالسبع قرى). فالتعبير بإقليم يوحي بامتداده وسعته، واتفاق الكاتبين على وصفه بـ(السبع قرى)، يوحي أيضاً أنه كان منطقة كبيرة ومأهولة بالسكان لوجود سبع قرى فيه. والتعبير بقرية هنا لا يعني (القرية) بمفهومنا الحالي، باعتبارها تجمُّعاً سكانياً صغيراً محدود الموارد، ولا تتوفَّر فيها الخدمات والتسهيلات التي تكون عادة في المجتمعات الكبيرة نسبيّاً، والتي نطلق عليها مجتمعات المدن.

فمفهوم القرية في العصور الإسلامية المبكرة، والذي ورد في المصادر العربية، يختلف

[1]. وليام آدمز، النوبة رواق أفريقيا، مرجع سابق، ص361.

[2]. المصدر نفسه، ص416.

عن مفهومنا الحالي. فالقرية كانت تطلق على المجتمعات الكبيرة نسبياً، والتي نطلق عليها اليوم اسم المدن. فالقرآن الكريم وصف كلاً من مكة والطائف بالقرية في الآية الكريمة: «وَقَالُوا لَوْلا نزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ».[1]

وورد استخدام القرى في كتب الجغرافيا العربية المبكرة للتجمعات السكانية الكبيرة كالمدن. فياقوت الحموي عرف الكورة بأنها كل منطقة تشتمل: «على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، كقولهم: دارا بجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد».[2]

وأتى استخدام القرية في المعاجم العربية المبكرة مرادفاً لاستخدام الكَفْر، قال الجوهري: «والكَفْرُ أيضاً: القَرْيَةُ»[3] والكَفر يستخدم مرادفاً للمدينة أيضاً، فياقوت وصف مكاناً يسمى بـ(كفر بيا) بأنه «مدينة بإزاء المصيصة على شاطىء جيحان».[4] فكفر بيا أو قرية بيا وصفت بأنها مدينة على نهر جيحون المشهور في المصادر العربية في آسيا الوسطى. فوصف إقليم البريك بالسبع قرى لا يعني القرية بمفومها الحالي، بل يشير لتجمعات سكانية كبيرة يمكن إطلاق اسم المدن عليها.

ولما كانت هذه المنطقة مجاورة للمسلمين، واستقر بعضهم عليها منذ وقت مبكر، كما كانت ضمن منطقة التجارة المفتوحة، حيث يسمح للتجار المسلمين دخولها، فإننا نتوقّع أن يؤدي ذلك إلى نموٍّ وتطوّر النشاط العمراني، أكثر مما كان عليه في السابق. ويبدو أن الأسماء القديمة السابقة لتطوُّر هذا النشاط الجديد قد تغيَّرت إلى أسماء جديدة خلال القرون التي سبقت حكم أسر المماليك في مصر. وفي الوقت نفسه يبدو معقولاً أيضاً أن تكون الأسماء التي وردت في المصادر العربية قد دخلها بعض التحريف أو التبديل، لأنها وصلت إلى المؤلفين عبر الروايات الشفاهية التي تتعرّض غالباً للتغيُّر مع الوقت. ويظهر ذلك بوضوح في اختلاف أسماء بعض المواضع التي نقلها المؤرّخان ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، مع العلم أن الفرق الزمني بين وفاة المؤرخَين نحو خمسين سنة فقط.

أما ابن سليم، الذي مر بالمنطقة في طريقه إلى دنقلة، فلم يورد -فيما وصلنا من

---

[1]. القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: 31.

[2]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج1 ص118.

[3]. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح في اللغة، (موقع الوراق)، ج 2 ص 118.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج2 ص482.

معلومات عنه- إلا منطقتين، كما ذكرنا، هما جزيرة بلاق ومدينة القصر المجاورتين لأسوان. ومن المعروف ان كتاب ابن سليم (أخبار النوبة، والمقرة، وعلوة، والبجة، والنيل) مفقود، لم يتم العثور عليه، وما وصل لنا منه هو ما نقله عنه المؤرخون المتأخرون. والجزء الأكبر مما وصل إلينا جاء في كتاب المقريزي□. فربما تناول ابن سليم بعض الأماكن الأخرى في هذه المنطقة ولم يدوِّنها المقريزي.

ذكر ابن سليم أن جزيرة بلاق هي آخر حصن للمسلمين، وأن «أول بلاد النوبة قرية تعرف بالقصر».□ وبيَّن أن المسافة بين جزيرة بلاق وأسوان تبلغ خمسة أميال، وبينها وبين القصر ميل واحد. وعلى هذا التحديد فـ(جزيرة بلاق والقصر) متجاورتان. وقد اتفقت أغلب المصادر العربية في تحديدها لموقع كل من جزيرة بلاق ومدينة القصر، كما ذكرت المصادر أنه يوجد عدد كبير من المسلمين بجزيرة بلاق، وأنها آخر بلد الإسلام، وأن مدينة القصر هي حد بلاد النوبة، ويتم فيها تبادل البقط مع المسلمين.

وذكر ابن سليم أن مدينة القصر تعتبر الباب لدخول بلاد النوبة، ووضح أنه توجد بها مسلحة، كما ذكر اليعقوبي أن مدينة القصر محصَّنة بسور من حجارة.□ والمَسلحة كما يقول ابن منظور المراد بهم «القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، سموا مَسْلَحة لأنهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنهم يسكنون المَسْلَحة، وهي كالثغر، والمَرْقَب يكون فيه أقوام يَرْقُبون العدوَّ لئلا يَطْرُقَهم على غَفْلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهَّبوا له، والمَسالحُ مواضع المخافة. فمدينة القصر كانت بمثابة الثغر لبلاد النوبة، يرابط بها الجنود لحماية حدودهم».□

ويلاحظ أن المصادر العربية، مثل اليعقوبي والمسعودي، وصفا القصر بأنها مدينة، بينما تناولها ابن سليم باعتبارها قرية، حيث ذكر أن «أول بلاد النوبة قرية تعرف بالقصر». فوصْف ابن سليم للقصر بالقرية، لا يعني القرية بمفهومها الحالي كما وضحنا أعلاه، فالقرية في التراث العربي تصدُق على التجمُّعات السكانية الكبيرة.

وقد أشار ابن حوقل إلى جزيرة بلاق وكتبها (أبلاق) بألف قبل الباء، وذكر أنه فتحها

□. المقريزي، الخطط والآثار، وهو الجزء الذي نقله مسعد في كتابه: المكتبة السودانية.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 91 – 93.

□. اليعقوبي، التاريخ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 13.

□. ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج 2 ص 486.

عبد الله بن أبي سرح عام 32هـ. ووصفها بأنها: «مدينة في وسط ماء النيل، ثابتة في وسط الماء، منيعة كالجزيرة، وبينها وبين أسوان ستة أميال، وبحذائها على النيل من جهة المشرق مسجد الرِّويني وقصر آليه، وتحت المسجد بيعة النوبة، وهو آخر حد الإسلام، وأول حد النوبة».

وأورد مسعد معلومات دقيقة عن جزيرة بلاق، جاء فيها أنه كانت تعرف ناحيتان باسم بلاق في منطقة الشلال جنوبي أسوان. الناحية الأولى جزيرة تقع على بعد عشرة كيلومترات جنوب أسوان، اسمها المصري القديم (بيلاك)، واليوناني (فيلي) والقبطي (بيلاخ) والعربي (بِلاق). وبالجزيرة الكثير من المعابد، وتعرف اليوم باسم جزيرة القصر. أما الناحية الثانية التي عُرفت باسم بلاق بلدة تقع على الشاطئ الشرقي للنيل، إليها تنتهي السفن المبحرة شمالاً وجنوباً. ووضح أن جزيرة بلاق وقرية القصر في المصادر العربية تعودان لهذين الموضعين. وقد تناولت المصادر موضعاً آخر بهذا الاسم نتناوله لاحقاً.

وصف ابن سليم الشلال الأول، كاتباً عن صعوبة الملاحة فيه، إلا للخبراء الذين يعرفون المنطقة جيداً، وذكر أن المسافة بين الشلالين الأول والثاني، عشر مراحل، ووضَّح أن هذه هي المنطقة التي يدخلها المسلمون و»يتصرفون فيها، ويتجرون في أعلاها، وفيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية». فالمسلمون مسموح لهم بالإقامة والتجارة وحق التملُّك في هذه المنطقة.

ويبدو مقبولاً أن تكون هذه هي المنطقة التي حدث فيها النزاع بين ملك النوبة وبين المسلمين الذين اشتروا ضياعاً من مواطني مريس، إذ احتج ملك النوبة لدى الخليفة العباسي المأمون عند زيارته لمصر أن رعاياه من النوبة لا يملكون حق الملكية والتصرُّف في تلك الأراضي، لأنها ملك للملك، وما هم إلا عبيد للملك. فأحال الخليفة القضية للقضاء.

. ابن حوقل، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص59.

. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، ص12، نقلاً عن محقق كتاب (النجوم الزاهرة).

. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، .

وقد أورد المسعودي[1] ونقله المقريزي[2] اتفاق المسلمين مع المريسيين الذين اشتروا منهم تلك الضياع، بأن لا يقروا بالعبودية لملكهم عندما يسألهم القاضي عن ذلك. ولما لم يقروا بالعبودية لملكهم، أصبحوا أحراراً في التصرُّف في ممتلكاتهم، وحكم القضاء بصحة البيع. ولعل في هذه الحادثة، إذا افترضنا صدقها، ما يلقي الضوء على طبيعة علاقة المواطنين في مملكة مقرة بملكهم، تلك العلاقة التي جرت العادة باعتبارها علاقة عبودية. كما تلقي هذه الحادثة أيضاً ضوءاً على العلاقات بين ملوك مقرة والمسلمين، وسبل حل المشاكل بينهما.

وإشارة ابن سليم لوجود مسلمين من أهل مريس لا يتحدثون العربية يدل على قِلَّة انتشار الإسلام في المنطقة، ويعني ذلك أيضاً قِلَّة عدد المسلمين المستقرين في المنطقة من غير أهل مريس. لأن انتشار الإسلام يصاحبه دائماً انتشار اللغة العربية، فعدم انتشار اللغة العربية مؤشر على قِلَّة عدد المسلمين الناطقين باللغة العربية في المنطقة. كما يلاحظ أن ابن سليم لم يُشِرْ لوجود مسجد في المنطقة، والمسجد الذي أشار إليه ابن حوقل يوجد داخل حدود المسلمين.

ووصف ابن سليم هذه المنطقه بأنها: «ناحية ضيقة، شظفة، كثيرة الجبال، أعلاها أوسع من أدناها». ووضح بأن النيل أعلى من مستوى الأراضي الزراعية، ولذلك اختلف نظام الري عنه في مصر حيث الري الفيضي. أما هنا -كما ذكر- فالمساحات المزروعة محدودة «وزرعها الفدانين والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب». وتحدَّث عن الدورة الزراعية الصيفية والشتوية، واستخدام الزبل سماداً للأرض، حيث يزرعون «الدخن، والذرة، والجاورس، والسمسم، واللوبيا»، وأشار إلى أن القمح عندهم قليل، بينما يتوفَّر الشعير، ووضح وجود شجر النخيل، والكروم، والمُقْل وهو شجر الدوم.[3]

- **بلاد العَلِي شمال الشلال الثاني**

أطلقت المصادر العربية بلاد العَلِي على القسم الجنوبي من بلاد مريس، والواقعة بين الشلالين الأول والثاني. وتبدو البداية الشمالية لحدود بلاد العَلِي واضحة فيما ذكره ابن الفرات عند تناوله المواضع جنوبي أسوان، فقال بعد الموضع رقم 10 (إقليم البريك)،

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج2 ص22.

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مصدر سابق، ج2 ص296.

[3]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق.

ورقم 11 (ويحادي)، «ويلي هذه بلاد العلا».[1] كما قدّر أبوصالح الأرمني أن المسافة بين أسوان وبلاد العُلا ثمانية عشر يوماً.[2] ويلاحظ أن أبا صالح كتب العُلا بضم العين وبالألف في آخر الكلمة.

ولم يحدِّد كل من ابن أبي الفضائل وابن الفرات الحد الجنوبي لبلاد العَلِي، ولكن ورد تحديدها عند أبي المحاسن حيث ذكر أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس فتح «من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق، ويلي هذه البلاد بلاد العَلِي، وجزيرة ميكائيل، وفيها بلاد وجزائر الجنادل».[3] ويبدو من هذه الصياغة أن بلاد العَلِي تنتهي عند جزيرة ميكائيل في منطقة الشلال الثاني.

كما يتضح الحد الجنوبي لبلاد العَلِي أيضاً من اليمين التي حلفها ملك مقرة عند هزيمته أمام حملة السلطان الظاهر بيبرس عام 674هـ/1275م، والتي وافق بعدها ملك مقرة أن يكون دخل «بلاد العلى والجبل خاصّاً بالسلطان». فقد اقتطع هذا الجزء الواقع شمال الشلال الثاني، والذي كان يمثِّل منطقة التجارة المفتوحة مع المسلمين من دخل ملك مقرة وأعطي لسلطان مصر.

ويلاحظ أن ابن الفرات هنا قد كتب (العلى) بالياء المقصورة[4] بينما كتبها بالألف (العلا)،[5] وفي كلا الموضعين لم يضبطها بالشكل. ولم يتفق المؤرخون في كتابة هذا الاسم، فابن أبي الفضائل وأبو المحاسن ضبطاها (العَلِي)، بينما ضبطها أبوصالح (العُلا)، وقد اتبعنا هنا ضبط ابن الفرات وأبو المحاسن (العَلِي).

وتتميَّز مواضع منطقة العَلِي عن المواضع الواقعة إلى الشمال منها بأن مواضع بلاد العَلِي المذكورة في المصادر العربية، معروفة ومشهورة في تاريخ الممالك المسيحية في السودان، ما عدا اثنين فقط هما أدمة وطمد رقمي 1 و2 في الجدول (3). وهذا بعكس ما ورد عن المواضع الواقعة جنوب الشلال الأول، حيث تعرَّفنا على موضعين فقط من أحد

---

[1]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 267.

[2]. الأرمني، تاريخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 147.

٣. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 385.

[4]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[5]. المصدر نفسه، ص 267.

عشر موضعاً التي وردت في المصادر، وهما جزيرة بلاق ومدينة القصر.

- **جدول (3) أسماء مدن ومناطق بلاد العَلِي**

رقم	ابن أبي الفضائل	ابن الفرات	ابن سليم
	بـــــلاد العَلِي		-
1	أدمة	أدَمة	-
2	لم يذكرها	طمد	-
3	ألدو	ألدو	أدواء
4	إبريم	ابريم	قلعة ابريم
5	دَندال	دندال	قلعة أخرى
6	بوفَراس	وبوحراص	بجراش
7	جزيرة ميكائيل (رأس الجنادل)	جزيرة ميكائيل (وبها بلاد)	-

الجدول من إعداد المؤلف

إن المدن والمواقع في الجدول (3) مرتبة حسب ورودها في المصادر، ويلاحظ في ترتيبها عدم الالتزام باتباع الموقع الجغرافي من الشمال إلى الجنوب، أو العكس. فترتيب هذه المواقع من الشمال إلى الجنوب كالآتي: (إبريم، وألدو، وبوخراس، وجزيرة ميكائيل). وقد افترضنا موقع دندال قرب إبريم، كما سيأتي، وأدمة وطمد لم يعرف موقعهما. وسنتناول الحديث عن هذه المواضع بهذا الترتيب.

يعتبر قصر إبريم من المدن المهمة في بلاد العَلِي من منطقة مريس، فقد أسّس فيه الرومان قلعة لحماية حدودهم الجنوبية في مصر. وقد تناول عدد من المصادر العربية منذ القرن الرابع الهجري (الـ10 الهجري) أخبار قصر إبريم، لأنه كان يمثل خط الدفاع الأول أمام قوات المسلمين التي حاولت غزو مملكة مُقُرة. ففي عام 345هـ/956م أغار على المنطقة محمد بن عبد الله الخازن في عصر الدولة الإخشيدية. وهذه أول حملة ذكرتها المصادر العربية، مثل النويري، وابن الفرات، والمقريزي. دخلت جنوب أسوان، ووصولت إلى إبريم، وافتتحتها، وسبت أهلها.

وكان دخول المسلمين في إبريم في شكل غارات، ولم يستقروا فيها، وظلت إبريم تابعة

لمملكة مقرة، وتكرّرت غارات المسلمين عليها حتى عصر المماليك، كما سنفصّل ذلك لاحقاً عند الحديث عن العلاقات بين المسلمين ومملكة مُقُرة.

ومن المناطق التي ورد ذكرها في أرض مريس بين الشلالين الأول والثاني (دندال)، وهو الموضع الذي ذكره كل من ابن الفرات وابن أبي الفضائل (رقم 5 في الجدول (3)، ويبدو أن هذا الموضع هو نفسه جزيرة دندان التي أغار عليها الأكراد، كما ذكر أبو شامة[1]، عندما كانوا مقيمين في قصر إبريم لبعض الوقت في عصر الدولة الأيوبية. وهو أيضاً الموضع نفسه الذي ورد تحت اسم ديدان، والذي أقطعه ملك مقرة إلى قبائل الشام مكافأة لها على وقوفها ضد العمري الذي كان يحارب ملك مقرة أثناء الصراع بينهما، كما ذكر المقريزي.[2]

وقد ورد اسم مدينة بجراش بصور مختلفة في المصادر، فهي بجراش عند ابن سليم في النسخة المطبوعة عند مسعد، وبوخراس في نسخة ابن سليم في موقع الوراق، وجاءت بوفراس عند ابن أبي الفضائل، وبوحراس عند ابن الفرات، كما في الجدول، وباخَرَس Bakharas في تاريخ جون الأفسوسي.[3] وقد اتفقت كل الآراء أن كل هذه الإشارات ترجع لموضع واحد هو مدينة فرس الواقعة إلى الشمال قليلاً من وادي حلفا.

وتعتبر مدينة بجراش التي كانت عاصمة لمملكة مريس، من أهم مدن منطقة شمال الشلال الثاني. وأصبحت بعد اتحاد مملكتي مريس ومقرة مقر حاكم المنطقة، الذي عُرِف بصاحب الجبل، والذي يمتد نفوذه حتى الشلال الثاني، كما وضح ابن سليم. ووصف أبوصالح الأرمني مدينة بجراش بأنها «مدينة المريس، وهي مدينة عامرة آهلة، وبها مقام جوسار اللابس العصابة والقرنين والسوار الذهب».[4]

ويلاحظ أنه يوجد شبه واضح بين شارات السلطة في العصر المسيحي، ثم فيما بعد في العصر الإسلامي في السودان، وبين شارات السلطة في عصر الحضارات السودانية القديمة. الأمر الذي يبرز التواصل في تاريخ سكان السودان منذ العصور القديمة. وقد وضحت نعمات عبد الجبار أن رسومات الكنائس صوَّرت والي نوباتيا وهو يرتدي الطاقية أم قرينات، وكان

---

[1]. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، في: مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 180.

[2]. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 364.

[3]. جون الأفسوسي، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 92 حاشية 3.

[4]. الأرمني، تاريخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 130.

غطاء الرأس بزوج واحد أو اثنين من القرون هو السمة البارزة لشارات سلطة الأبارش حاكم الجبل. وتواصل الدكتورة نعمات عبد الجبار أن الجذور المبكرة للقرنين ترجع إلى عصر الثقافات المبكرة في سودان وادي النيل، حيث كانت لقرون البقر مكانة واضحة في الطقوس الدينية، وكانت تدفن مع الموتى. واستمرت المكانة الدينية للقرون في عصور حضارة كوش، حيث ظهرت الطاقية إلى جانب القرنين، وأصبحتا من أهم رموز سلطة الملوك. وظلّت الطاقية تحافظ على مكانتها كرمز للسلطة في عصر دولة الفونج والفور، ولدى قادة الطرق الصوفية. وأخيراً وبعد أن فقدت مكانتها كرمز للسلطة -كما تقول نعمات عبد الجبار- تبوّأت مكاناً مرموقاً كأحد أهم عناصر الزي القومي السوداني.□

وقد أطلق أبوصالح لقب جوسار على حاكم بجراس، بينما أطلق عليه ابن سليم لقب (صاحب الجبل) كما فعلت غيره من المصادر. قال عنه ابن سليم: «من أجلّ ولاتهم لقربه من أرض الإسلام، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هدية إليه، أو إلى مولاه يقبل الجميع، ويكافئ عليه بالرقيق، ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لمسلم ولا لغيره».□

كما أشار أبوصالح إلى مدينة بوسقا وذكر أنها «مدينة حسنة كثيرة المعالم والخيرات وبها كنائس كثيرة، وكان بها مقام صاحب الجبل»□، وهو حاكم المنطقة من قِبَل ملك مقرة. ويتطلّب تحديد مواقع هذه الأماكن البحث المتأنّي في المصادر، وما توفّر من المادة الآثارية، لأن هذه المناطق أصبحت بعيدة عن متناول الآثاريين حيث ترقد في قاع بحيرة النوبة.

ومن المواضع التي تردّد ذكرها في المصادر العربية بأشكال مختلفة في كتابتها (ألدو)، حيث أشار إليها ابن الفرات بـ(ألدو أو دو)، ووردت عند المقريزي (أدَوى)، وضبطها النويري (الدَوّ)، ووضّح أنه كانت بها قلعة استولت عليها قوات الملك المملوكي الظاهر بيبرس.□ ويبدو أن (الدو)، كانت خط الدفاع الثاني جنوب قصر إبريم حتى عصر المماليك، كما سنتعرّض لها لاحقاً. وقد لعبت (ألدو) دوراً بارزاً ومهماً في تاريخ المنطقة منذ الفترة السابقة للعصر المسيحي. فقد كانت إحدى المستوطنات والمراكز الرئيسة في عصر ثقافة

□. نعمات عبد الجبار، أستاذة التاريخ القديم بكلية التربية جامعة الخرطوم، تناولت هذا الموضوع في مقال متميز.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

□. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 137.

□. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في: مسعد، المكتبة السودانية، ص 218.

بلانة، ومنذ بداية العصر المسيحي تحت اسم (جبل عدا)، ثم ظهرت بأسماء مختلفة في المصادر العربية. وأثناء الصراع بين العمري وملك مقرة، استمال ملك المقرة أعداء العمري من عرب الشام إليه، وأعطاهم إقطاعات فيها، كما ذكر المقريزي.[1]

ثم كان دور ألدو أو جبل عدا بارزاً أيضاً في الصراع بين المماليك ومملكة مقرة، ويبدو أنها كانت تتبادل مهمة قيادة الأحداث في المنطقة قبل وبعد إسلام ملوك مقرة في بداية القرن 7هـ/13م. ولخص آدمز دور القلعة في تاريخ المنطقة منذ القرن الثاني عشر الميلادي (الـ6 الهجري).[2] وقد اشتهرت في المصادر الآثارية باسم دوتاو أو مملكة دوتاو. ووضحت المصادر الآثارية أنها ظلت عاصمة لمملكة مسيحية عثر على أسماء ثمانية من ملوكها وبعض أسماء أساقفتها حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي قبل نحو عشرين سنة فقط من تاريخ قيام سلطنة سنار الإسلامية.

وهنالك جانب آخر اشتهرت به مدينة ألدو، أو ميناء أدواء، كما أطلق عليها ابن سليم الأسواني، الذي ذكر أنه «ينسب إليها لقمان الحكيم، وذو النون المصري». وسنورد ترجمة موجزة لهما بوصفهما مواطنين ينتميان لهذه المنطقة.

- **لقمان الحكيم**

وردت الإشارة إلى لقمان في القرآن الكريم في وصيته المشهورة لابنه في سورة لقمان التي تبدأ بـ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».[3] وفي الحديث النبوي روى ابن عساكر حديث ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة؛ لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن».

وذكر الطبري أن لقمان الحكيم كان نوبياً نجاراً، وروى أيضاً أنه كان راعياً، وكان قاضياً على بني إسرائيل.[4] وورد في تفسير ابن كثير «اختلف السلف في لقمان، عليه السلام: هل

---

[1]. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 364.

[2]. آدمز، النوبة رواق أفريقيا، مرجع سابق، ص471.

[3]. القرآن الكريم، سورة لقمان، الآيات: 12 – 19.

[4]. الطبرى، محمد بن جرير، تفسير القرآن المسمى «جامع البيان عن تأويل أي القرآن»، (موقع الوراق)، ج 20 ص 135.

كان نبيًا، أو عبدًا صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني».□

اتفقت أغلب المصادر العربية، مثل الطبري، والمسعودي، وابن إياس، على أن لقمان نوبيّ الأصل، ورغم أن أغلب المصادر العربية جعلت النوبة من أبناء حام بن نوح -أي نسبتهم إلى الجنس الحامي- إلا أن بعضها مثل المسعودي نسبه إلى قبيلة بني أسد السامية.□ ونسبه العصامي إلى عاد الأخرى ابن شداد -باني إرم ذات العماد- ابن عاد الأولى بن عوص بن إرم بن سام.□

ذكر المسعودي أن لقمان ولد في السنة العاشرة من ملك نبي الله داود.□ وقد نقل ابن إياس نصاً عن لقمان جاء فيه: «لقمان عبد صالح، ولم يكن نبياً.. وكان مولى لرجل قصار من بني إسرائيل من أهل مدينة أيلة.. فأقام عنده مدة ثم أعتقه، وكان ينطق بالحكمة، وكان مقيماً بمدينة الرملة، قريباً من بيت المقدس، فكان بنو إسرائيل يأتون إليه ليسمعوا منه الحكمة والموعظة. فلما اشتهر بالحكمة جاء إليه رجل من عظماء بني إسرائيل فقال: يا لقمان، ألم تكن عندنا بالأمس عبدًا لفلان؟ قال: نعم. فقال: من أين لك هذه الحكمة؟ قال: بصدق الكلام، وبترك ما لا يعني».□

وكان نبي الله داود عليه السلام يأتي إليه ليسمع منه الحكمة. قال وهب بن منبه كان من الأنبياء ثلاثة سود الألوان؛ لقمان وذو القرنين ونبي الله صاحب الأخدود.. ولم يزل بمدينة الرملة حتى مات بها ودفن بين المسجد الذي بها وبين السوق. وذكر ابن فضل الله العمري رواية أخرى حول مكان قبر لقمان فقال إنه في شرق بحيرة طبرية.□

أما ما ورد في الحديث المذكور أعلاه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة؛ لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن»، فمن المعروف أن كلمة (النجاشي) كانت لقباً لملوك الحبشة. أما بلال بن رباح مؤذن رسول

□. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء، تفسير ابن كثير، المعروف بـ«تفسير القرآن العظيم»، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ.

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص15.

□. العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبدالملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (موقع الوراق)، ج 1 ص 48.

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق.

□. ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1 ص90، ترجمة ابن وهب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

□. العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1 68، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

الله (صلى الله عليه وسلم) فكان من السابقين للإسلام وتوفي بالشام عام 20 للهجرة. وقد وصف في كتب التراجم ببلال الحبشي، ولم أرَ في كتب التراجم من نسبه إلى النوبة، ما عدا ما رواه ابن حجر العسقلاني من أنه «قيل إن بلال من النوبة».[1] وقد ذكر ابن عساكر أن بلالاً لا عقب له.[2]

- **ذو النون**

أما ذو النون المصري (ت 245هـ)، فقد تناولت الكثير من كتب التراجم سيرته بإسهاب نختصر هنا ما أورده ابن حجر العسقلاني: «اسمه ثوبان بن إبراهيم ويقال: الفيض ابن أحمد ويقال: كنيته أبو الفيض وقيل أبو الفياض».[3] وقال محمد بن يوسف الكندي: «ومنهم ذو النون بن إبراهيم الإخميمي، مولى لقريش، كان أبوه نوبياً. وقال ابن يونس: كان عالماً فصيحاً حكيماً أصله من النوبة، مات سنة خمس وأربعين ومائتين. قلت: كان ممن امتحن وأوذي لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه، كان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال وفي مقامات الأولياء».[4]

يروي الشعراني من كلام ذي النون: «إياك أن تكون للمعرفة مدعياً، أو بالزهد محترفاً، أو بالعبادة متعلّقاً، وفر من كل شيء إلى ربك. وكان يقول: كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق، لأن الحق شاهد لأهل الحق بأن الله هو الحق. وقوله الحَق، ومن كان الحق تعالى شاهداً له لا يحتاج أن يدّعي، فالدعوى علامة على الحجاب عن الحق، والسلام. وكان يقول للعلماء: أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً وبغضاً، وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد في الدنيا حباً وطلباً ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم في تحصيل المال. وكان يقول: يا معشر المريدين، من أراد منكم الطريق فلْيلقَ العلماء بإظهار الجهل، والزهاد بإظهار الرغبة، والعارفين بالصمت».[5]

أورد الصفدي ترجمة وافية للنص، وقد ذكر فيها الكثير من أقواله ووصاياه وشعره،

---

[1]. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، (موقع الوراق)، ج1 ص46.

[2]. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، (موقع الوراق) ج10 ص432.

[3]. ابن حجر العسقلاني، تبصير المنتبه، مرجع سابق.

[4]. محمد بن يوسف الكندي، تاريخ الموالي المصريين.

[5]. الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، الطبقات الكبرى، (موقع الوراق)، ج1 ص67.

نذكر منها:[1]

ومنها: «إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح».

ومنها: «سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب. فكما لا يجد الجسد لذة في الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع ذنبه».

وقال: «من لم يعرف حق النعم سلبها من حيث لا يعلم».

وقال: «الأُنس بالله من صفاء القلب مع الله».

وقال: «الصدق سيف الله في أرضه، ما وضع على شيء إلا قطعه».

وسئل عن التوبه، فقال: «توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة».

وقال: «ثلاثة موجودة، وثلاثة مفقودة: العلم موجود، والعمل به مفقود؛ والعمل موجود، والإخلاص فيه مفقود؛ والحب موجود، والصدق فيه مفقود».

سمعت إِسْرَافِيلَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ الْمِصْرِيَّ، يَقُولُ:

أموت وما ماتت إليك صبابتي ... ولا قضّيت من صدق حبك أوطاري
مناي المنى كل المنى إنت لي منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقتاري
وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي ... وموضع آمالي ومكنون إضماري
تحمّل قلبي فيك ما لا أبثّه ... وإن طال سقمي فيك أو طال إضراري
وبين ضلوعي ما لولاك قد بدا ... ولم يبد بادية لأهلي ولا جاري
وبي منك في الأحشاء داء مخامر ... وقد هد من الركن وأثبتّ أسراري
ألست دليل الركب إن هم تحيّروا ... ومنقذ من أشفى على جرفٍ هار».[2]

- **وصف ابن سليم للمنطقة**

سنتتبّع هنا ما تبقّى من وصف ابن سليم الأسواني لبلاد مريس، إضافة لما أورده عن بلاد مقرة شمال مدينة دنقلة. بدأ ابن سليم حديثه عن منطقة الشلال الثاني بمدينة تقوى، وذكر أن: «أوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى، وهي ساحل، وإليها تنتهي مراكب

[1]. الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (موقع الوراق) ج3 ص404.

[2]. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، القاهرة، 1394هـ/1974م، ج 9 ص 390.

النوبة المصعدة من القصر أوّل بلدهم». ووضّح ابن سليم أن المراكب الآتية من الشمال نحو الجنوب تنتهي لهذا المكان. كما أن التجار أيضاً لا يسمح لهم بعبور هذه المنطقة والدخول في مملكة مقرة. ويمكن فقط العبور جنوباً لمن يحمل إذناً من حاكم الإقليم المعروف بصاحب الجبل.

ووصف ابن سليم النيل في هذه المنطقة بكثرة الجنادل التي تعترض مجراه، ويصعب على السفن عبورها، كما أن البر أيضاً يصعب عبوره لوعورته. وذكر أن الرمال والجبال تتصلان بالنيل في هذه المنطقة، الأمر الذي يجعل عبورها في البر والبحر أمراً صعباً، ولذلك أصبحت ملجأ للسكان عندما يتعرّضون لهجوم من الشمال. ويفسّر هذا كيف ظلت مناطق مملكة مقرة جنوب الشلال الثاني منعزلة عن المؤثّرات الإسلامية والعربية لعدة قرون حتى فتح المماليك هذا الباب في القرن الثالث عشر الميلادي (الـ7 الهجري).[1]

ولم يذكر ابن أبي الفضائل، وابن الفرات مدينة تقوى عندما وصفا خط سير حملة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إلى دنقلة، كما أوردنا سابقاً، وتحدثنا عن هذه المنطقة تحت اسم جزيرة ميكائيل، ووصفها ابن أبي الفضائل بكثرة الجنادل.[2] بينما وصفها ابن الفرات بأنها «رأس جنادل النوبة، وهي كثيرة الأوعار، وفي وسط البحر».[3] بينما تحدّث عنها النويري تحت اسم جزائر ميكائيل[4] مما يوضّح أنها كانت عدداً من الجزائر. ويؤيد ما ذكره النويري وصْف ابن الفرات لها بإن «بها بلاداً»[5]، كما أضاف بعد ذكره لجزيرة ميكائيل (جزائر الجنادل)، مما يوضح أن المنطقة كان بها عدد من الجزر على طرفي الشلال.

ووضّح ابن سليم أن منطقة تقوى تابعة لأرض مريس، وهي آخر حدود إدارة صاحب الجبل جنوباً. كما ذكر ابن سليم شُحَّ مواردها الزراعية، فنخلها وزرعها قليل، ومعظم أهلها يعتمدون على السمك في غذائهم. غير أنها كانت غنية بموارها التجارية، فهي المنطقة التي يتم فيها التبادل التجاري بين المسلمين وأهل مملكة مقرة. ووصف ابن سليم صاحب الجبل والي المنطقة بأنه «من أجلّ ولاتهم، لقربه من أرض الإسلام». ووضح بأن العبور منها شمالاً

---

[1]. ابن سليم الأسواني، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص93-97.

[2]. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص252.

[3]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 261 و267.

[4]. النويري، نهاية الأرب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص226.

[5]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 276.

غير مسموح به إلا بإذن خاص من الوالي.

وإلى الجنوب من مدينة تقوى، وعلى بعد ست مراحل منها، تقع مدينة المقس الأعلى (عكاشة)، والتي كانت مركزاً تجارياً وعسكرياً مهماً. فقد كانت ترابط بها فرقة عسكرية (مَسْلَحَة) كما في مدينة القصر بالقرب من أسوان، ولا يتبع واليها لصاحب الجبل، بل تابع للملك في دنقلة. وذكر ابن سليم أنه شديد الضبط للمدينة، «حتى أنّ عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحي، وأوهم أنه يفتش عليه، حتى يجد الطريق إلى ولده ووزيره».[1]

ولا يسمح لأحد أن يعبر المقس الأعلى جنوباً إلا بعد الحصول على إذن خاص من الملك. وبالطبع فإن ذلك لا يتيسّر إلا للوفود أو السفارات الرسمية، ولا يتيسّر ذلك للتجار أو غيرهم من عامة المسلمين. وكانت عقوبة من لا يلتزم بذلك -كما عبر ابن سليم- «القتل كائناً ما كان». وواصل ابن سليم «وبهذا الاحتياط تتكتّم أخبارهم حتى إنّ العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم، فلا يعلمون به».[2]

والمقس الأعلى، هي آخر المناطق التي يتم البيع فيها بالدينار، ففي مناطق ما بعد الشلال الثاني يتم البيع عن طريق المقايضة بالرقيق، والمواشي، والجمال، والحديد، والحبوب. ويوجود في هذه المنطقة (السنباذ). ذكر الزبيدي «السُّنْباذَجُ بالضم فسكون النُّون وفتح الذال المعجمة: حَجَرٌ يَجْلُو به الصَّيْقَلُ السُّيوفَ وتُجْلَى به الأسنانُ والجَوَاهِرُ». وضح ابن سليم «أن السنباذ الذي يخرط به الجوهر، يخرج من النيل في هذه المواضع، يُغطس عليه فيوجد جسمه بارداً مخالفاً للحجارة، فإذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرف».[3]

وبعد المقس الأعلى تقع مدينة ساي، وصفها ابن سليم بأنها: «جنادل أيضاً، وهي آخر كرسيهم، ولهم فيها أسقف وفيها بربا».[4] وبربا يعني بها آثار قديمة. وتعتبر مدينة ساي من المدن القديمة في المنطقة، والتي يرجع تاريخها إلى النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد. ولذلك لاحظ ابن سليم الآثار القديمة (بربا) فيها.

فقد كانت صاي مدينة مهمة في تاريخ المنطقة القديم، فكانت من أهم المراكز التجارية في مملكة كوش -التي عرفت عند المؤرخين بمملكة كرمة- في الألف الثالث قبل الميلاد.

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[2]. المصدر نفسه.

[3]. الزبيدي، تاج العروس، مصدر سابق، ج1 ص1438.

[4]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

ويرى آدمز أنها وبناء على ما نُقِّب فيها من آثار لا تقل أهمية في المجال التجاري عن مدينة كرمة عاصمة المملكة. وظلت من المدن المهمة بعد سقوط مملكة كرمة، وظهرت ضمن المستوطنات الصغرى بعد انهيار مملكة مروي.

وفي العصر المسيحي كانت مدينة صاي كرسي أسقفية في مملكة مقُرّة. وقد ذكر فانتيني أن مملكة مقرة كان بها خمسة كراسي أسقفية في «دنقلة، وصاي، وشنقير -التي يظن أنها قرب أبو حمد- وكلمة، ومركي»، وذكر أن هذين الموقعين الأخيرين ربما كانا في بلاد المحس.□

وأطلق ابن سليم على المنطقة الواقعة جنوب مدينة صاي (ناحية سقلوذا)، ووصفها بأنها «أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام في السعة والضيق في مواضع، والنخل والكرم والزرع وشجر المقل، وفيها شيء من شجر القطن، ويعمل منه ثياب وخشة، وبها شجر الزيتون».□ ويرى كراوفورد أن سقلوذا هي منطقة السكوت الحالية.□ وذكر ابن سليم أن معنى سقلوذا السبع ولاة، أي أنها منطقة واسعة غنية وكثيرة السكان. ووضح أن تحت واليها ولاة آخرين خاضعين له.□

ووفقاً لما نقلة المقريزي عن ابن سليم، فإن هذه هي المنطقة الإدارية الثالثة لمملكة مقرة، كانت الأولى منطقة الجبل، والثانية منطقة المقس الأعلى، ثم سقلوذا المنطقة الثالثة، ويُعَيِّن ملك مقرة ولاة هذه المناطق. وتقع في هذه المنطقة قلعة إصطفون، ووضح ابن سليم أنها أول الشلال الثالث، ووصف وعورة هذا الشلال، وشدة انحدار المياه فيه. ذكر أنه على بعد ثلاثة أبرد توجد مدينة يستو، وذكر أنها: «آخر قرى مريس، وأول بلد مقرة، ومن هذا البلد إلى حد المسلمين لسانهم مريسي، وهي آخر عمل متملِّكهم».□

والبريد -كما في لسان العرب لابن منظور- كلمة فارسية الأصل وتجمع على بُرد، والبريد يساوي اثني عشر ميلاً.□ فمدينة يستو أو بستو كما تكتب أحياناً تقع على بعد ستة

□. فانتيني، تاريخ المسيحية، مرجع سابق، ص53.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

□. Crawford، The Fung kingdom of Sennar ، op، p. 24.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

□. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

□. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج3 ص82.

وثلاثين ميلاً من إصطفون. وهذا المقياس بالميل العربي القديم، وهو يختلف في طوله عن الميل الإنجليزي المعروف حالياً.

ووضح ابن سليم أن يستو هي آخر مدن مريس، وأول بلد مقرة. فإذا افترضنا أن ابن سليم قصد أن يستو آخر مدن مريس من الناحية السكان، إذ ينتهي عندها اللسان المريسي، ويبدأ لسان أهل مقرة، نقف أمام باقي الجملة الذي يقول: «وهي آخر عمل متملِّكِهم»، ومن الواضح هنا أن الضمير في كلمة (متملِّكِهم) يرجع إلى أهل مريس، أي أن يستو آخر مُلْك حاكم مريس. وقد تواتر في المصادر، وكما ذكر ابن سليم نفسه، أن حاكم منطقة مريس، الذي يطلق عليه صاحب الجبل، كان والياً على المنطقة الواقعة شمال الشلال الثاني، وهو تحت طاعة ملك مقرة. فكيف نفسِّر ما قاله هنا من أن يستو آخر مناطق سلطة متملك أهل مريس؟.

يلاحظ أن المصادر العربية بما فيها كتاب ابن سليم، لا تطلق على حاكم منطقة مريس لقب ملك، بل تُطلق عليه صاحب الجبل. وقد أطلق عليه ابن المقفع لقب الأبرخس.[1] وهو كما علّق مسعد يعني نائب الملك.[2] ووضّح أبو صالح الأرمني شارات السلطة التي كان يلبسها وهي العصابة والقرنان والسوار، ويدل كل ذلك على أهمية خاصة لحاكم الجبل.[3]

ويقودنا هذا إلى التساؤل: هل كان حاكم الجبل من سلالة ملوك نوباتيا التي دخلت في اتفاق أو صلح مع مملكة مقرة، ودخل ملوكها تحت طاعة دنقلة عندما واجهها هجوم المسلمين، واحتفظوا بسلطاتهم المحلية على بلاد مريس، كما حدث بين العبدلاب وملوك سنار؟. من الواضح أن بلاد مريس كانت تمتد حتى الشلال الثالث، ولا بد أن ذلك المكان كان آخر حدود سلطة ملوك نوباتيا قبل دخولها في اتحاد أو تحالف مع مملكة مقرة. فهل عبارة ابن سليم (متملكهم) تلك ترجع إلى ما كان عليه الحال قبل اتحاد المملكتين؟، وأن المقريزي لم ينقل نص ابن سليم كاملاً؟.

على كل حال مسألة وحدة أو تحالف مملكتي نوباتيا ومقرة تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة، متى تم ذلك التحالف أو الوحدة؟، وكيف كانت شروطه؟، وهل كان صاحب الجبل من سلالة ملوك نوباتيا، تتوارث أسرته السلطة؟، وهل كانت لهم علاقة بمملكة

---

[1]. ابن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص82.

[2]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص136.

[3]. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص136.

دوتاو والتي ظلت قائمة في المنطقة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي؟.

ويلاحظ بوضوح أن المواضع التي تعرّضت لها المصادر العربية في أرض مريس يقع معظمها بين الشلالين الأول والثاني. فهل كانت هذه المنطقة معروفة للرواة أكثر من باقي أرض مريس الواقعة بين الشلالين الثاني والثالث؟. قد يبدو هذا معقولاً، لأن هذه المنطقة شهدت كثافة سكانية أكبر من المنطقة الثانية في فترة ما قبل سقوط مملكة المقرة.

ويوضح الجدول (4) -من خلال ما تم القيام به من تنقيب آثاري- الأوضاع العمرانية في منطقة مريس في فترة مملكة مُقُرة بالمقارنة مع الفترات السابقة واللاحقة لها. يتضح من الجدول أن منطقة شمال الشلال الثاني (منطقة رقم 1)، ومنطقة جنوب الشلال الثاني (منطقة رقم 2)، لم يختلفا كثيراً في العمران في فترة ما قبل سقوط مملكة مروي. فقد وجدت آثار خمس مستوطنات مسلحة في كل منطقة. وانفردت المنطقة رقم (2) بوجود آثار مدينة واحدة. بينما تم العثور على آثار عدد كبير من المعابد في المنطقة رقم (1)، مما يوضِّح احتمال أن عدد سكانها كان أكبر من المنطقة الثانية.

- **جدول رقم (4) العمران في منطقة مريس ما قبل العصر المسيحي وبعده**

الفترة الزمنية	مدن	مستوطنات محصنة	قرى	معابد	كنائس	جبانات كبرى	جبانات صغرى
منطقة شمال الشلال والثاني (رقم 1)							
ما قبل سقوط مروي	–	5	–	10	–	–	–
عصر بلانة		3	5	–	–	3	59
عصر مملكة المقرة	4	4	3	–	33	–	–
ما بعد سقوط المقرة		4	1	–	3	–	–
منطقة جنوب الشلال الثاني (رقم ٢)							
ما قبل سقوط مروي	1	5	–	4	–	–	–
عصر بلانة	–	3	4	–	–	2	21
عصر مملكة المقرة	–	–	2	–	13	–	–
ما بعد المقرة		14	2	–	1	–	–

الجدول من إعداد المؤلف

يبدو أن الوضع العمراني لم يتغيّر كثيراً في فترة ما قبل سقوط مروي والفترة التالية لسقوطها وهي فترة ثقافة بلانة. فقد تم التنقيب عن آثار ثلاث مستوطنات مسلحة في كلتا المنطقتين وخمس قرى في المنطقة رقم (1)، وأربع قرى في المنطقة رقم (2). إلا أن عدد المدافن التي تم تنقيبها في المنطقة رقم (1) فاقت تلك التي تم تنقيبها في المنطقة رقم (2) مما قد يشير إلى الزيادة في عدد سكان المنطقة الأولى عن ما كان عليه الحال في عصر ما قبل بلانة.

واختلف الوضع كثيراً في عصر مملكة مُقُرة إذ ازداد العمران بصورة واضحة في الجزء الشمالي من منطقة مريس (رقم 1) حيث قامت المملكة المسيحية الأولى. فقد وجدت آثار أربع مستوطنات مسلحة وأربع مدن وثلاث قرى و33 كنيسة. أما في المنطقة رقم (2) جنوب الشلال الثاني فقد تم التنقيب فقط على قريتين و13 كنيسة، مما يشير إلى الفرق في العمران بين المنطقتين. وقد يفسر هذا العدد الكبير من أسماء المواضع التي تمركزت في منطقة ما بين الشلالين الأول والثاني في المصادر العربية.

ووصف ابن سليم الأسواني منطقة ما بعد مريس الواقعة جنوب الشلال الثالث، حيث تبدأ منطقة بقون، ويرى كراوفورد أنها منطقة المحس الحالية. وذكر ابن سليم أن اسمها (بقون) يعني العجب، وذلك لحسنها، وأطنب في وصفها، فذكر أنه لم ير «على النيل أوسع منها، وقدّر سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل، الجزائر تقطعه، والأنهار منه تجري بينها على أرض منخفضة، وقرى متصلة، وعمارة حسنة بأبرجة حمام، ومواشٍ وأنعام وأكثر ميرة مدينتهم منها، وطيورها النقيط والنوبي والببغاء، وغير ذلك من الطيورٍ الحسان، وأكثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية».

ويواصل ابن سليم قائلاً: «وكنت معه في بعض الأوقات، فكان سيرنا في ظل شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة، وقيل: إنّ التمساح لا يضرّ هناك، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة». ثم بعد بقون تأتي منطقة سفد بقل وهي عند كراوفورد منطقة شمال دنقلة الأصلية وتمثل دار الجوابرة، وصفها ابن سليم بأنها: «ناحية ضيقة شبيهة بأوّل بلادهم، إلا أنّ فيها جزائر حساناً، وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان، والكنائس، والأديار، والنخل الكثير، والكروم، والبساتين، والزرع، ومروج كبار فيها إبل وجمال صهب مؤبلة للنتاج، وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأنّ طرفها القبليّ يحاذي دنقلة مدينتهم».

وذكر ابن سليم أن المسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان. فإذا

كانت المسافة بين دنقلة وأسوان خمسين مرحلة، فإن المسافة بين دنقلة وأول بلد علوة تكون أكبر من ذلك. وفي كل الأحوال فإن ذلك يعبِّر عن اتساع هذا الجزء من أرض مملكة مقرة في أعين ابن سليم، خاصة وأنه لم يدخله في رحلته. ويتضح من وصف ابن سليم للمنطقة أنها تمتّعت بموارد زراعية وحيوانية غنية. فقد أشار لوجود عدد كبير من القرى، والضياع، والجزائر، والمواشي، والنخل، والشجر، والمقل، والزرع، والكرم، في هذه المنطقة، وأضاف ابن سليم أن في هذه الأماكن جزائر عظاماً مسيرة أيام، فيها الجبال، والوحش، والسباع، ومَفَاوز يخاف فيها العطش، وقال إن ثروات هذه المنطقة تساوي أضعاف ما في الجانب الذي يلي أرض الإسلام.

وبيَّن ابن سليم أن النيل ينعطف من هذه النواحي إلى مطلع الشمس، وإلى مغربها مسيرة أيام، حتى يصير المصعد كالمنحدر، وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف: بـ(الشنكة،) وهو بلد يعرف بـ(شنقير)، ومنه خرج العمري، وتغلّب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان، وفرس البحر، يكثر في هذه المواضع، ومن هذه الموضع طرق إلى سواكن، وباضع، ودهلك، وجزائر البحر، ومنها عبر من نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة، وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً، وقطنوا هناك، وهم على حدتهم في الرعي واللغة، لا يخالطون النوبة، ولا يسكنون قراهم، وعليهم والٍ من قبل النوبة.[1]

وقد تضمنت هذه الفقرة عدداً من الإشارات المهمة مثل: منطقة تعدين الذهب في شنقير، حيث وصل العمري، وعلاقة مملكة مقرة التجارية عبر طريق هذه المنطقة، ووجود بعض عناصر البجة (الزنافج في المنطقة). ومن المعروف أن وادي العلاقي الذي اشتهر كمصدر مهم للذهب في تلك الفترة يمتد نحو الجنوب الشرقي، حتى يكون قريباً من النيل عند منطقة أبي حمد. وهي المنطقة التي وصلها العمري في بحثه عن الذهب.

وقد بدأ اهتمام المسلمين بمناطق الذهب كما ذكر ابن حوقل عندما عاينوا آثار عمل الرومان في هذا المعدن أثناء حربهم للبجة عام 232هـ، وعاد المسلمون بعد نهاية تلك الحرب إلى مناطق التعدين، ثم تكاملت القبائل العربية في تلك المناطق عام 238هـ.[2] وقد تناول المقريزي بالتفصيل في كتابه (المُقَفَّى)، قدوم العمري للمعدن، وأحداث الصراع

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 67 – 68.

بينه وبين مملكة المقرة، والذي دام وقتاً طويلاً، وصاحبه النزاع بين ابن ملك مقرة وقائد الجيش، ودخول العمري في ذلك الصراع، ونشوب صراع بين القبائل العربية في جيش العمري.[1]

وأخيراً انتهى الصراع بهزيمة العمري، وتقهقره على النيل، حتى وصل بالقرب من أسوان، وكان ابن طولون حاكم مصر في ذلك الوقت قد أرسل جيشاً إلى أسوان، وظل يراقب أحداث الصراع بين العمري وجيوش مقرة. ولما قدم العمري بالقرب من أسوان اشتبك مع جيش ابن طولون وهزمه، لكنه لقي حتفه غيلة على يد بعض أعوانه. ومن الجدير بالملاحظة أن ملك المقرة أقطع بعض جنود العمري من الشاميين الكثير من المناطق، جنوب الشلال الثاني في منطقتي أدندان وجبل عدا، عندما انفصلوا من جيش العمري، ولم توضِّح المصادر ما آل إليه حالهم بعد نهاية الصراع.

وقد أشار ابن سليم في الفقرة أعلاه إلى الطرق التي ربطت مملكة مقرة بمواني البحر الأحمر في (باضع، وسواكن، ودهلَك)، كما أشار لوجود قبيلة الزنافجة البجاوية في المنطقة، ووضًح أنهم تابعون لممكة مقرة.

سكان السودان..
والأصل الحامي للشعوب في المصادر العربية

ناقشنا فيما سبق أصول النوبا، والنوباتيين، والبليميين، وتوصلنا من خلال ما توفّر من المصادر إلى أنهم ينتمون إلى الجنس الأسمر القديم في منطقة شمال أفريقيا منذ عصر ما قبل قيام حضارات وادي النيل، وأنهم كانوا يستقبلون من وقت لآخر موجات سكانية من الصحراء الواقعة إلى الغرب من النيل. ونود هنا مواصلة ومتابعة ما ورد في المصادر العربية عن أصول السكان، ويقودنا ذلك إلى التراث اليهودي الذي ربطت المصادر العربية بينه وبين أصل سكان السودان.

صنّفت المصادر العربية سكان أفريقيا والسودان من خلال التصنيف اليهودي المشهور، والذي يجعل كل سكان العالم من سلالة أبناء نوح الثلاثة: (حام، وسام، ويافث)، كما جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس. وقد ذكر الطبري أن النوبة والحبشة وفزان والهند

---

[1]. المقريزي، المُقفى، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص ص 355 – 371.

والسند، وأهل السواحل في المشرق والمغرب من سلالة حام بن نوح.[] ووضّح ابن سليم أن أكثر أهل الأنساب ينسبون النوبة إلى حام بن نوح.[]

وأورد ابن خلدون آراء بعض المؤرخين في هذا الصدد فذكر أن «النوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله المسعودي، وقال ابن عبد البر إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر بن حام، والزنج من ولد زنجي بن كوش، وأما سائر السودان فمن ولد قوط بن حام، فيما قاله ابن عبد البر، ويقال هو قبط بن حام»[])

ومن المعروف أن الكتاب المقدس يحتوي على قسمين، القسم الأول هو العهد القديم، والذي يبدأ بسفر التكوين، وهو بداية توراة نبي الله موسى عيه السلام، مروراً بالتراث اليهودي حتى عصر المسيح عليه السلام، والقسم الثاني هو العهد الجديد، ويحتوي على التراث المسيحي، وهو الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، وهو مقسَّم إلى أسفار وإصحاحات مثل الأجزاء والسور في القرآن الكريم. والقسم الثاني يتضمن التراث الميسحي وهو: الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل و13 رسالة لبولس، ورسالتان لبطرس، وثلاث رسائل ليوحنا ورؤياه ورؤيا يهوذا.

وفيما يتعلّق بسكان العالم، فقد جاء العهد القديم في سفر التكوين: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافثَ. وحام هو أبو كنعان. وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض»[]. وهؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم[]، ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان.

ويمكن تلخيص ما جاء في المصادر العربية المبكرة حول تكوين شعوب العالم فيما أورده الطبري والقلقشندي في الآتي:

أبناء سام هم:

العرب والأنباط واليهود والبربر، (وهم الأمازيغ وبعضهم جعلهم أبناء حام).

أبناء يافث وهم:

[]. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج 1 ص 67.

[]. مسعد، المكتبة السودانية، مرحع سابق، ص 98.

[]. ابن خلدون، كتاب العبر، مرجع سابق، ج 6 ص198.

[]. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيتان 18-19.

[]. سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الأية 32.

شعوب أوروبا كلها، وباقي الشعوب الأسيوية كلها ما عدا الكنعانيين والهنود.

أبناء حام وهم:

مصرايم وكنعان وكوش.

أ. مصرايم، أبو المصريين، وفي رواية أخرى أن المصريين من العمالقة أبناء عمليق بن لاوز بن سام .

ب. كنعان، أبو الكنعانيين في منطقة الشام.

ت. كوش، أبو الهنود والبربر (على بعض الأراء)، وكل الشعوب السوداء في إفريقيا، مثل، فزان، والزنج، والزغاوة، والنوبة، والحبش.

وعن أبناء حام ورد الآتي في سفر التكوين[1]:

«وابتدأ نوح يكون فلاحاً، وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم».

وأورد الطبري عن أبناء حام، وتكرّر في المصادر العربية الأخرى: »ويزعم أهل التوراة أن ذلك لم يكن إلا دعوة دعاها نوح على ابنه حام، وذلك أن نوحاً نام فانكشف عن عورته، فرآها حام فلم يغطِّها، ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوباً فواريا عورته. فلما هبَّ من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث فقال: ملعون كنعان بن حام، عبيداً يكونون لإخوته. وقال: يبارك الله ربي في سام ويكون حام عبد أخويه. ويقرض الله يافث ويحل في مساكن حام ويكون كنعان عبداً لهم». ويواصل الطبري في الموضع نفسه: «إن نوحاً دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده، ودعا ليافث بأن يكون الملوك من ولده، وبدأ بالدعاء ليافث وقدّمه في ذلك على سام. ودعا على حام بأن يتغيَّر لونه ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث، قال: وذكر في الكتب أنه رقّ على حام بعد ذلك فدعا له بأن يرزق الرأفة من إخوته».[2]

---

[1]. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيات 20-27.

[2]. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج1 ص 125.

وهنالك رواية عربية في هذا الصدد أوردها الصحاري عن ابن الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما رَقَدَ نوحٌ في السفينة انكشفت عورَتُه فنظرَ إليها أهلُ السفينة فاستحبوا أن يَسْتُروه ولم يَجترئ عليه أحدٌ بذلك لمكانه من الله عزّ وجلّ، فنظر إليه ابنُه حام فضَحِك ولم يَسْتُره، فلما نظر إليه سام قام وسَتَرَه عليه ثيابه، فأوحى الله إلى نوح بذلك، فقال نوح لحام: يا حام نظرت إليّ عُرياناً فلم تَسْتُرني وقد بدت عورتي إلى الناس؟ كَشَفَ الله عَوْرَتَك وعَوْرَة وَلَدك من بَعْدك. وجعلهم عُرَاةً يكونون ما بقي منهم أحد. وأذلهم لوَلَدِ سام، وجعل الله المُلْكَ والنبوة في ولد سام إلى يوم القيامة. فاستجابَ الله له فلم يَجْعَل مِن ولد حام ولا يافث نَبيّاً، ولا يجعله إلى يوم القيامة». [1]

تبدو عدم صحة الحديث جلية بيّنة، لأنه يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات توضّح أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله لكل الأمم باختلاف أعراقهم على مدار تاريخ البشرية، فلم يكن الرسل حكراً على الجنس السامي. فكل سكان البوادي والحضر والغابات وغيرها أرسل الله إليهم رسلاً من أنفسهم وبلسانهم، كما توضّح عدد من الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: «لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ». [2] وقوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ». [3] وقوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». [4]

وقد ذكر الطبري في تفسير أن (نذير) و(هاد)، في الأيتين السابقتين المقصود بهما الرسل. وقوله تعالى «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً»[5]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم»[6]. وأن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر، أو يأتيه من الله بيِّنة. وفي الآية الكريمة يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول (محمد صلى الله عليه

---

[1]. السمعاني، عبد الكريم بن محمد المروزي، كتاب الأنساب، (موقع الوراق)، ج 1 ص 23.

[2]. سورة الرعد، الآية: 36.

[3]. سورة فاطر، الآية: 24.

[4]. سورة الرعد، الآية: 7.

[5]. سورة الإسراء، الآية: 15.

[6]. الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج 17 ص 402.

وسلم): «وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً»[1] وتوضح الآية أن عدد الرسل الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن ليس هو عدد الرسل الكلي الذين أرسلهم الله للناس في مختلف العصور والأماكن، إذ يوجد عدد من الرسل لم يذكرهم الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في القرآن الكريم. فهؤلاء الرسل المذكورون من العرب أو من اليهود الذين كانوا يساكنون العرب في بلادهم، أو من المناطق القريبة من شبه الجزيرة العربية، والذين كانت للعرب معرفة بهم. ونخلص من ذلك أن الحديث المنسوب إلى النبي الكريم الذي جعل النبوة في نسل سام إلى يوم القيامة يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم، وبالتالي فهو حديث يجب رده وعدم الأخذ به، ويمثّل الروايات التي تعكس بعض المواقف العنصرية المتأثرة بالتراث اليهودي ضد الشعوب السوداء في التراث العربي.[2]

ويلاحظ أن الرواية العربية جعلت الملك والنبوة في نسل سام. أما ما يتعلّق بالتقسيم العبري السامي والحامي لسكان العالم فهو تقسيم ساد بين المسلمين المبكرين، وتبعه الكثيرون في العصر الحديث، وبخاصة مؤيدو الاستعمار الغربي لتبرير استعبادهم للشعوب الملونة. ولا يعترف علماء الأجناس بهذا التقسيم. ولا أظن أننا بحاجة إلى التعليق على نظرة اليهود العنصرية تجاه السود موثقة من تراثهم المقدس الذي جعل السود عبيداً لأبناء سام، كما جاء في سفر التكوين «فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم».[3]

وإلى جانب كل ذلك دعونا نرى كيف يحكم الغربيون على العهد القديم من الكتاب المقدس. فالعهد القديم المعروف حالياً عبارة عن ترجمات بلغات كثيرة دون وجود النص الأصلي بلغته أو لغاته التي أوحي بها إلى أنبياء بني إسرائيل.[4] والمعلومات الواردة في هذه الترجمات لا ترجع إلى أصل واحد. فهنالك الأصل العبري المشهور الذي ترجم إلى اليونانية في القرن الأول الميلادي، وهي الترجمة المشهورة بالترجمة السبعينية والتي قام

---

[1]. سورة النساء، الآية: 164.

[2]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم «المعروف بتفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ، يقول: «إن عدد رسل الله لخلقة مائة واربعة وعشرين ألفاً» ج 1ص 85.

[3]. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيتان 25 و26.

[4]. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني؛ الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968م، ص 32.

بها سبعون حبراً، ويعتقد أن هذه الترجمة قد أوحي بها من الله سبحانه وتعالى. وفي القرن الثالث الميلادي أخرج أوريجن نصّاً آخر للتوراة، وفي القرن الخامس الميلادي أخرج جيروم الترجمة الشائعة للتوراة اليوم.

ويقول ابن حزم إن اليهود السامرية لهم توراة غير التوراة التي بيد باقي اليهود، ويعتقدون أنها التوراة الصحيحة، وأن التوراة التي بأيدي اليهود الآخرين مبدّلة ومحرفة.[1] أما رأي المسلمين في هذه المسألة، فقد ورد في أكثر من آية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى في سورة البقرة آية 25، وآل عمران آية 78، والنساء آية 46، والمائدة آية 13 و41. فقد وضحت هذه الآيات كيف أن اليهود يحرفون كتابهم المقدس، ويضيفون إليه ما ليس فيه. وهكذا يتضح أن ما ورد في الكتاب المقدس والتراث اليهودي عن تقسيم سكان العالم إلى ساميين وحاميين لا يعتد به، وبالتالي فما نقلته المصادر العربية عن ذلك التراث من أن النوبة ينتسبون إلى حام بن نوح لا يعتد به أيضاً.

ويبقى لدينا من روايات كتب التراث العربي ما ورد عن انتساب النوبة لقبيلة حمير اليمنية السامية. فقد ذكر ابن سليم: «ويقال: إنّ سلها جد النوبة، ومقري جدّ المقرة من اليمن. وقيل: النوبة ومقري من حمير»[2]، أما ياقوت الحموي فقد فصل بين الأسر المالكة النوبية والشعب النوبي، وذكر أن «ملوكهم يزعمون أنهم من حمير»[3].

والروايتان يبدو عليهما الضعف الواضح من صياغتهما، فابن سليم عبًر بـ(قيل)، بينما عبًر ياقوت بأن الملوك (يزعمون)، مما يساعد على عدم الأخذ بهما، إلا أننا وزيادة في التأكيد نورد هنا بعض النماذج من كتابة التاريخ في المصادر العربية لمعرفة الطرق التي اتبعها أولئك المؤلفون للحصول على المادة التي دوّنوها، والمصادر التي استندوا عليها في جمع تلك المادة، لكي نتمكّن من فهم ما ورد في تلك المصادر فهماً صحيحاً يساعدنا على تقييمه، والوقوف على مدى مصداقيته، ليس فيما يتعلّق عن نسب النوبة فقط، بل في المعلومات الكثيرة والمتنوِّعة التي غطّت مساحات زمنية ومكانية واسعتين من تاريخنا.

المادة التي وردت في مصادر التراث العربي المبكر عن تحركات الشعوب وتواريخها وأنشطتها السياسية الاقتصادية الاجتماعية أتت في كتب متنوّعة المواد والعناوين، بعضها

---

[1]. ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ص 177 و 202 و297.

[2]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 98.

[3]. ياقوت الحموي، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص166.

تحت اسم التاريخ، والأغلبية العظمى تحت عناوين أخرى، مثل المعارف، والأخبار، والبلدان، والمسالك، والممالك، والعجائب والغرائب في البر والبحر.. وغيرها. ولم تميّز تلك المصادر بين المادة التاريخية وغير التاريخية. فقد دونت -إلى جانب الأحداث التاريخية- ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر التراث الشعبي لتلك المناطق التي كتبت عنها. ولم تميّز بين أحداث التاريخ، وذلك التراث الشفاهي، وقصص البطولات والأساطير المتداولة بين الناس.

ومن بين تلك الروايات التي تناولت النوبة، ما رواه النويري عن أخبار أحد ملوك اليمن وهو الريان بن الوليد قال: «وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش.. استعد لغزو ملوك الغرب فخرج في تسعمائة ألف، واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته، ومرّ بأرض البربر فأجلى كثيراً منهم. فلم يمر بأمة إلا أبادها وأثر فيها، إلى أن بلغ بلد النوبة فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دنقلة فأقام بها علماً وزبر عليه اسمه وميسره».[1]

ولنترك حكمنا على مثل هذه الروايات لابن خلدون فنرى رأيه في ما ورد في المصادر العربية عن غزوات ملوك اليمن أفريقيا حيث قال: «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب. وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأوّل، وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل، غزا أفريقية وأثخن في البربر، وأنه الذي سماهم بهذا الاسم.. ومن هذا ذهب الطبري، والجرجاني، والمسعودي، وابن الكلبي، إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير، وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح»، ويواصل ابن خلدون: «وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل أفريقش، وكان على عهد سليمان (عليه السلام)، غزا المغرب ودوّخه، وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب، ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع.. وأنه ملك الموصل وأذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة».[2]

ويلاحظ هنا أن ذا الأذعار، كما ورد هنا، كان في عصر سليمان، وأنه حكم قبل أفريقش. وفي بداية النص أعلاه ورد أن أفريقش كان في عهد موسى، ومن المعروف أن موسى سبق

---

[1]. النويري، نهاية الأرب، مرجع سابق، ج 4 ص 96 - 97.

[2]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق.

سليمان بزمن طويل، فكيف حكم ذو الأذعار قبل أفريقش؟.

ويواصل ابن خلدون: «وأنه بعد [ذا الأزعار] ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس إلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند، وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها، فأثخنا في بلاد الصين، ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد (...) وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوّخ بلاد الروم ورجع. وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة».
ويواصل ابن خلدون عن ما ورد عن ملوك اليمن: «وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمساً وعشرين سنة، وكان يسمّى تبعاً وكان مؤمناً فيما قال السهيلي، ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة.. ثم ملك من بعده أفريقش بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو الذى ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سميت.. وترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري، والجرجاني، والمسعودي، وابن الكلبي، والسهيلي، وجميع النسّابين. ثم ملك من بعد أفريقش أخوه العبد ابن خمس وعشرين سنة، وكان على عهد سليمان بن داود أو قبله بقليل وغزا ديار المغرب».[1]

ويكفينا هنا حكم ابن خلدن الذي بدأ به النص حيث قال: «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب». فالمؤلفون الأوائل لم ينشغلوا بتحقيق الخبر، وكانت براءة ذممهم في ذكر أسماء رواتهم أو مصادر معلوماتهم، أما التحقُّق من صدق الرواية أو مصداقية المصدر فهي مسؤولية القارئ، وعليه التحقُّق من المصدر والحكم على الخبر أولاً قبل الاحتجاج به.

ويشير ابن خلدون إلى الأوضاع السياسية في تلك الفترة، وكيف أنها تعارض مع ما ذكر من حُكْم وتوسّعات ملوك اليمن فقال: «وقد كان بتلك الأعمال العمالقة، وكنعان بالشام، والقبط بمصر، ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم يُنْقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم، ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال. وأيضا فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزْودة والعلوفة للعساكر كثيرة. فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة

[1]. المصدر نفسه.

عادة وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله. فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشد امتناعاً، فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة».

ولا أعتقد أن تعليق ابن خلدون هذا في حاجة إلى إيضاح، ولكننا نضيف أنه من بين أسباب ظهور تلك الروايات في تراث عرب الجنوب عن ملوكهم من التبابعة وغيرهم، المنافسة الشديدة بين عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة العربية. فعرب الجنوب القحطانيون كانوا أصحاب حضارة متقدّمة عن حضارة عرب الشمال العدنانيين. وعندما جاءت النبوة في قريش والتي تنتمي إلى عرب الشمال، زادت في مكانة العدنانيين، وأصبحوا يفتخرون على القحطانيين، فسعى القحطانيون لتسليط الأضواء على تراثهم الحضاري القديم قبل الإسلام، وأضفوا عليه الكثير من صفات البطولات التى اختلقها رواة الأخبار اليمنيون لترفع من مكانتهم أمام العدنانيين الذين أصبحوا السادة والحكام في العالم الإسلامي. ونقلت المصادر العربية تلك الروايات دون التحقّق من صدقها أو عدمه، كما وضح ابن خلدون.

ولنترك المؤرخ المشهور الطبري يحدّثنا عن تقييمه عندما قال: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أبناء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا».[1]

---

[1]. الطبري، تاريخ الرسول والملوك، مرجع سابق، ج1 ص3.

الفصل الرابـــع

بلاد وسكان مملكتي مقرة وعلوة

- مملكة مقُرة، أرضها وسكانها
  - الاسم مقُرة؛ المملكة وسكانها
  - مدن مملكة مقُرة: دنقلا، نوابة، بلاق، شنقير، كوشة، اللاب، الجبلين، الزغاوة، القرعان، بركامي، المصامدة
- مملكة علوة وريثة مملكة كوش
- مملكة علوة؛ أرضها وسكانها
  - مدن بلاد علوة: سوبا، الأبـواب، الجزيرة الكبرى، بلد طبلى
  - سكان بلاد علوة: العنج، الديجون، أهل تفلين، الكرنينا، مرنكة، كرسي، أندا، تكنة، نوبا النيل الأبيض، الأحديين، التبان، كنكا

مملكة مقرة، أرضها وسكّانها

▪ الاسم: مُقُرة

جرت عادة المؤرخين الكتابة عن تاريخ مملكة مُقُرة ببداية اعتناقها الدين المسيحي، وذلك لعدم توفُّر المعلومات عن الفترة السابقة للمسيحية. وقد بدأ الجيل الواعد من الآثاريين والمؤرخين بتغيير ذلك التقليد، بتكثيف العمل الآثاري الذي بدأت طلائع نتائجه في الوضوح، ونأمل أن ترى الأطوار المبكرة من تاريخ مملكتي مُقُرة وعلوة النور قريباً.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى القليل الذي ورد حول اسم المملكة (مقرة) مثل محاولة ربط الاسم ببعض أسماء الشعوب التى عاشت في المنطقة، وبخاصة منطقة الصحراء الغربية للنيل. وأكرِّر الإشارة هنا إلى أنني أرى أن فهم تاريخنا فهماً صحيحاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمناطق الصحراء الواقعة غربي النيل. وهذا الارتباط كما سبق وأن ذكرنا، بمثابة العلاقات الطبيعية بين المناطق قليلة الموارد المائية والنباتية، وبين المناطق الخصبة والغنية بتلك الموارد.

ونتناول الرأي الذي طرحه أركل، والذي ربط بين أصل كلمة مُقُرة (مقر: الميم والقاف والراء mgr) وبين أصل كلمة مَقِرة Tu - magera اسم الأسرة المالكة في منطقة هضبة تبستي في الصحراء الغربية للنيل، وكلمة Tu هي الاسم القديم لمنطقه هضبة تبستي، ومَقِرة تعني الرجل العظيم أو الرئيس. ويرى أركل أن الأسرة الحاكمة في تبستي تو-مقرة قد تردد كثيراً بين الأسر الحاكمة في المنطقة، بما في ذلك أسرة التنجر في دارفور، والتي يتضمن تراثها الشعبي صِلتها بالنيل. كل ذلك يرجِّح احتمال وجود الصِلة بين الأسرة التي أسّست مملكة مُقُرة وسكان الصحراء الغربية.[□]

ويرى كيروان أن المُقُريين ربما كانوا الجماعة نفسها التي أشار إليها سترابو في القرن الأول الميلادي باسم Meya Bapoi وأشار إليهم بطليموس في القرن الثاني الميلادي باسم Makkopai.[□]

□. Arkell، Anthony John، History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press، 1961، p. 185، 191، 200.

□. Kirwan، Notes o the Topography of the Christian Nubian Kingdoms،JEA، XXI، 1934، p 57.

ولم يحظ اسم مُقُرة في المصادر العربية بالقدر نفسه الذي حظي به اسمي النوبة وعلوة، فلم يتردَّد كثيراً في المصادر المبكرة، وأتت كتابته بصور مختلفة. فقد أتى عند المسعودي (ماقرة)، وعند ابن سليم وأبي صالح الأرمني وابن عبد السلام والمقريزي (مُقُرة) بدون ألف ولام، وعند ابن حوقل (المُقُرة) بالألف واللام، وعند ياقوت الحموي (مُقُرّى)، وعند الدِّمَشقي (مُقُرّا)، وقد تبعنا الرسم الغالب على المصادر العربية وهو مُقُرة.

▪ المملكة وحدودها

اختلفت تقديرات المصادر العربية لامتداد مملكة مقرة، فقدّره بعضهم بالأيام والليالي والأشهر، والبعض الآخر قدره بالمراحل. فقد ذكر اليعقوبي أن مُقُرة بلاد واسعة وعريضة، ومسافة ما بينها وبين علوة مسيرة ثلاثة أشهر، بينما جعل الإدريسي طولها على النيل مسيرة شهرين وأكثر، وجعلها اليعقوبي شهرين فقط. وقدَّر القزويني طول مملكة مقرة بمسيرة ثمانين ليلة، بينما قدَّرها المقريزي بمسيرة أربعين يوماً، وجعلها ابن سعيد مسيرة سبعين يوماً. أما ابن سليم الأسواني، والذي زار المملكة، فقد جعل طولها أكثر من خمسين مرحلة. هذه التقديرات المتضاربة تعكس مصادر معلومات أولئك المؤلِّفين، وهو ما يذكّرنا بأن لا نأخذ كل ما ورد في المصادر العربية باعتباره حقائق مسلَّماً بها.

أما حدودها فقد وضَّحت المصادر امتدادها على النيل جنوباً حتى حدود مملكة علوة. أما حدودها الشمالية فقد كانت تنتهي عند الشلال الثالث، قبل أن تضم إليها مملكة نوباتيا، والتي عُرفت في المصادر العربية باسم مملكة مريس. وبعد اتحاد المملكتيْن في الربع الأخير من القرن الأول الهجري، امتدت حدود مملكة مقرة -كما وضَّحت المصادر، مثل، ابن سليم والمسعودي- حتى مدينة القصر؛ والتي تقع على بعد ستة أميال جنوب أسوان. غير أن ابن سليم ذكر في مكان آخر أن: «أول بلد مقرة، قرية تعرف بتافة، على بعد مرحلة من أسوان»[1]، وأغلب الظن أنه قصد مدينة فيلة.

ولم يتردَّد اسم تافة في المصادر العربية كثيراً، فقد أشار إليها أبوصالح الأرمني، لكن لم يحدِّد موقعها، وذكر مسعد أن الملك المقري مرقوريس حوَّل معبدها إلى كنيسة عام

---

[1]. ابن سليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م، ص 91.

710 م (92هـ)□. وذكر أبوصالح أن «بمدينة تافة دير يعرف بدير أنسون»، ووصفه بأنه «دير عتيق، متقن، حسن البناء، ولذلك لم تتغيَّر معالمه على طول مدته». وأضاف «أن ملك مصر أرسل نبي الله موسى قبل نبوته لغزو مدينة تافة، ووضح أن الطريق إليها كان يمر بمناطق تكثر فيه الأفاعي والحشرات التي يصعب معها العبور، فاصطحب موسى معه الديوك والطيور، ففرت الأفاعي والحشرات من أمام الجيش عند سماعها أصوات الديوك والطيور، وتمكّن موسى من فتح المدينة وبالتعاون مع إحدى أميراتها.□

ويبدو أن امتداد مملكة مقرة شرقاً، كان منحصراً على المناطق المجاورة للنيل، إذ لم يرِد في المصادر ما يبيِّن امتداد نفوذها شرقاً، ما عدا ما ذكر عن قبيلة الزنافجة التي استقرَّت بجوارها شرقيَّ النيل، والتي كانت تحت سلطتها. وقد تناولت هذه القبيلة عند الحديث عن قبائل شرق السودان.

وأشارت المصادر العربية إلى امتداد المملكة نحو الغرب، والشمال الغربي، والجنوب الغربي، فعاصمة الدولة دنقلة، كما ذكر أبو الفداء، تقع على ضفة النيل الغربية، وأضاف: «وفي غربيِّ دنقلة وشماليِّها مدنهم المذكورة في الكتب»□، وسنلاحظ ذلك بوضوح عند تناول مدن مملكة مقرة وسكانها.

وقد تناولت بعض المصادر العربية وصف المملكة وسكانها بصورة عامة. قال القلقشندي عن النوبة: «ولون بعضهم يميل إلى الصفاء، وبعضهم شديد السواد»□، ووصفهم ياقوت الحموي بأنهم «نصارى يعاقبة، لا يطأون النساء في الحيض، ويغتسلون من الجنابة ويختتنون»□.

الختان معروف في العالم القديم في وادي النيل والشرق الأوسط. وقد دلّت الآثار المصرية القديمة على ممارسة الختان منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. وفي أفريقيا ارتبطت عادة ختان الصبيان عند سن البلوغ، وهو ما يسمَّى بطقوس العبور Rites of Passage.

□. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، المصدر السابق، ص 79 حاشية رقم 3.

□. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 146.

□. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، تقويم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 216.

□. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 286.

□. ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 165.

ومن المعروف في التراث الإسلامي أن ختان الصبيان سُنة، وقد ذكر الحاكم في المستدرك على الصحيحين أنه «قد تواترت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً مسروراً»[1] مسروراً؛ أي مقطوع حبل السُّرَّة.

ووصف المسعودي البلاد بصورة عامة، فذكر أنها أشبه باليمن، وبيَّن بعض ثروات مقرة من الإبل النجائب، والبقر، والغنم. وذكر: «لملكهم خيل عتاق، وللعامة براذين، وينبت عندهم الحنطة، والشعير، والذرة، ولهم نخل وكروم، ومقل، وأراك، وعندهم أترنج مفرط العظم»[2].

كما ورد في نسخة موقع الورا أن كل المنطقة الواقعة على طول النيل بين أسوان ودنقلة عمائر متصلة. ويلاحظ وجود الإبل العتاق في مملكة مقرة، مما يشير إلى ارتباط وامتداد المملكة في الصحراء غربيِّ النيل. وقد أشار المسعودي إلى سلاح المقريين وقتالهم، فذكر أنهم «يرمون بالنبل عن القسيِّ العربية، وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق»[3].

وذكر ياقوت الحموي أن «النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وهم نصارى أهل شدَّة في العيش، أول بلادهم بعد أسوان، يُجلَبون إلى مصر فيباعون بها.. وبين النوبة والبجة جبال منيعة شاهقة وكانوا أصحاب أوثان»[4].

مدن مملكة مُقرة

- **مدينة دنقلة**

حظيت مدينة دنقلة، عاصمة مملكة مقرة، بالقدر الأكبر من المادة التي وردت في المصادر العربية عن مدن مملكة مقرة. ورغم تواتُر كتابة اسم المدينة دنقلة بالنون، إلا أنها جاءت في بعض المصادر بالميم (دمقلة)، كما في كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم، و(الروض المعطار) للحميري، وعند المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وابن كثير في

---

[1]. الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، (موقع الوراق)، ج 9 ص 453.

[2]. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ص 49.

[3]. المصدر السابق، نقلاً عن (موقع الوراق)، ج 1 ص 495.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 165.

(البداية والنهاية). ويبدو أن هؤلاء المؤلّفين قد نقلوا عن ابن الحكم، واشتهرت كتابة الاسم بالميم، كما وردت عنده في بيت الشعر المشهور:[1]

لم تر عيني مثل يوم دمقلة والخيل تعدو والدُّروع مُثْقلة

وقد نقل القلقشندي ما أثبته أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) بأنها بالميم، وعلّق على ذلك قائلاً: «وما قاله هو الجاري على ألسنة أهل الديار المصرية».[2]

حدَّدت المصادر موقع مدينة دنقلة على الضفة الغربية للنيل، وقال الإدريسي عن سكان مدينة دنقلة أنهم: «سودان.. لكنهم أحسن السودان وجوهاً، وأجملهم شكلاً.. وطعامهم الشعير والذرة، والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المزر المتخذ من الذرة، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل، طرية، ومقدَّدة، ومطحونة، ويطبخونها بألبان النُّوق، وأما السمك فكثير عندهم جداً».[3]

وقال أبو صالح الأرمني عن دنقلة إنها «مدينة عظيمة على شاطئ بحر النيل المبارك، وبها كنائس، وأدر كبار، وشوارع متَّسعة، ودار الملك شاهقة البناء بقباب عدّة، مبنية بالطوب الأحمر، تحاكي أبنية العراق مما كان اقترحه رفائيل ملك النوبة إلى آخر سنة اثنين وتسعين وثلثمائة للعرب [392 هـ]»[4].

ويبدو أن هذا الوصف للكنائس، وللمباني، والشوارع، وصف من دخل مدينة دنقلة، وأغلب الظن أن يكون هذا وصف ابن سليم للمدينة. فالمقريزي لم ينقل وصف ابن سليم كاملاً عن مدينه دنقلة، فقد ذكر فيما نقله عن مدينة دنقلة من ابن سليم: «وذكر صفتها ثم قال: يسقفون بيوتهم بخشب الساج الذي يأتي به النيل».[5] فقد اهتم المقريزي بما تعلّق بالخشب الذي يأتي به النيل، ولم يورد ما ذكره ابن سليم عن وصف المدينة، بل اكتفى بالإشارة إلى أن ابن سليم وصف المدينة حين قال: «وذكر صفتها». فلو أخذنا بأن أبا صالح الأرمني المتوفى عام 605هـ/1208م قد أخذ الوصف عن ابن سليم، فيكون هذا الوصف

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 8.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

[3]. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 129.

[4]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، مصدر سابق.

[5]. ابن سليم، كتاب تاريخ النوبة، مصدر سابق، ص 97.

وصف من شاهد المدينة، مما يؤدي إلى مصداقية الوصف وقبوله.

وتبدو دنقلة مدينة كبيرة ذات تخطيط منتظم، بها كنائس متعدِّدة، وبها شوارع واسعة، ومنازل كبيرة، والقصر الملكي مشيَّد بالطوب الأحمر، وذو مبانٍ عالية، يزيِّنه عدد من القباب. ووضَّح الوصف أن مباني مدينة دنقلة، وربما القصر الملكي بصورة خاصة، قد تأثَّر بأسلوب العمارة العراقية. مما يوحي بأن هذا التأثير نتج عن زيارة الأمير المقري الذي زار العراق في عصر الخليفة المعتصم (218هـ- 229هـ/ 833م - 843م)، والذي ورث أباه على عرش المملكة (259هـ -279هـ/ 872م - 892م). وبعد نحو قرن من الزمان زار الرحالة ابن سليم الأسواني مدينة دنقلة، في عهد الملك جورج الثاني (359هـ- 392هـ)، وترك لنا وصف المدينة الذي أشار إليه المقريزي ولم ينقله. وأغلب الظن أن وصف دنقلة أورده أبو صالح منقولاً عن ابن سليم.

وقد وصف القزويني أرض مدينة دنقلة بأنها «محترقة لغاية الحرارة عندهم، ومع شدة احتراقها ينبت الشعير والحنطة والذرة»، وذكر: «لهم نخل، وكرم، ومقل، وأراك، وبلادهم أشبه شيء باليمن». ووصف مساكنها بأنها «أخصاص كلها، وكذلك قصور ملكهم». وقد انفرد القزويني بوصف أهل مدينة دنقلة بأنهم «عراة مؤتزرون بالجلود»، وأضاف أن «النُّمُر عندهم كثيرة، يلبسون جلودها، والزرافة أيضاً وهي دابة عجيبة منحنية إلى خلفها لطول يديها وقصر رجليها، وعندهم صنف من الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم».[]

ومن الواضح أن معلومات القزويني عن مدينة دنقلة غير دقيقة، مثل وصفه لمساكن أهل دنقلة بأنها أخصاص كلها، وهذا يتعارض مع ما ورد عن مدينة دنقلة في المصادر العربية الأخرى، وكما وضحت الكشوفات الأثارية وجود المباني الكبيرة الواسعة ذات الطابقين في مدينة دنقلة، وسورها الضخم والعالي الارتفاع، المبني بالطوب والحجارة. وقد نقل القزويني وصف المسعودي للنوبة بصورة عامة، وجعله وصفاً لأهل مدينة دنقلة.

ومن الروايات غير الدقيقة أيضاً، ما أورده النويري من وصف الرسول الذي بعثه توران شاه، أخو صلاح الدين الأيوبي، عام 568هـ (1172م) لمدينة دنقلة، ليكشف له خبر البلاد بعد أن دخل المناطق الشمالية من مملكة مقرة حتى قلعة إبريم، وقال الرسول بعد عودته من دنقلة كما رواها النويري:

[]. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 194، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 14.

«وجدت بلاداً ضيِّقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة، ونخل صغير منه إدامهم، ويخرج الملك وهو عريان على فرس عري، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلّمت ضحك وتغاشى، وأمر بي فكويت على يدي هيئة صليب، وأنعم عليَّ بنحو خمسين رطلاً من دقيق، وليس في دمقلة عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص». [1]

ويبدو أن كاتب هذا الوصف لم يدخل مدينة دنقلة، ولم يجمع معلوماته عنها ممن دخلها، بل أورد وصفاً للمدينة وملكها من تخيُّلاته التي توضح جهله بالمنطقة وأهلها.

- **مدينة نوابية أو نوابة**

مدينة نوابية أو نوابة، من مدن مملكة مقرة الصحراوية، ولم تتّفق المصادر العربية في كتابة اسمها. فقد ورد (نوابة) عند الإدريسي في نسخة موقع (الوراق)، والذي لم يذكر معلومات عن الطبعة التي أخذ منها. وورد كذلك (نوابة) عند ابن سعيد. وكُتِب (نوابية) عند الإدريسي في النسخة التي اعتمد عليها مسعد في (المكتبة السودانية) وهي طبعة دوزي عام 1864م. وكذلك كُتِبت (نوابية) عند ابن الوردي والحميري. ويبدو من المادة التي أوردها كل من ابن الوردي والحميري أنهما نقلاها عن الإدريسي. وعلى كل حال فإن الاختلاف في الرسم بسيط ولا يغيِّر في نطق الكلمة كثيراً.

ذكر ابن سعيد أن مدينة نوابة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة دنقلة، وحدَّد كل من الإدريسي وابن الوردي بأنها تبعد عن النيل أربعة أيام. وعيَّن ابن سعيد موقعها على خط الطول ثمانٍ وخمسين درجة وثلاثين دقيقة، والعرض تسع درجات، وحدّد موقع مدينة دنقلة على خط عرض أربع درجات وخمس عشرة دقيقة. [2]

ويبدو أنه حدث خطأ في نقل النص أو طباعته. فقد تواتر في الجغرافيا العربية أن موقع مدينة دنقلة إلى الشمال كثيراً من خط عرض أربع درجات. وقد صحّح هذا الخطأ ما ورد عند القلقشندي عن موقع المدينة نقلاً عن ابن سعيد فذكر: «قال ابن سعيد: حيث الطول

---

[1]. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، (موقع الوراق)، ج 7 ص 461.

[2]. ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، (موقع الوراق)، ج 1 ص 11؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 126؛ ابن الوردي، عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 372.

ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة». [1]

ووفقاً لهذا التحديد فمدينة نوابية تقع إلى الجنوب من مدينة دنقلة بأربع درجات وإلى الغرب منها بعشرين دقيقة. وإذا قارنَّا موقع مدينة نوابية عند ابن سعيد بالمقارنة إلى مدن الزغاوة والكانم في المنطقة، نجدها تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة زغاوة التي تقع على خط عرض 10 جنوب خط الاستواء، وعلى خط طول 54، وتقع إلى الشرق من مدينة جيمي الكانمية على خط عرضها نفسه، وتفصل بينهما خمسة خطوط طول.

وبالطبع فإن تحديد الموقع بهذه الخطوط في الجغرافيا العربية المبكرة ليس بالضرورة دقيقاً مثل التحديد الحالي للمواقع، فهو بخاصة للمدن النائية تقديري في أغلب الأحيان، إلا أنه يعطي التصوُّر العام للموقع. وذهب كراوفورد إلى أن مدينة نوابية تقع في موضع جبل حرازة الحالي. [2]

وقد ذكر كل من الإدريسي وابن الوردي وصف مدينة نوابية وسكانها فذكرا: «وهي مدينة صغيرة، وأهلها مياسير، ولباسهم الجلود المدبوغة وأُزُر الصوف... وشرب أهلها من الآبار، وطعامهم الذرة والشعير، ويجلب إليهم التمر، والألبان عندهم كثيرة. وفي نسائهم جمال فائق، وهن مختتنات، ولهن أعراق طيبة، ليست من أعراق السودان في شيء. وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال، وكمال المحاسن، وشفاههم رقاق، وأفواههم صغار، ومباسمهم بيض، وشعورهم سبطة، وليس في جميع أرض السودان من المقازرة، ولا من الغانيين، ولا من الكانميين، ولا من البجة، ولا من الحبشة والزنج قبيل، شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة.. وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاثة مائة دينار وأقل من ذلك. ولهذه الخلال التي فيهن، يرغب ملوك أرض مصر فيهن، ويتنافسون في أثمانهن، ويتخّذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن». [3]

فمدينة نوابية أو نوابة من مدن الصحراء التي لا نعرف عنها الكثير، وقد أوردت المصادر العربية أن اسم النوبة أتى من اسم هذه المدينة. فذكر الإدريسي: «وإليها تنسب النوبة وبها عرفوا»، وقال ابن سعيد: «من مدن النوبة نوابة التي سموا بها»، وقال الحميري: «وإليها

---

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

[2]. Crawford، The Fung kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester، 1959، p. 26.

[3]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 126؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، (موقع الوراق) ج 1 ص 28.

ينسب النوبة وبها عرفوا[1].

واسم النوبة -كما جرت عادة العرب على تخريج الأسماء- تارة يرجعونه إلى جدهم الأكبر الذي كان يعرف بـ(نوبا)، فهم (بنو نوبة)[1]، وأحياناً يرجعونه إلى أصل عربي كما كتب ياقوت الحموي: «نوبة: بضم أوّله وسكون ثانيه وباء موحّدة، والنوب جماعة النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها، فشبه ذلك بنوبة الناس، والرجوع مرة بعد مرة، . وقيل النوب جمع نائب من النحل، والقطعة من النحل تسمى نوبة، شبهوها بالنوبة من السودان، وهو في عدة مواضع: النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر».[2]

ولكن يبدو معقولاً ارتباط اسم النوبة في المصادر العربية باسم مدينتهم، كما جرت عليه عادة المؤلفات العربية في إطلاق اسم المدينة على السكان أو العكس. (فنوابة، أو نوابية، أو نوبة)، كما ذكر ابن الوردي: «ومن مدن النوبة المشهورة نوابية، ويقال لها نوبة»، فأصبحت (نوبا) اسم المدينة والسكان. كما يقولون أهل غانة عاصمتهم مدينة غانا، وكوكو عاصمتهم مدينة كوكو، ورغم أن عاصمة مالي تذكر أحياناً باسمها (نياني)، إلا أنه يطلق عليها مدينة مالي. فهل كانت مدينة النوبا (نوابة، أو نوابية، أو نوبة) في وقت ما قبل دخول العرب مصر مدينة للنوباتيين في الصحراء، ولذلك عرف السكان بها؟.

وقد ذكرنا أن العرب عندما دخلوا مصر، وجدوا أن سكان المنطقة الواقعة على حدود مصر الجنوبية يعرفون باسم النوباتيين، فجرى الاسم في لسانهم النوبة بدلاً من النوباتيين. ولم يرد اسم مدينة (نوابية، أو نوابة، أو نوبة) في المصادر العربية المبكرة، لكنه ظهر في القرن السادس عند الإدريسي، ومن جاء بعده. فهل كانت مدينة نوابية موجودة طيلة هذه القرون، لكنها لم تصل عنها معلومات إلى المؤلفين المبكرين؟. لا يبدو هذا الافتراض معقولاً، لقرب المدينة ولاشتهارها، كما عبَّر ابن الوردي أعلاه. فمتى ظهرت المدينة إن لم تكن قديمة؟ وهل أخذت اسمها من اسم سكانها النوبة خلافاً لما ورد في المصادر العربية؟. تظل مثل هذه الأسئلة في انتظار جهود مؤسساتنا العلمية وبخاصة الأثارية منها.

- **مدينة بـلاق**

ذكرت المصادر العربية مدينتين بهذا الاسم في مملكة مقرة، إحداهما (بلاق) التي تقع

[1]. المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978م، ص 89؛ القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج 1 ص 153.

[2]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 165.

جنوب أسوان على الحدود بين مملكة مقرة ومصر، وقد تناولناها فيما سبق. ومدينة بلاق الأخرى ذكر الإدريسي والحميري الذي كتبها (يلاق) بالياء، أن موقعها عند التقاء نهر عطبرة بالنيل، وأن المسافة بين علوة ومدينة بلاق عشرة أيام في البر، وفي النيل انحداراً أقل من ذلك. وذكر الإدريسي أن «أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب، وينزلون أيضاً إلى مدينة بلاق في النيل».[1]

ووصف الإدريسي والحميري سكان مدينة بلاق بأنهم متحضِّرون، ومعايشهم حسنة، ولباسهم الأُزُر والمآزر، يزرعون الشعير والزرة، ويأتيهم التجار بالحنطة، وتتوفَّر عندهم الألبان والحيتان والبقول. وتناولا نشاط المدينة التجارى، فقد كانت مدينة بلاق مركزاً تجارياً مهماً بين علوة، والمقرة، والبحر الأحمر، وذكرا أنه يجتمع فيها تجار «النوبة والحبشة، ويسافر تجار مصر إليها، إذا كانوا معهم في صلح وهدنة». وذكر الإدريسي أن الطريق بين مدينة بلاق ومدينة مركطة في الحبشة يبلغ ثلاثون مرحلة، ومنها يصل الطريق إلى ميناء زيلع على البحر الأحمر.

- **شنقير**

رجع كراوفورد إلى ما نقل عن J. N. Vansleb في كتابه Histoire de L'eglise d'Lexandrie المفقود، والذي أُلِّف في القرن السابع عشر، إلى ما ورد عن أسقفيات مملكة مقرة وهي: كورتا (تقع على بعد 70 ميلاً جنوب أسوان)، وإبريم، وبوخارس (فرس)، ودنقلة، وصاي، وتيرمس (تالمس القديمة، كلابشا)، وسينكور Scienkur. ويرى كراوفورد أن سينكور ربما كانت هي بلد شنقير، وهو الاسم الذي لا يزال موجوداً -كما يرى كراوفورد- في اسم وادي Sengeir أو Sumgar كما عند Cailliaud وبروس، ويلتقي الوادي بالنيل عند جزيرة العُشير، كما يرى كراوفورد أن الاسم ما يزال عائشاً في اسم سنجراب Singerab جزيرة مقرات الحالية بالقرب من أبي حمد.[2]

وضع ابن سليم شنقير عند انحناءة النيل، إلى الجنوب الغربي في منطقة أبي حمد، وبها معدن الذهب المعروف بالشنكة.[3] بينما حدّد المقريزي على بعد «بعض نهار يوم» من

---

1. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 130؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق)، ج 1 ص 619.

2. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 25.

3. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 97.

النيل.□ وهو الموضع الذي حارب فيه العمري المُقريين. ويرى مسعد أن منطقة شنقير كانت أحد الأقسام الإدارية والكنسية في مملكة مقرة، وكانت فيما يبدو آخر أعمال هذه المملكة من ناحية الجنوب، ومتاخمة لمنطقة الأبواب.□

■ **مدينة كوشة**

ورد اسم كوشة عند الإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وعند ابن سعيد في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وكلاهما لم يذكر مصدره، وقد عاشا بين الأندلس، وصقلية، والمغرب العربي. ذكر الإدريسي أن كوشة من البلاد المشهورة، والقواعد المذكورة في بلاد النوبة، ووضعها إلى جانب علوة، ودنقلة، وبلاق، وحدد موقعها -وعنه نقل الحميري- بأنها موغلة في الداخل «وبينها وبين مدينة نوابة ستة أيام، وهي تبعد عن النيل يسيراً، وموضعها فوق خط الاستواء».□ وحدَّد ابن سعيد -وعنه نقل أبو الفداء والقلقشندي- موقعها بأنها جنوب غربي مدينة دنقلة.□ وذكر ابن فضل الله العمري، أن كوشة من مدن النوبة، ولم يحدِّد موقعها، كما لم يذكر مصدره.□

ووضح ابن سعيد أن مدينة كوشة هي «قاعدة زنج النوبة». وربما قصد ابن سعيد بـ(زنج النوبة)، ما وضَّحه الإدريسي، بأن كوشة في طاعة ملك دنقلة. ووصف أهلها بأنهم «قليلون، وتجاراتها قليلة»، ووصف أرضها بأنها «حارة جافة، كثيرة الجفوف جداً، وشرب أهلها من عيون تمد النيل هناك». وقد افترض كراوفورد بناءً على تحديد الإدريسي، بأنها قامت على مكان زانكور الحالية في شمال كردفان، عند بداية وادي الملك.

ويبدو هذا التحديد معقولاً، للصلات القديمة القوية بين سكان منطقة دنقلة بكردفان، والتي كانت مرتبطة ارتباطاً قوياً بالنيل شمالاً عبر وادي الملك. ويعتقد آركل أن الأسرة المروية الحاكمة بعد سقوط الدولة، تحرَّكت جنوباً، وتمكَّنت من إحياء مملكتها في مناطق كردفان. وربما ظل انتقال العاصمة إلى شمال كردفان حياً أيضا في مخيِّلة سكان الشمال،

□. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، كتاب المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 357.

□. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 97 حاشية رقم 2.

□. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 127 – 128.

□. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 11؛ أبو الفداء، تقويم البلدان مصدر سابق، ص 216؛ القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

□. العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 245.

كما يُلاحظ ذلك في مخطوطة داود كُبارا بن يوسف من أهالي وادي حلفا، والتي كتبها عن تاريخ النوبة عام 1911م. بدأ داود الفصل الأول من تاريخه في كتاب ماكمايكل تحت عنوان (عاصمة مملكة النوبة)، قائلاً: «إن العاصمة كانت جبل عبد الهادي الذي يقع بين دنقلا وكردفان وعدد من الجبال».[]

وقد أورد الدمشقي معلومات غير دقيقة عن مدينة كوشة، فقد ذكر نصَّيْن عن النوبة على نفس الصفحة، في النص الأول ذكر أنه «حكى السبحي أن للنوبة صنفان: أحدهما يقال له علوة، وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة. والأخر يسمى مقرا، وملكهم يسكن دنقلة. لا يلبسون المخيط».[] وقد اعتبر الباحثون أن كوسة الدمشقي هي مدينة كوشة التي ذكرت في المصادر الأخرى بالشين وليس بالسين.

وذكر في النص الثاني أن النوبة أصناف «وهم على ما ذكره تجار أسوان: أنج، وأزكرسا، ووالتبان، وأندا، وكنكا». ويلاحظ أنه ذكر أن النوبة صنفان: علوة ومقرة، كما في النص الأول، ثم ذكر مرة أخرى وفي الصفحة نفسها أن النوبة أصناف، وعدَّد منهم خمسة أصناف، كما في النص الثاني. ومعلومات الدمشقي عن مملكتي مقرة وعلوة جاءت مختصرة، وتبدو في صورتها العامة غير دقيقة. وقد تواترت الأخبار في المصادر العربية الأخرى، أن ملك علوة كان مستقراً في مدينة سوبة.

وقد حاول Monneret de Villard أن يجد تخريجاً لنص الدمشقي، فذكر -كما ورد لدى كراوفورد- أن الملك حوَّل عاصمته من سوبة إلى كوشة في الجنوب، تحت ضغط القبائل العربية، وقد وقف كراوفورد متردِّداً أمام النص، لأنه لم يرَ النص الأصلي، وتساءل: هل تحويل الملك العلوي لعاصمته قد ذكره المشقي، أم أن ذلك أتى كتفسير من دي فلارد؟[].

ومن الواضح أن الدمشقي لم يتطرَّق لتحويل العاصمة، كما في النص الأول أعلاه، بل أتى ذلك تفسيراً من دي فلارد. لكن لا يبدو هذا التفسير مقبولاً، لأن الدمشقي توفي

[]. MacMichael، Harold Alfred، A History of the Arabs in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd.، 1967، Vol. 2، p.324.

[]. الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 236.

[]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 27.

عام 739هـ/ 1338م، ويعني هذا أن تأليف كتابه قد سبق هذا التاريخ، ومن المعروف أن المسلمين قد بدأوا يدخلون مملكة المقرة بعد أن اعتلى عرشها أول ملك مسلم عام 716هـ/ 1316م. أي أن الفترة الزمنية بين تأليف الدمشقي كتابه، وبين بداية دخول المسلمين مملكة مقرة أقل من عشرين سنة. وكان الصراع ما يزال قائماً بين أفراد الأسرة المالكة وبني الكنز الذين تولّوا الملك في البداية، وبين القبائل العربية التي دخلت مع حملات المماليك. وإضافة لهذه الصراعات، فأقل من عشرين سنة يعتبر وقتاً قصيراً جداً، لا يسمح بانتشار المسلمين في داخل مملكة مقرة، فضلاً عن تخطّيهم لها، والوصول إلى مملكة علوة، والضغط على ملكها حتى يضطر إلى تحويل عاصمته.

والمخرج الواضح لما كتبه الدمشقي، هو أنه حدث خطأ في نقل الرواية، إما من مصادر المؤلف، أو من نقل الرواية فيما بعد. فتكون كوسة التي ذكرها الدمشقي هي كوشة قاعدة زنج النوبة التي تواترت في المصادر أخبارها. وقد تبع بعض المؤرخين افتراض دي فلارد، وفسّروا به توغل قبائل العرب المبكر في مملكة علوة، وربطوه بغير ذلك من أحداث.

وهنا يبرز سؤال مهم مفاده: ما هي الصِلة بين (كوش) اسم قاعدة زنج النوبة، وبين مملكة كوش التي قامت في مروي في منتصف الألف الثالث قبل المبلاد، وظل الاسم حيّاً -كما سنتناول ذلك لاحقاً- حتى عصر مملكة علوة المسيحية؟.

- اللاب

ذكر ياقوت الحموي موضعاً يعرف باللاب من بلاد النوبة، ولم يحدد موقعه. وذكر أنه يُجلَب منه صنف من السودان منهم كافور الأخشيدي. قال فيه المتنبي: «كأن الأسودَ اللابي فيهم»، ومنها أيضاً صندل اللابي والي إمارة عُمان.[1]

- الجبليون

ذكر ابن حوقل أنه توجد أمة تعيش غربيَّ النيل الأبيض يعرفون بالجبليين، في طاعة ملك دنقلة.[2] ولم يذكر عنهم أكثر من ذلك. وبما أن موقعهم كما ورد غربي دنقلة، فيبدو من الصعب ربطهم بمنطقة جبلية وفقاً لاسمهم (الجبليين)، لأنه لا توجد منطقة جبلية في غربيَّ دنقلة قريبة منها، إلا إذا توغلنا غرباً إلى مناطق العوينات أو تبستي، وهي مناطق

[1]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

[2]. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 75.

بعيدة عن دنقلة، ولا أظن الكاتب يربطهم بها. ومن الممكن أن لا يكون اسم الجبليين مرتبطاً بمنطقة جبلية، وبذلك ينبغي البحث عن مناطق هذه الجماعة غربيّ دنقلة في المناطق الصحراوية.

■ **الزغاوة**

تقع مناطق الزغاوة، كما وردت في المصادر العربية، بين دولة الكانم غرباً، والنوبة شرقاً. وتمتدُّ ديار كانم من بحيرة تشاد جنوباً متوغِّلة في الصحراء، وقد تراوحت حدود كانم الشمالية، على حسب قوتها وقوة الدول التي قامت في شمال أفريقيا. لكن حدودها كانت بصورة شبه دائمة، في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، ممتدة حتى النهايات الشمالية للصحراء الكبرى.

وقد ذكر ابن سعيد عند الحديث عن غدامس -على الحدود الليبية التونسية الجزائرية- وودان إلى الشرق من غدامس، وبلاد فزان، أن «الجميع الآن في طاعة ملك الكانم».□ فسكان بلاد الكانم كانوا سوداناً وبربراً. وقد وصفهم فيما بعد القلقشندي بأنهم «مسلمون، الغالب على ألوانهم السواد.. وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا.. عسكرهم يتلثَّمون».□

وإلى الشرق من بلاد كانم، وهي المنطقة الواقعة الآن على الحدود السودانية التشادية، أي دارفور وما يجاورها، مجالات الزغاوة والتاجويين. وصنَّفت المصادر الإسلامية المبكرة الزغاوة بأنهم من السودان، مثل النوبة، والبجة، والكانم أبناء كوش بن كنان بن حام بن نوح.□

وورد عند كل من الإدريسي وابن خلدون رواية يفهم منها أن مواطن الزغاوة كانت في أقصى الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، في أرض قمنورية على المحيط الأطلسي، والتي كان يسكنها قوم يقول الإدريسي عنهم: «التجار يدعون أنهم يهود وفي معتقدهم تشويش».. ويضيف الإدريسي على الصفحة نفسها أنه: «وكانت في القديم من الزمان السالف لأهل قمنورية مدينتان عامرتان.. لكن أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض، طلبوا هذه الأرض، أعني أرض قمنورية، حتى أفنوا أكثر أهلها، وقطعوا دابرهم، وبدَّدوا شملهم على البلاد.. فأفنتهم الأيام، وتوالت عليهم الفتن والغارات

□. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 28.

□. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج 1ص10 وج2 ص 315 وج3 ص268.

□. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص 168.

من جميع الجهات، فقلُّوا في تلك الأرض، وفرّوا عنها واعتصموا في الجبال، وتفرقوا في الصحارى، ودخلوا في ذمّة من جاورهم، وتستّروا في أكنافهم».

ويورد ابن خلدون أثناء حديثه عن بلاد السودان أن «أرض قمنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة، ثم مجالات زغاوة من السودان». ويتضح من النَّصَين أن مواطن الزغاوة كانت في أقصى غرب أفريقيا بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي، ولكن يفهم من نص الإدريسي، أن ذلك كان كما عبَّر، في القديم من الزمان السالف.

وبالطبع فإنه يصعب تحديد ذلك الزمان السالف، ولكن ما نقلته المصادر العربية يوضِّح أن مواطن الزغاوة منذ بداية العصور الإسلامية كان المنطقة الواقعة إلى الشرق من كانم. فابن خلدون نفسه ذكر أن «الزغاوة مجاورون للنوبة». وأعتقد أنه لم يشعر بأي تضارب بين روايتيه. لأن الرواية الأولى ترجع إلى عصور سالفة.

وذكر المسعودي أن «مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة». ونقل ياقوت الحموي عن المهلبي (ت380هـ) نصّاً طويلاً عن الزغاوة، يعتبر من أقدم وأوفى ما كُتب عنهم، ورأيت أن أثبت النص بكامله. يقول ياقوت:

«وقال المهلبي: وللزغاوة مدينتان: يقال لإحداهما مانان، وللأخرى ترازكي، وهما في الإقليم الأول، وعرضهما إحدى وعشرون درجة. قال: ومملكة الزغاوة، مملكة عظيمة من ممالك السودان، في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر، بينهم مسيرة عشرة أيام. وهم أمم كثيرة، وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة. وبيوتهم جصوص كلها، وكذلك قصر ملكهم، وهم يعظِّمونه ويعبدونه من دون الله تعالى، ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام، ولطعامه قَوَمَة عليه، سراً يدخلونه إلى بيوته، لا يعلم من أين يجيئونه به، فإن اتفق لأحد من الرعية أن يلقى الإبل التي عليها زاوُر قتل لوقته في موضعه. وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه، وشرابه يعمل من الذُرَة مقوًّى بالعسل. وزيّه

. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 32.

. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (موقع الوراق)، ج 1 ص 57.

. المصدر نفسه، ج 6 ص 199.

. المسعودي، أخبار الزمان، مصدر سابق، ج 1 ص 89.

. الحسن بن أحمد المهلبي عاش بمصر حيث ألف كتابه (المسالك والممالك) وأهداه للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ولكن الكتاب الآن مفقود.

لبس سراويلات من صوف رقيق، والتشلاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الأسماط، والخزّ السوسي، والديباج الرفيع. ويده مطلقة في رعاياه، ويسترق من شاء منهم. أمواله المواشي من الغنم، والبقر، والجِمال، والخيل، وزروع بلدهم أكثرها الذُرَة، واللوبيا ثم القمح. وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود، ومعايشهم من الزروع واقتناءِ المواشي، وديانتهم عبادة ملوكهم، يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون، ويمرضون ويصحون. وهي من مدائن البلماء، وقصبة بلاد كاوار على سمت الشرق منحرفاً إلى الجنوب».[1]

ومدينة مانان، وفقاً لرواية ياقوت عن المهلبي، من مدن الزغاوة، بينما هي عند كل من الإدريسي[2] وابن سعيد[3] من مدن الكانم، وتبدو روايتيهما أوثق من رواية المهلبي، خاصة أن معرفة ابن فاطمة -الذي نقل عنه ابن سعيد- بالمنطقة واسعة، وربما زار تلك المناطق. ومن الممكن أيضاً تفسير ما قاله المهلبي، من أن مدينة مانان من مدن الزغاوة، باعتبار أن الزغاوة كانوا من بين مؤسِّسي مملكة كانم، وربما كانت الغلبة إلى جانبهم في المراحل المبكرة من تاريخ مملكة كانم، فاعتبر المهلبي مانان من مدنهم. أما مدينة ترازكي -بهذا الرسم- لم ترد في المصادر الجغرافية الأخرى.

فمملكة الزغاوة، بناءً على وصف المهلبي في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، من ممالك السودان الواسعة المأهولة بالسكان، إذ قدَّر مساحتها بـ»خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة». ويمارس سكانها حرفتي الزراعة والرعي. وذكر ابن سعيد أن الزغاوة والتاجوين «جنس واحد، ولكن المُلك وحسن الصورة والأخلاق في التاجوين. وهم كفار عصاة على الكانمي يألفون الصحارى والجبال».

وقد جعل ابن سعيد تاجوة وليست مدينة زغاوة عاصمة أو قاعدة للزغاوة، ربما لأنه ذكر أن الملك كان بيد التاجويين، وأضاف أن مجالاتهم «ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال»[4] وامتداد قوس النيل يقصد به منطقة انحاءة النيل نحو الجنوب الغربي ثم إلى الشمال في منطقة دنقلة.

ولم تكن حدود قوس النيل واضحة لدى الجغرافيين المبكرين. فامتداد مملكة الزغاوة

---

[1]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج 2 ص 396.

[2]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 6.

[3]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 10.

[4]. المصدر نفسه، ج 1 ص 11.

كان أكبر من المسافة الممتدة على قوس النيل، وقد يوضح هذا الوصف تحديد موقع مملكة الزغاوة بأنها شرقي النوبة -كما ذكر المهلبي- أكثر من توضيح امتداد مساحتها. وذكر ابن سعيد أن مدينة تاجوة هي قاعدة الزغاوة، وقد حدَّد موقعها بخط طول 55 وعرض 14 درجة، وذكر أن أهلها مسلمون في طاعة الكانمي، وأن جنوبيها مدينة زغاوة حيث خط الطول 54 والعرض 11,5 درجة.

وأضاف ابن سعيد -محدِّداً مصدر المعلومة بابن فاطمة- أن مواطن تاجوة كانت على النيل «وإنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فإنه يكثر من مجاورة النيل فيشتد أذاه على الآدميين والخيل. ولهم عيون في الرمال، ومياه مشربة من النيل أيام الزيادة».

ويفهم من هذا أن مواطن التاجويين كانت قريبة من النيل، ربما على وادٍ يصب في النيل، وتقع مدينتهم تاجوة إلى الشمال الشرقي من مدينة زغاوة. ووفقاً لهذا التحديد فإنها تقع غربيِّ دنقلا، وعلى خط عرضها نفسها. أما الإدريسي فقد تناول الزغاوة باعتبارهم فرعين هما: الزغاوة والتاجويين، ووضع الزغاوة في المناطق الغربية من الصحراء الكبرى، إلى الغرب من فزان، رغم أنه قال إن ذلك كان «في القديم من الزمان السالف»، وذكر من مدن الزغاوة «شامة، وسغوة، ونبرنتة».

وأشار إلى أن أكثر أهلها قد انتقلوا غرباً إلى مدينة كوكو، ربما بسبب الجفاف، أو لحروبها مع النوبة. ومدينة سغوة يسكنها فرع من الزغاوة، عرفت المدينة باسمهم، وهم قبيلة سغوة. أما مدينة نبرنتة، فهي خراب بسبب الجفاف. وفيما يلي نص ما ذكره الإدريسي: «وفي بلاد زغاوة من المدن والقواعد سغوة.. ومن مدن زغاوة شامة، وهي مدينة صغيرة شبيهة بالقرية الجامعة، وأهلها في هذا الوقت قليلون، وقد انتقل أكثر أهلها إلى مدينة كوكو، وبينهما ست عشرة مرحلة. وأهل شامة يشربون الألبان، ومياههم زعاق، وعيشهم من اللحوم الطرية، والمقدّدة، والأحناش، يتصيّدونها كثيراً، ويطبخونها بعد سلخها، وقطع رؤوسها،

. استخدم الجغرافيون المسلمون خطوط الطول والعرض، وهي تختلف قليلاً عن تحديد الخطوط الحالية. فخط الاستواء لا يختلف كثيراً من موقعه الحالي، ولكن خط الطول في الجغرافيا الإسلامية يبدأ من الجزائر الواقعة بالقرب من ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلسي، ومنها يتجه شرقاً.

. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 10.

. ورد في نص ابن سعيد أن دنقلا تقع على خط عرض أربعة، ولكن يفهم من سياق ما ورد عن مواقع المدن عند ابن سعيد، وكما هو مثبت في المصادر الجغرافية الأخرى، أن هنالك خطأً ربما في النقل أو الطباعة في تحديد موقع دنقلا فجاء على خط عرض أربعة بدلاً من أربعة عشر.

وأذنابها، وحينئذ يأكلونها. والجرب لا يفارق أعناق هؤلاء القوم، بل هو فيهم موجود، وهم به مشهورون، وبه يعرف الزغاويون في جميع الأرض وقبائل السودان، ولولا أنهم يأكلون الأحناش لتقطعوا جذاماً. وهم عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة من الإبل والبقر. ولهم في هذه الجلود التي يستترون بها ضروب من القطع وأنواع من التشريف يحكمونها».

«ولهم في أعلى أرضهم جبل يسمى، جبل لونيا، وهو عالي الارتقاء، صعب، لكنه ترب، وترابه أبيض رخو، وفي أعلاه كهف لا يقربه أحد إلا هلك، ويقال إنه فيه ثعبان كبير، يلتقم من اعترض مكانه على غير علم منه بذلك. وأهل تلك الناحية يتحامون ذلك الكهف. وفي أصل هذا الجبل مياه نابعة تجري غير بعيد ثم تنقطع. وعليه أمة تسمى سغوة من قبائل زغاوة وهم قوم ظواعن رحالة والإبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة النتاج. وهم ينسجون المسوح من أوبارها والبيوت التي يعمرونها ويأوون إليها، ويتصرَّفون في ألبانها وأسمانها، ويتعيّشون من لحومها. والبقول عندهم قليلة، وهم يزرعونها وينتجونها، وأكثر ما يزرعه أهل زغاوة الذرة، وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وارقلان وغيرها».

«وفي جهة الشمال، وعلى ثماني مراحل من موضع قبيلة سغوة، مدينة خراب تسمى نبرنته، وكانت فيما سلف من المدن المشهورة، لكن فيما يذكر أن الرمل تغلّب على مساكنها حتى خربت، وعلى مياهها حتى نشفت، وقلَّ ساكنها، فليس بها، في هذا الزمان، إلا بقايا قوم تشبَّثوا بمقامهم في بقايا خرابها، حناناً للموطن. وبهذه المدينة في جهة شمالها جبل يسمى غرغة، حكى صاحب كتاب (العجائب) أن فيه نملاً على قدر العصافير، وهي أرزاق لحيّات طوال غلاظ تكون في هذا الجبل، ويحكى أن هذه الحيات قليلة الضرر، والسودان يقصدون إلى هذا الجبل فيصيدون به هذه الحيات ويأكلونها، كما قدَّمنا ذكره قبل هذا».[1]

ووصف الإدريسي التاجويين بأنهم مجوس، وحدّد موقع ديارهم بأنها متصلة بأرض النوبة. وذكر أن من بين مدنهم مدينة سمنة، وهي مدنية صغيرة. ونقل رواية عن أحد التجار المسافرين إلى أرض كوار «أن صاحب بلاق توجَّه إلى سمنة، وهو أمير من قبل ملك النوبة، فحرَّقها وهدَّمها وبدَّد شملهم على الآفاق، وهي الآن خراب، ومن مدينة تاجوة إليها ست مراحل».[2] وقد تحدَّثنا عن مدينة بلاق فيما سبق، أما مدينة سمنة فلم يحدِّد

[1]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 33 - 34.

[2]. المصدر نفسه، ج 1 ص 6.

الإدريسي موقعها، ولم أجدها في المصادر الجغرافية الأخرى، الأمر الذي جعل تعيين موقعها صعباً.

وقد رجَّح مسعد أن يكون موقعها «في تلال سيميات، على بعد عشرين ميلاً شرقيّ مدينة الفاشر الحالية، حيث تعيش جماعة تعرف بهذا الاسم، ثم انتقلت جماعات سيميات إلى حدود واداي، وهناك عرفوا باسم سيميار، ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء». []

وهذا الموقع يجعلها بعيدة جداً من النيل، إذا افترضنا أنها تقع على وادٍ يصبُّ في النيل، مثل وادي المقدم أو الملك، وهي مناطق يمكن أن نتصوَّر خروج حملة إليها من منطقة عطبرة، وقد يستبعد خروج حملة من منطقة عطبرة إلى الفاشر، ولكن ذلك لا يمنع إمكان حدوثها.

فالزغاوة التاجويون كانوا يعيشون على طول المنطقة الصحراوية، ما بين كانم والنيل. ويرى الباحثون أن الزغاوة كونوا طبقة حاكمة سيطرت على مناطق واسعة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين (الـ7-8الميلاديين)، امتدت من دارفور شرقاً، حتى كوار غرباً. واختلط الزغاوة بالهجرات المغربية التي تدفّقت على المنطقة في القرن الثاني الهجري، ونتج عن هذا الخليط شعب الكانمبو، الذي أسَّس دولة كانم في نهاية القرن الثاني الهجري. []

ويرى بالمر أن هذه الجماعات، بمختلف عناصرها، كانت تتحكَّم في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى، والواقع بين منطقة كوار شرقاً ونهر النيل غرباً، وأن واحة العوينات كانت تعرف عند عناصر الكانوري والتدا كمنطقة سكنية متوسِّطة بين بلاد كابيلا أو جابيلا، وهو الاسم الذي يمكن إطلاقه على كل عواصم البرنو. []

ولم يوضح الإدريسي سبب الحرب بين النوبة والتاجويين، وربما كان السبب هو الصراع الطبيعي بين سكان مناطق مصادر المياه الغنية والمناطق الجافة. وربما كانت أعين التاجويين ما تزال تنظر لبعض مناطق النيل بمنظار الإرث القديم عندما كان أسلافهم مستقرين على النيل واضطرهم البعوض -كما ذكر ابن فاطمة- لترك النيل إلى الصحراء.

[]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 25 حاشية رقم 4.

[]. أحمد الياس حسين، «الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب»، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة (الأم)، 1977، ص 42.

[]. R. Palmer، the Bornu Sahara and Sudan، London، 1936، p. 3.

وقبل قرنين من زمن الإدريسي أشار المسعودي في القرن الرابع الهجري (الـ10الميلادي)، لذلك الصراع بين النوبة والزغاوة، حيث ذكر أن «مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة».[1]

وقبل ذلك بأربعة قرون أشار سترابو في نهاية القرن الأول قبل الميلاد للصراع نفسه، عندما تحدَّث عن الجزيرة المأهولة السكان جنوب مروي، حيث يسكن الليبيون شواطئها الغربية، بينما يسكن المرويون مناطق الضفة الشرقية، ويتصارعون على ملكية الجزيرة وشواطئ النيل.[2] وقد ذكرنا فيما سبق أن الليبيين في المصادر الكلاسيكية، يُقصد بهم سكان المناطق الصحراوية غربي النيل، وقد أطلقت تلك المصادر على أولئك السكان أيضاً اسم النوبا.

ووصف الإدريسي التاجويين بأنهم سودان «وأنهم بشر كثير، وجمع غزير، ولهم إبل كثيرة، وفي بلادهم مراعٍ كثيرة، وهم رحّالة لا يقيمون في مكان واحد، من جاورهم يغزوهم ويغير عليهم، ويتحيَّل علَى أخذهم، وليس لهم مدن إلا مدينتان وهما تاجوة وسمية[سمنة].. هذه الأرض تتصل بها أرض الواحات الخارجة وهي الآن تعرف بأرض سنترية».[3]

■ **القُرعان**

يُعتبر القُرعان فرعاً من التّبُو، ويتحدَّثون لهجة التبو التي أطلق عليها (تبو/ قرعان)، واعتبر Keane التبو الحاليين في شمالي تشاد سلالة مباشرة من الجرمانت.[4] وقد أدّت صِلة التبو بالجرمانت، وصِلة القرعان بالتبو، إلى إرجاع أصل القرعان للجرمانت.[5] وقد أشار الحسن الوزان (ليو الأفريقي)، والذي كتب مذكراته في روما عام 1526م، إلى صحراء بيوضة باعتبارها صحراء القرعان، وقال عن مملكة النوبة: «تمتد مملكة النوبة على طول النيل متاخمة قفر القرعان جنوباً وأراضي مصر شمالاً». وذكر بأنهم كانوا في حرب مع ملك النوبة.[6]

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص 89.

[2]. Quoted by Oric Bates، the Eastern Libyans، London، 1970، p. 49.

[3]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 36.

[4]. A. H. Keane، Man past and present، Cambridge، 1899. Cited by: MacMichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، Vol. 1، p. 31.

[5]. Mac Michael، A history of the Arabs in the Sudan، op، Vol. 1، p. 54.

[6]. الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقي)، وصف أفريقيا، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 1983م، ص 180.

يوضح هذا أن القرعان، حتى مطلع القرن السادس عشر، كانوا يقطنون صحراء بيوضة، والتي كانت أمطارها -حتى ذلك الوقت- توفر وسائل الحياة. وأذكر أنه حتى عقود قليلة مضت، كنا نلاحظ اخضرار أودية صحراء بيوضة في طريقنا بالعربات من أم درمان إلى مناطق الشمال. ويؤكّد ذلك ارتباط قبيلة القرعان منذ قرون عديدة قبل دخول الإسلام بالنيل من ناحية، وبالصحراء الغربية من ناحية أخرى.

ولا يصدُق ذلك على القرعان فقط، بل على كل القبائل التي عاشت بين حدود ليبيا، وتشاد، والسودان. ولذلك ينبغي التركيز على دراسة قبائل هذه المناطق، لأنها تساعد على التعرُّف على سكان المنطقة في العصور اللاحقة.

■ **بركامي**

وهنالك جماعة أخرى من السودان بين النوبة، والزغاوة، والكانم، يُطلق عليهم بركامي، وحدَّد ابن سعيد بلادهم بأنها شمال جبل لونيا، الممتد من الشرق إلى الغرب في بلاد كوار وزغاوة، وذكر أنهم: «سودان أهل عافية، ولهم أودية بين جبال، وفيها نخل ومياه وخضر. والذين يوالون منهم بلاد الكانم مسلمون. والذين يوالون بلاد النوبة نصارى. والذين يوالون زغاوه أهل أوثان»[1].

■ **المصامدة**

المصامدة مجموعة قبلية كبيرة، مواطنها مناطق المغرب الأقصى. وقد نزحت مجموعات منها في عصر الدولة الفاطمية في القرن الخامس الهجري (الـ11الميلادي) من ديارهم نحو الشرق، واستقرّت مجموعات منهم بمصر. وكانت قبيلة المصامدة السند الذي قامت عليه دولة الموحِّدين في المغرب الأقصى، وبعد انهيار هذه الدولة أصبح المصامدة تحت رحمة الدول والقبليات بعد القرن السادس الهجري، وربما هاجرت بعض جماعاتها شرقاً مرة أخرى.

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو (ت 481هـ/ 1088م) في كتابه (سفر نامه)، إلى وجود جماعات من المصامدة مستقرين بجوار النوبة، فذكر: «وإذا سار من مصر إلى الجنوب، وجاوز ولاية النوبة، بلغ ولاية المصامدة، وهي أرض ذات مراع واسعة، وفيها دوابٌ كثيرة، وسكانها سود، كِبار العظام، غلاظ أقوياء البنية، ويكثر الجُند منهم في مصر، وهم قِباح الصورة، ضخام الجثة، يسمُّون المصامدة، يحاربون راجلين بالسيف والحربة، ولا

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق.

يستطيعون استعمال غيرها من الآلات».

وقد ذكر ناصر خسرو وجود فرقة في الجيش المصري على عهده تسمَّى المصامدة، ووصفهم بأنهم «سود من بلاد المصامدة، قيل إن عددهم عشرون ألف رجل». ورأى مسعد أنه ربما التبس الأمر على ناصر خسرو، فقصد الجنود السودانيين، وليس المصامدة كما يتضح من وصفه.

وفي واقع الأمر، فإن المنطقة الواقعة بين النيل شرقاً، ومناطق كانم والزغاوة جنوباً وغرباً، ذكرت فيها بعض القبائل أو الجماعات غير المعروفة حالياً. ويبدو أنه كان لتلك القبائل أو لبعضها أثر واضح على الأوضاع السياسية والسكانية في مملكة مقرة. فقد ورد أنه عندما أراد ملك مقرة؛ زكريا، الذهاب إلى الخليفة العباسي في بغداد لمفاوضته في أمر البقط، خشي إن ذهب هو بنفسه من بعض تلك المجموعات على كرسيّه. فقد ذكر ساورس بن المقفع على لسان الملك: «لا أتمكَّن من مفارقة كرسيّ لئلا يملكوا البربر المخالفين لي».

وتلك القبائل والجماعات المتجوّلة أو المستقرّة على حدود مملكة المقرة الغربية تحتاج لعناية الباحثين، ولا سيّما الأثاريين، خاصة أنها قريبة من مملكة المقرة مكانياً وزمنياً، فهي تعود إلى نحو سبعة قرون فقط، الأمر الذي يرجِّح ارتباطها القوي بواقعنا المعاصر. من المعروف أن تاريخ المصامدة ارتبط بصورة قوية بالمغرب العربي، بعد أن انخرطوا في دعوة الموحدين وتأسيس دولتهم. ولكن كان لهم وجود في مصر منذ عصر الدولة الفاطمية، إلى جانب قبيلة كتامة التي قامت على أكتافها دولة الفاطميين. وقد نقلنا آنفاً عن ناصر خسرو أنه كانت هنالك فرقة في جيش الفاطميين تسمى المصامدة، يبلغ عددهم نحو عشرين ألف رجل.

غير أننا في حاجة إلى التعرُّف، وإلقاء الضوء على مواطن المصامدة المجاورة لمملكة مقرة، وكيف كانت العلاقات بين الجانبين، كما تنصرف التساؤلات إلى البركامي؛ فمن هم البركامي؟، ومتى اعتنقوا المسيحية والإسلام؟، وأين موقعهم على خريطتنا السكانية الحالية؟، وماذا حدث لها؟.

. ناصر خسرو، سفر نامه، (موقع الوراق)، ج 1 ص 126.

. المصدر نفسه، ج 1 ص 23.

. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 116 حاشية رقم 1.

. ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 85.

. ناصر خسرو، سفر نامه، مصدر سابق، ج 1 ص 23.

مملكة علوة وريثة مملكة كوش

- **الكوشيون**

ورثت مملكتا المقرة وعلوة، مملكة مروي، الممثّل الأخير لحضارة كوش القديمة، فقد قامت مملكة مقرة في جزئها الشمالي، بينما قامت مملكة علوة في جزئها الجنوبي. وقد انفردت مملكة علوة فيما بعد باسم كوش، إذ لم أجد ما يوضّح استمرار إطلاق اسم كوش أو الكوشيين، على منطقة أو سكان مملكة مُقرة، وهذا بالطبع لا ينفي إمكان استمرار إطلاق الاسم عليها أيضاً. وقد ذكر جون الأفسوسي نحو عام 580م، أثناء الحديث عن دخول القس لُنجِنوس مملكة علوة، أن لونجنوس «سافر بعيداً جنوب مملكة النوباديين، إلى القطر الذي أطلق عليه اليونانيون اسم علوة Aludos والذي يسكنه الكوشيون».[1]

وأرى أنه من المفيد إعطاء نبذة مختصرة عن الأسماء التي أطلقت قديماً على السودان، أو بعض مناطقه، ودلالاتها بما في ذلك اسم كوش، وسكانها الذين أوردت المصادر أنهم أسلاف العلويين سكان مملكة علوة.

ويتضح مما جاء في الآثار المصرية، أن المناطق الواقعة إلى الجنوب من الحدود المصرية كانت مأهولة بالسكان. وقد أطلق عليها المصريون القدماء أسماء متعدّدة ذات دلالات مختلفة. ويمكن تتبُّع تلك الأسماء باختصار في مجموعتين. المجموعة الأولى أطلقت للدلالة على مناطق محدَّدة، وأقدم تلك الأسماء يرجع إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد هو (تا ستي)، ويعني أرض الأقواس. وذكر سليم حسن أنه كان يقرأ قديماً (تا نخت) وأطلق على المنطقة الواقعة جنوب أسوان حتى وادي حلفا.[2]

وفي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وردت العديد من الأسماء في الآثار المصرية للدلالة على المناطق المجاورة لمصر، مثل، اسم واوات، للدلالة على ذات المنطقة التي أطلق عليها اسم (تا ستي)، غير أن اسم تا ستي لم يختف تماماً، فقد ورد في وقت متأخّر في نقش الملك المروي نستاسن (335 – 310 ق.م)[3]، كما ورد اسم (إرتت، ويام) للدلالة على المناطق الواقعة بين وادي حلفا إلى مناطق الشلال الثالث.

---

[1]. Giovanni Vantini، Oriental Sources Concerning Nubia، Heidelberg and Warsaw، 1975، p. 13.

[2]. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (ب. ت)، ص 79.

[3]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 145.

وقد جاءت بعض الأسماء ذات الدلالات العامة في الآثار المصرية، مثل: مِجا، أو مِزا، أو مازوي، والتي أطلقت على مناطق وسكان الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر في مصر، وعلى الحدود الشمالية للسودان. وأُطلق على سكان المناطق الصحراوية الغربية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد اسم (التِّمح، أو التِّمحو، أو الطمياح)، وقد عرف هؤلاء في المصادر اليونانية والرومانية باسم اللوبيين أو الليبيين.

وقد امتدت مناطق الطمياح من الواحات المصرية شمالاً وتوغلت جنوباً إلى مناطق شمال دارفور الحالية. وربط أغلب المؤرخين بين الطمياح والمجموعة الثقافية (ج C)، ورأى أركل أنهم ربما عاشوا في وقت ما على وادي هوَر وأنهم ربما كانوا أسلاف قبائل التاما الحالية.[1]

ومن الأسماء التي أطلقت بصورة عامة منذ النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد للدلالة على المناطق الواقعة إلى الجنوب من مصر (نحسي، أو نحس، والجمع نحسيو)، أي السود، و(تا نحسي)، أي البلاد الجنوبية، التي تمتد من أسوان على النيل جنوباً إلى مدى غير محدد.[2] وذكر سليم حسن أن (نحسي)، كان يطلق أيضاً على بلاد بُنت، ثم استقر للدلالة على المناطق الواقعة جنوبي مصر.[3]

وفي نقش آخر في مطلع القرن العشرين قبل الميلاد، وردت الإشارة إلى عشر مناطق في شمال السودان بلغتها حملة الملك المصري سنوسرت الأول، أولاها إقليم كوش، وعرفت هذه المناطق كما ورد في النص باسم (تاخنتي). ويبدو أن اسم كوش قد اتسع نطاق اطلاقه قبل هذا التاريخ، فلم يعُد مقتصراً على سكان المناطق المتاخمة فقط للحدود المصرية، بل امتد ليشمل المناطق الداخلية أيضاً.[4] وربما حدث ذلك للتطوُّرات السياسية التي شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد.

فقد أثبتت الكشوف الأثرية الحديثة أن المملكة القديمة التي قامت في منطقة كرمة الحالية،

---

[1]. Arkell، A History of the Sudan، London: University of London، 1961، p44، 49.
وكذلك: آدمز، جون، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة: محجوب التجاني محمود، القاهرة، 2004م، ص 150.

[2]. سامية بشير دفع الله، تاريخ الحضارات السودانية القديمة منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة، دار هايل للطباعة والنشر، الخرطوم، 1999م، ص 122.

[3]. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن، مصدر سابق، ص 80.

[4]. سامية بشير دفع الله، تاريخ الحضارات السودانية، مصدر سابق، ص 327.

والمعروفة عندنا باسم (مملكة كرمة)، قد تأسّست منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، خلافاً للتاريخ الذي كان سائداً لقيامها. وهو القرن الثامن عشر قبل الميلاد.[1] وقد عرفت تلك المملكة باسم (مملكة كوش)، كما هو واضح في الرسالة التي أرسلها ملك الهكسوس من عاصمته أفاريس في شمال مصر، يطلب فيها، من ملك منطقة كرمة، المساعدة والدعم له في حروبه ضد الملك المصري كامس، الذي كان يحكم صعيد مصر. وقد سجّل كامس، الذي انتهى حكمه في منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، محتوى رسالة ملك الهكسوس في نقش في الكرنك والتي جاء فيها:

«التقَطت رسالة في جنوبي الواحات أثناء صعود حاملها إلى بلاد كوش، واكتشفت أنه خطاب من ملك أفاريس بخط يده يقول فيه: عا أوسر رع أبيبي بن رع يُحيّي ابنه ملك كوش. لمَ أعلنت نفسك ملكاً دون أن تحيطني علماً؟ وهل بلغك ما فعلَته مصر معي؟ فالعاهل القائم عليها كامس (فليوهب حياة وعمراً) يشنُّ الهجمات على ممتلكاتي رغم أنني لم أناصبه العداء. فقد عاملني كما عاملك تماماً، لقد وقع اختياره على بلدينا لينشر فيهما الخراب، بلدي وبلدك، وعاث فيهما فساداً. هيا احضر! لا تخف! إنه هنا في الوقت الحاضر حيث يتعقّبني، فلا أحد يترقّبك في مصر، ولن أتركه يرحل قبل وصولك».[2]

ويلاحظ الإشارة في النص إلى بلاد كوش، وملك كوش للدلالة على المملكة التي قامت منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، والتي اكتشفت بعض آثارها في منطقة كرمة الحالية. وكانت مملكة كوش قوية وكبيرة شاركت الهكسوس في الدلتا، والمصريين في طيبة (الأقصر)، السيادة على وادي النيل. وخاطب كلٌ من ملوك الهكسوس وملوك طيبة الكوشيين طامعين في ودِّهم.

ولم يختفِ اسم كوش في فترة القرون الستة التي تلت نهاية مملكة كوش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وقيام مملكة نبتة في القرن التاسع قبل الميلاد، فقد ظهر في الوثائق المصرية للدلالة على الحاكم المصري المكلف بإدارة المناطق المجاورة للحدود المصرية، والتي خضعت للحكم المصري، وكان الحاكم يعرف باسم (ابن الملك في كوش). وذكرت سامية بشير أن الوثائق الأشورية أشارت في النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد إلى ملك

[1]. المرجع نفسه، ص 192.

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مرجع سابق، ص 53-54.

كوش.[1] ومن الواضح أن هذه الإشارة أتت بعد قيام مملكة نَبَتة. كما ورد اسم كوش في الكتاب المقدس في سفر الملوك الثاني[2] وسفر إشعياء[3] مرتبطاً باسم الملك الكوشي تهارقا.

فكوش هو الاسم الذي أطلق على السودان من شماليه إلى حدود مملكة علوة في الجنوب منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، عندما سقطت مملكة علوة -أي منذ أربعين قرناً من الزمان- غير أننا الآن اختزلنا اسم كوش وحصرناه فقط ليدل تقريباً على تاريخ منطقة النيل شمالي الخرطوم، وبعض المناطق المجاورة لها شرقي النيل. وفي الوقت نفسه برز اسم النوبة للدلالة على تاريخ هذه المنطقة ذاتها.

وفي واقع الأمر، فإنه ليس هنالك حتى الآن اسم واحد يطلق بصورة عامة على تاريخ السودان القديم قبل عصر الممالك المسيحية. فنطلق مثلاً على الثقافات المبكرة المجموعات (أ - ب - ج) ونحصرها في المنطقة الواقعة شمالي دنقلا، ونطلق حضارة كرمة على المنطقة النيلية الواقعة شمال الخرطوم، دون اعتبار لمناطق التداخل السكاني، والأودية التي ربطت سكان النيل في المناطق المجاورة لها شرقاً وغرباً.

ورغم أن آثار المجموعة الثقافية (ج)، مثلاً، وجدت في مناطق كسلا شرقاً، ووادي هور غرباً- فإننا نحصرها في دراستنا على منطقة النيل الشمالية فقط. وبالطريقة عينها ندرس حضارة كرمة منعزلة عن الصحراء الغربية، ووادي هور. هذه الدراسة للحضارات القديمة تجعلها منعزلة عن النيل من الخرطوم شمالاً، أي أن سكان المناطق الواقعة إلى الشرق والغرب والجنوب من هذه المنطقة، لا يشعرون بالانتماء لتلك الثقافات والحضارات المبكرة، وهو أمر لا يتسق مع ما تم العثور عليه من آثار رغم قِلَّتها. إلا أنها توضح الارتباط القوي والصلة الواضحة لمنطقة شمالي الخرطوم بالمناطق الواقعة إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الجنوب منها.

ثم تأتي حضارتا نَبَتة ومروي، ورغم أن الدراسات لم توضِّح على وجه التحديد حدود هاتين الحضارتين شرقاً وغرباً وجنوباً، إلا أن دراستنا لهما تنحصر أيضاً في المناطق النيلية الواقعة شمال الخرطوم، وعلى بعض المناطق بين النيل الأزرق، ونهر عطبرة، مما يولد

[1]. سامية بشير دفع الله، تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، دار الأشقاء للطباعة والنشر، الخرطوم، 2005م، ص 3.

[2]. الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، الإصحاح 19: 9: «وبلغ ملك أشور أن ترهاقة ملك كوش قد خرج لمحاربته».

[3]. الكتاب المقدس، سفر إشعياء، الإصحاح 37: 9: «ثم بلغ ملك أشور أن ترهاقة ملك كوش قد خرج لمحاربته».

إحساساً بأن مناطق السودان الأخرى لا صِلة لها بتلك الحضارتين، وأن سكان تلك المناطق لا ينتمون لتلك الحضارة.

فدلالات الأسماء التي نطلقها على تاريخنا القديم، مثل ثقافات المجموعات المبكرة، وحضارة كرمة، وحضارتي نَبَتة ومروي، دلالات محلية محصورة على مناطق محددة لا تحمل معنىً عاماً يربط باقي مناطق السودان الأخرى -التي بناء على ما تم التنقيب عليه من آثار- اتضح ارتباطها بتلك الثقافات والحضارات سواء في شرق أو غرب السودان أو على النيل الأبيض.

وقد أدى عدم وجود مسمّى عام لتاريخ السودان القديم، إلى قيام بعض الباحثين باقتراح بعض الأسماء للدلالة عليه في حدود السودان الحالية. ولعل أكثر الأسماء قبولاً هو اسم كوش، وهو الاسم الذي ظل يطلق على البلاد والسكان جنوبي مصر نحو أربعة آلاف سنة. وقد أثبت التنقيب الأثاري وجود آثار الكوشيين منذ عصر الثقافات المبكرة في مناطق كسلا شرق السودان، ووادي هور غرب السودان، ولعل المزيد من أعمال التنقيب الأثرية في تلك المناطق، ومناطق النيل الأبيض توقظ شعور انتماء تلك المناطق وسكانها لحضارة واحدة، هي حضارة كوش، وظلت تلك الحضارة في عطاء دائم على الأقل نحو أربعين قرناً حتى نهاية عصر مملكة علوة المسيحية في القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد أبدى بعض الباحثين تحفُّظاً على إطلاق اسم كوش للدلالة على تاريخ السودان القديم، باعتبار دلالته القديمة الممتدة إلى خارج حدود السودان الحالية. ولا أرى أن في ذلك ما يقف أمام استخدام المصطلح، فاسم السودان القديم يدل أيضاً دلالة واسعة ظلت مرتبطة به في ذاكرة الشعوب داخل قارة أفريقيا وخارجها حتى الآن. ويتميّز مصطلح كوش بأن دلالته القديمة ليست شائعة الاستعمال كدلالة اسم السودان، إضافة إلى أن الاسم (السودان) يعتبر حديثاً بالمقارنة إلى اسم كوش، إذ يرجع اسم السودان -الذي ظهر مع دخول العرب مصر- إلى نحو أربعة عشر قرناً.

وقد اقترح بعض الباحثين استخدام مصطلح (الدراسات المَرَوية)، للدلالة على تاريخ السودان القديم حتى نهاية العصر المروي في القرن الرابع الميلادي،[1] أي قبل العصر المسيحي في السودان. ولم يجد هذا الرأي ترحيباً من الباحثين. وقد ساد في بعض المؤلفات عن تاريخ

---

[1]. انظر: إيسيدور سافتش كاتس نيلسون، الوضع الراهن وإشكاليات دراسة تاريخ مملكتي نبتة ومروى، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد الثاني، فبراير، 2002م.

السودان القديم استخدام اسم (التاريخ النوبي)، للدلالة على تاريخ السودان القديم حتى نهاية العصر المسيحي.

ولا أرى أن استخدام اسم (التاريخ النوبي)، للدلالة على (تاريخ السودان) مقبولاً، لأن مدلول اسم النوبة القديم ظهر استخدامه في فترة محدودة، تقع بين القرن الثالث قبل الميلاد، والقرن الرابع الميلادي، أي لفترة سبعة قرون من جملة تاريخ السودان القديم الموثق، وهو أربعون قرناً. وبالإضافة إلى ذلك فإنه بالرغم اتساع مدلوله، إلا أنه عند استخدامه ينصرف الذهن إلى معنى النوبة بمفهومه الذي اشتهر بعد دخول المسلمين مصر في القرن السابع الميلادي.

وقد ناقشنا فيما سبق مدلول اسم النوبة الحديث في المصادر العربية، وخلصنا إلى أنه أطلق للدلالة على سكان منطقة النيل الواقع بين الخرطوم جنوباً ومنطقة أسوان شمالاً. فإطلاق اسم (تاريخ النوبة) للدلالة على تاريخ السودان القديم، يجعله منحصراً فقط في هذه المنطقة، وهو أمر دلّت بدايات الأعمال الأثارية الواسعة على عدم مصداقيته.

إلى أيٍّ مدىً امتدت حدود دولة كرمة جنوباً وغرباً عبر أودية هوار، والمقدم، والملك والنيل الأبيض؟، وإلى أيٍّ مدىً امتدت شرقاً عبر نهر عطبرة والنيل الأزرق؟. تتطلّب الإجابة الكثير من البحث والتنقيب، ولكن بناءً على ما توفّر حتى الآن من آثار طرحت بعض النظريات عن أصول سكان مملكة كوش. وقد سبق أن تعرّضنا في بداية هذا الفصل لأصول سكان شمال السودان، وسنوجز هنا النظريات التي تناولتها سامية بشير في هذا الصدد.[1]

بيّنت أقدم الهياكل البشرية التي اكتشفت لسكان شمال السودان أن تاريخها يعود لنحو 10,000 سنة قبل الميلاد. ولكن لم يتفق الدارسون حول أصولهم. وناقشت سامية بشير آراء الباحثين حول أصول أولئك السكان، والتي يقول بعضها إن السكان تكوّنوا من السلالات المحلية التي اختلطت بهجرات العناصر القوقازية التي أتت من أوروبا. ويرى بعضهم الآخر أنهم تكوّنوا باختلاطهم بالعناصر المنغولية التي أتت من قارة آسيا. ويرى آخرون أنهم تكوّنوا باختلاطهم بعناصر زنجية أتت من أفريقيا جنوب الصحراء.

ويرى فريق رابع أن الكوشيين ينتمون إلى الجنس الأسمر Brown race الذي يقع في

---

[1]. المرجع السابق، ص 196 – 199.

المنتصف بين القوقازي والزنجي. ويرى الأستاذ تريقر -كما نقلت الدكتورة سامية- أن بعض الباحثين الغربيين المبكرين الذين كتبوا عن أصول سكان شمال السودان عنصريون، كان هدفهم إبعاد العنصر الأسود عن الحضارات القديمة في السودان، باعتبارهم عناصر غير خلاقة، ولا تملك القدرة على الإبداع، وأن ما عثر عليه من حضارات في القارة الأفريقية يرجع إلى الجماعات المهاجرة من خارج القارة.

ولكن عندما أُعيد فحص الآثار التي تم الكشف عنها في شمال السودان في منتصف القرن العشرين بواسطة جيل مختلف من الباحثين، أثبتت دراساتهم أنه رغم دخول بعض المهاجرين واستيطانهم في المنطقة الشمالية من السودان منذ الألف الثالث قبل الميلاد -مثل قدماء المصريين والعرب والشراكسة- إلا أنه لم يطرأ تغيُّر عرقي ذو بال -كما نقلت سامية بشير عن تريقر- على المكوِّنات العرقية الرئيسة لسكان المنطقة.

وفي دراسة أخرى أجرتها كريتين سايمون -كما نقلت سامية بشير- أن التركيبة العرقية للكوشيين في كرمة، في الألف الثانية قبل الميلاد، لا تختلف عن تركيبة السكان الحاليين في شمال السودان اليوم. ويعني هذا أن الهجرات أو الجماعات التي كانت تصل إلى شمال السودان اختلطت بالسكان المحليين الذين حافظوا على السلالة العرقية الكوشية منذ أربعة آلاف سنة.

ونضيف إلى ذلك ما ذكره ماكمايكل من أن الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية التي قام بها كل من Derry وSeligman وضحت أن سكان منطقة النيل في الشمال حتى وادي حلفا، الذين وجدت صورهم في الآثار المصرية منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والذين شكّلوا سكان المنطقة في العصور اللاحقة في مملكتي نبتة ومروي، هم سلالة السكان نفسها الذين وجدت آثارهم في جبل مويا بالجزيرة في القرن الثاني قبل الميلاد.[1]

وفي الوقت نفسه توصل الباحثان Derry وSeligman -كما بيّن ماكمايكل- عندما درسا بعض مخلّفات السكان القدماء في الشمال والجزيرة، أظهرت نتائج أبحاثهما المعملية لأحجامهم، وجماجمهم، وفكوكهم (جمع فك)، أن أولئك السكان القدماء يشبهون بدرجة كبيرة سكان جبال النوبة الحاليين، مما يشير إلى صِلة القرابة بين السلالتين. فسكان السودان الأوسط والشمالي القدماء هم من السلالة التي تعيش اليوم في جبال النوبة.

---

[1] Mac Michael. A History of the Arabs in the Sudan، op، p. 20.

ومما يزيد هذا الرأي قبولاً الآثار التي وجدت في معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، والتي ترجع لنهاية الألف السادس عشر ق.م. فقد ظهرت أشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم الـIrm وNimiu يقدمون الذهب إلى الملكة. وقد رأى آركل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكون Nimiu أسلاف الـNyima الحاليين في جبال النوبة، والـIrm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر، والقرن الرابع عشر ق.م. بأرض Irm التي تقع في منطقة الإستبس الواقعة غربيي النيل الأبيض، والمعروفة اليوم بكردفان، حيث ما يزال بعض فروع الميما يعرف بـArmi.

فالمجتمع السوداني الذي أطلق عليه اسم الكوشيين، هو سلالة ذلك الجنس الذي ظهرت صوره في الآثار المصرية منذ القرن العشرين قبل الميلاد، وهو الذي أقام مملكتي نبتة ومروي، وهو السلالة نفسها التي وجدت آثارها في مقابر جبل موية في الجزيرة، وهو السلالة ذاتها التي توجد الآن في جبال النوبة. ونضيف لذلك ما أشرنا إليه سابقاً، من أن شعوب النوبا التي كانت تسكن الصحراء الغربية -في مناطق كردفان ودارفور الحاليتين- كانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد كما ذكرت المصادر اليونانية، وحتى القرن الرابع الميلادي، كما ظهر في نقش عيزانا، كانت تلك القبائل طيلة هذه السبعة قرون (3ق. م – 4م) تتجوَّل وتستقر في بلاد كوش، ما بين الصحراء الغربية، وكسلا شرقاً، ودنقلة شمالاً.

ولعلَّ كل هذا يوضح أن الكوشيين، منذ أن تأسَّست مملكة كوش في الألف الثالث قبل الميلاد، هم السلالة عينها التي عاشت في تلك الأوقات في غرب ووسط وشرق السودان، وهم في الوقت نفسه، السلالة نفسها التي تعيش في كل هذه المناطق الآن. ورغم أنه من الصعب الآن الحديث عن حدود مملكة كوش والتي كانت عاصمتها كرمة، ولكن وضحت الآثار أن السلالة البشرية التي كونت سكان السودان في حدوده الحالية ترجع جذورها إلى سلالة الكوشيين، وظل اسم الكوشيين حيَّاً حتى عصر مملكة علوة المسيحية.

.Arkell، A History of the Sudan، op، p 107 .

مملكة علوة، أرضها وسكّانها

- **حدودها ومواردها**

جاء أول ذكر لعلوة، كما ذكر ماكمايكل، على مسلّة الملك الكوشي ناستاسن، الذي أرّخ له رايزنر (298ق.م - 278ق.م)، حيث تلقّب بلقب ملك علوة Alut، إلى جانب المناطق الأخرى من مملكته. وقد شيّد الملك ناستاسن معبداً في علوة، مما يؤكّد أهميتها كأحد أقاليم أو مدن مملكته. كما ورد ذكر علوة أيضاً في نقش عيزانا في القرن الرابع الميلادي، أنه أخذ «أسرى عند التقاء نهري تكازي وسيدا، وفي اليوم التالي أرسلت جيش Damawa و Palha وSera للإغارة على القطر والمدن المشيدة بالطوب والقصب، المدن المشيدة بالطوب هي مدن علوة وDaro». ويرى ماكمايكل أن علوة أطلقت في نقش الملك عيزانا، ولاحقاً في كتابات ابن سليم الأسواني على العاصمة والإقليم.[1]

وجاء اسم علوة في أغلب المصادر العربية مكتوباً بالتاء المربوطة في آخر الكلمة، ولم أقف على من رسم الاسم بالألف في الكلمة (علوا)، غير ابن الفقيه وياقوت الحموي.[2] وتبدأ حدود مملكة علوة في الشمال، كما ذكر ابن سليم، بمنطقة الأبواب. ووضع ابن حوقل حدّها الجنوبي على النيل بمسافة شهر إلى نهاية بلد طُبلي، الذي يحدّه بلد كرسي جنوباً، وسنتعرَّض لهذين الموضعين لاحقاً.

وتمتد حدود المملكة شرقاً، مسافة ثمانية مراحل، إلى تفلين عند دلتا القاش، شمالي مدينة كسلا الحالية. وتتوغّل حدود علوة غرباً في الصحراء مسافة خمس مراحل -كما ذكر ابن حوقل- إلى بلد أمقل الذى سنتناوله لاحقاً.[3] وقد قدّر اليعقوبي اتساع المملكة بنحو ثلاثة أشهر.[4] وهكذا امتدت حدود مملكة علوة -بناءً على المصادر العربية- على النيل الأبيض جنوباً، ووصلت حدودها شرقاً إلى منطقة كسلا، وغرباً إلى مناطق دارفور. فمملكة علوة قد امتدت تقريباً على الحدود الحالية للمناطق الوسطى والغربية والشرقية للسودان. وسيتضح ذلك أكثر عندما نتعرّض للمعلومات التي وردت في المصادر العربية

---

[1]. Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، p. 46 – 47.

[2]. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، كتاب البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 21، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 73 و75.

[4]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، تاريخ اليعقوبي، (موقع الوراق)، ص 21.

عن المناطق التابعة للمملكة.

وقد تناولت المصادر العربية -وبخاصة مؤلَّفَي ابن سليم وابن حوقل- وصف بلاد علوة؛ وضَّحت أنهارها، ومواردها، ومدنها، وسكانها. واتضح من وصفهما أن مملكة علوة تمتّعت بثروات متنوِّعة من أراضٍ زراعية خصبة وواسعة، وثروات حيوانية ومعدنية، وأنشطة تجارية. وبيَّنت المصادر العربية قوة مملكة علوة وثراءها، بالمقارنة إلى مملكة مقُرة. فوصف ابن حوقل بلاد علوة بأنها أعمر بلاد النوبة، وذكر أنها «ناحية لها قرى متصلة وعمارات متصلة، حتى أن السائر ليجتاز في المرحلة الواحدة بقرى عدّة غير منقطعة الحدود، ذوات مياه متصلة بسواقي من النيل». [1]

ووضّح ابن سليم، أن بلاد علوة «أخصب وأوسع من مقرة، والنخل والكرم عندهم يسير، وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز، منها خبزهم ومزرهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي، والمروج الواسعة العظيمة السعة، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام، وعندهم خيل عتاق، وجِمال صهب عراب». [2] وذكر الإدريسي أن أهل علوة «يزرعون الشعير والذرة، وسائر بقولهم من السلجم، والبصل، والفجل، والقثاء، والبطيخ». [3]

وقد اشتهرت مملكة علوة كمصدر للذهب، شأنها في ذلك شأن الممالك الأفريقية في جنوب الصحراء في ذلك الوقت، مثل ممالك غانة، ومالي، وكانم. فقد وضّحت المصادر العربية توفُّر الذهب في أراضي مملكة علوة، كما ذكر ابن حوقل، ويبدو أن أخبار كثرة الذهب في بلاد علوة قد أدّت بياقوت الحموي إلى القول بأن الذهب «ينبت في بلادهم». [4]

ووصف الإدريسي بأن «حال علوة في هيأتها، ومبانيها، ومراتب أهلها، وتجاراتهم، مثل ما هي عليه حالات مدينة دنقلة. وأهل علوة يسافرون إلى بلاد مصر وبين علوة وبلاق عشرة أيام في البر، وفي النيل أقل من ذلك انحداراً. وطول بلاد النوبة على ساحل النيل مسير شهرين وأكثر، وكذلك أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب، وينزلون أيضاً إلى مدينة بلاق في النيل». [5]

---

[1]. المصدر السابق، ص 73.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 107.

[3]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1 ص 129.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 96.

[5]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1 ص 129.

كما ارتبطت مملكة علوة عبر البحر الأحمر بعلاقات تجارية شرقاً ببلاد العرب. وإلى جانب قيام مملكة تفلين الإسلامية داخل حدود علوة الشمالية الشرقية في منطقة دلتا القاش، فقد كانت حدود المملكة مفتوحة أمام التجار المسلين، بعكس ما كان الحال عليه في مملكة مقرة، حيث لم يكن يسمح بدخول المسلمين إلى الجنوب من منطقة حلفا، إلا بعد إجراءات إدارية دقيقة. ولذلك فقد ارتبطت علاقات مملكة علوة وقويت عبر حدودها الشرقية وبخاصة مع الممالك الإسلامية التي قامت في الحبشة.

فقد شهدت الحبشة، ومنطقة القرن الافريقي، قيام نحو أحد عشر مملكة إسلامية في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (الـ9 – 15 الميلاديين). ولما كانت حدود مملكة علوة مفتوحة مع الحبشة، وعلاقاتها طيبة وقوية مع المسلمين -بدليل وجود مملكة إسلامية داخل حدودها- فلا بدَّ أن ذلك أدّى لتطوُّر العلاقات، إلى جانب التداخل السكاني بين علوة والحبشة، عبر أحواض الأنهار والأودية المتعدِّدة التي ربطت حدود البلدين. ولا بدَّ أن ذلك أدّى إلى انتشار الإسلام في حدود المملكة الشرقية، مما هيَّأ الأوضاع لقيام سلطنة سنار. ويبدو لي معقولاً أن تاريخ المراحل المبكرة من قيام سلطنة سنار لا يمكن دراسته بمعزل عن تاريخ الحبشة في تلك الفترة.

أورد ابن سليم الأسواني[1] وصفاً مفصَّلاً للنيل وروافده في مملكة علوة، فذكر أن النيل يتشعَّب من منطقة الأبواب إلى أنهار وهي:

1ـ نهر يأتي من ناحية المشرق، كَدِر الماء يجفّ في الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء، وزادت البِرك التي فيه، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد، فوقعت الزيادة في النيل، وقيل: إنّ آخر هذا النهر، عين عظيمة تأتي من جبل.

قال مؤرخ النوبة: وحدّثني سميون، صاحب عهد بلد علوة، إنه يوجد في بطن هذا النهر، حوت لا قشر له، ليس هو من جنس ما في النيل، يحفر عليه قامة وأكثر، حتى يخرج، وهو كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة، يقال لهم: الديجيون، وجنس يقال لهم: بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة.

2ـ ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن. قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذي عندهم، وعن لونه، فذكر

[1]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 98 – 99.

أنه يخرج من جبال الرمل، أو جبل الرمل، وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام، ثم ينصبُّ إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمرّ عليه، أو من نهر آخر ينصبُّ إليه، وعليه أجناس من جانبيه.

3ـ ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتي من القِبلة مما يلي الشرق شديد الخضرة، صافي اللون جدّاً، يُرى ما في قعره من السمك، وطعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة، وحيتان الجميع واحدة، غير أنّ الطعم مختلف، ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج، والبقم، والغثاء، وخشب له رائحة كرائحة اللبان، وخشب غليظ يُنحَت ويُعمَل منه مقدام، وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضاً، وقيل: إنه وجد فيه عود البخور. قال: وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة، التي تأتي فيه وقت الزيادة، علامة غريبة. ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملّك بلد علوة، ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما.

قال: وأخبرني من نقل النيل الأبيض، وصبه في النيل الأخضر فبقي فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا، وبين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما.

4- والأنهار الأربعة الباقية، تأتي أيضاً من القبلة مما يلي الشرق أيضاً في وقت واحد، ولا يعرف لها نهاية أيضاً، وهي دون النهرَين الأبيض والأخضر في العرض، وكثرة الخلجان والجزائر. وجميع الأنهار الأربعة تنصبّ في الأخضر، وكذلك الأوّل الذي قدَّمت ذكره، ثم يجتمع مع الأبيض، وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها، وأحد هذه الأربعة يأتي مرّة من بلاد الحبشة.

قال: ولقد أكثرت السؤال عنها، واستكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبراً يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار، والذي انتهى إليه علم من عرَّفني عن آخرين إلى خراب، وأنه يأتي في وقت الزيادة في هذه الأنهار، آلة مراكب وأبواب وغير ذلك، فيدل على عمارة بعد الخراب، فأمَّا الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتي من ذاتها، والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه، ثم ينبع وقت الزيادة.

ومن عجائبه: أنّ زيادته في أنهار مجتمعة، وسائر النواحي، والبلدان في مصر وما يليها، والصعيد، وأسوان، وبلد النوبة، وعلوة، وما وراء ذلك في زمان واحد، وأكثر ما وقف عليه من

هذه الزيادة، أنه ربما وجدت مثلاً بأسوان، ولا توجد بقوص. ثم تأتي بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم، واتصلت السيول، عُلم أنها سنة ريّ، وإذا قصرت الأمطار عُلم أنها سنة ظمأ.

مدن بلاد علوة

تناولت المصادر العربية أسماء بعض المواضع والمدن، بلغت في جملتها ستة عشر ما بين مدينة وبلد وجماعات سكانية. وفيما يلي سنتناول المادة التي وردت عن ذلك.

- **المدن والبلدان**

تناولت المصادر مدينة واحدة في مملكة علوة، وهي سوبة، وثلاثة مواضع، وهي: الأبواب، والجزيرة الكبرى، وبلد طُبلى.

- **مدينة سوبة**

يرى ماكمايكل أن مدينة سوبة، ربما كانت عاصمة لإقليم علوة الذي ورد ضمن المناطق التي كانت تحت حكم الملك المروي نستاسن (336ق.م – 315ق. م). [1]وإذا أخذنا بهذا الرأي، فإن تاريخ مدينة سوبة كعاصمة لإقليم علوة يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، أو ربما قبل ذلك، ثم استمرّت عاصمة لمملكة علوة التي خلفت مملكة مروي على حكم المنطقة، قبل دخول المسلمين مصر بأكثر من ثلاثة قرون.

وبدأت مدينة سوبة تظهر كعاصمة لمملكة علوة في المصادر العربية، منذ بداية ظهورها في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وقد جاء كتابتها في كل المصادر (سوبة) بالتاء المربوطة في آخر الكلمة. وقد كتبتها بعض المراجع العربية الحديثة بالألف في آخر الكلمة. وقد ورد اسم المدينة عند الحميري وابن الوردي (ويلولة). ولكن تواتر اسم سوبة في المصادر الأخرى، ولم ترِد إشارة إلى اسم ويلولة إلى جانب سوبة، مما يضعف ما أتى به المؤلفان.[2]

وصف اليعقوبي سوبة بأنها مدينة علوة العظمى، مما يوحي بوجود أكثر من مدينة في المملكة. ويبدو من وصف المصادر لها أنها كانت مرتبطة بعلاقات تجارية قوية مع المسلمين،

---

[1]. MacMichael، A History of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1 p. 48; see also: Arkell، A History of the Sudan، op، p. 156.

[2]. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق، ج 1 ص 312؛ وابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصدر سابق.

كما أشار إلى ذلك اليعقوبي.[1] وسبق أن ذكرنا أن مملكة علوة كانت منفتحة في علاقاتها الخارجية، لا كما كان الحال عليه في مملكة مقُرة، فتوثّقت صلاتها بالمسلمين.

وصف ابن سليم مدينة سوبة بأنها «مدينة العلوي شرقيّ الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشماليّ منها عند مجتمعهما، وشرقيها النهر الذي يجفّ، ويسكن بطنه، وفيها أبنية حسان ودور واسعة، وكنائس كثيرة الذهب، وبساتين، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين».[2]

وقد أتى أبوصالح بوصف أكثر تفصيلاً مما ورد فيما نقله المقريزي -أعلاه- من كتاب (أخبار النوبة) لابن سليم، ومن المعروف أن كتاب ابن سليم لم يوجد، وبقي منه فقط ما نقله المؤرخون اللاحقون مثل المقريزي. ورد في كتاب أبي صالح عن مدينة سوبة:

«وهذه المدينة في شرقي الجزيرة الكبيرة بين البحرين الأبيض والأخضر وجميع من بها نصارى يعاقبة، وحولها ديارات متباعدة من البحر، ومنها ما هو على البحر، وبها كنيسة عظيمة جداً متسعة، محكمة الوضع والبناء، أكثر من جميع الكنائس التي بها، وتسمى بكنيسة منبلي».[3]

يوحي هذا الوصف، أن راويه أو كاتبه، كان على معرفة تامة بمدينة سوبة، وأغلب الظن أنه وصف ابن سليم للمدينة، اقتبس منه أبو صالح أكثر مما اقتبسه المقريزي، خاصة أن أبا صالح أشار إلى ابن سليم في وصف جزيرة علوة، بعد وصف مدينة سوبة مباشرة. ورغم أننا رجّحنا أن ابن سليم رجع من دنقلة، ولم يدخل بلاد علوة إلا أنه نقل أخبار علوة من مصادر قريبة من المنطقة، وغالباً من أهلها.

- **الأبواب**

يقع إقليم الأبـواب، أو مملكة الأبـواب، كما ورد في المصادر العربية، على الحدود الشمالية لمملكة علوة، ويفصلها من مملكة مقُرة. وقد وصف ابن سليم منطقة الأبواب بأنها قرى على شاطئ النيل في أول بلاد علوة، وأنها تابعة لملك علوة، وعليها والٍ من قبله يعرف بالرحواح.[4]

---

[1]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ص 18.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 102.

[3]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، مصدر سابق، ص 138.

[4]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 99.

ولم ترد معلومات في المصادر العربية -ما عدا ما ذكره ابن سليم- عن إقليم الأبواب، إلا فيما يتعلّق بأحداث حملات المماليك على مملكة مقُرة. ويبدو أن الأبواب قد أصبحت في ذلك الوقت مملكة مستقلة عن سلطة علوة، كما خاطبتها إدارة المماليك. وإلى جانب سفارة السلطان قلاون إلى ملك الأبواب، والمراسلات التي دارت بينه وبين المماليك، فقد تدخل أني، ملك الأبواب، في الصراعات السياسية التي نشبت في مملكة علوة، وفي الصراع الذي دار حول عرش المملكة، مما يوضِّح قوة مملكة الأبواب ونفوذها في ذلك الزمان.

وقد استفادت منطقة الأبواب من موقعها الإستراتيجي، كباب مطلٍّ على الداخل، في تعزيز صلاتها التجارية بمصر شمالاً، وبالبحر الأحمر شرقاً. كما أسهم موقعها القريب من مناطق التعدين في مناطق وادي العلاقي في ازدياد أهميتها التجارية والإستراتيجية. فقد تدخلت في الصراع الذي دار بين العمري، ومملكة المقرة، في المناطق الشمالية لأبي حمد الحالية. وسنعود إلى هذه الموضوعات عند الحديث عن علاقات مملكتي علوة ومقُرة بمصر.

- **الجزيرة الكبرى**

أطلق ابن سليم على المنطقة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق اسم الجزيرة الكبرى، قال عنها: «وبين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض، لأنّ فيهما أجناساً كثيرة وخلقاً عظيماً، قال: وبلغني أنّ بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها، فلم يأتِ عليه بعد سنين».[1]

ووصف ابن حوقل الجزيرة قائلاً: «جزيرة لا يعرف لها غاية، بها جميع الوحش، ويسكنها النوبة والكرسي ومن لا يقدر -لامتناع جانبه- أن يحاط به».[2] وقد تعرَّض ابن حوقل، وابن سليم لسكان هذه الجزيرة، وسكان المناطق الأخرى في مملكة علوة وهم: العنج، والكرنيكا، وتكنة، ومرنكة، وكرسي، وطُبلي، وأم النيل الأبيض، والأحدين، وأندا، أزكرسا، والتبان، وكنكا. وفيما سنتناول ما ورد عن كلٍّ منهم.

- **بلد طبلي**

أورد ابن حوقل أنه «ذكر قوم أنهم يجتازون في أعالي هذا النهر -أعني النيل- من أعالي

---

[1]. المصدر نفسه، ص 103.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

بلد كرسي ببلد طُبلي، وهو منتهى ملك علوة على النيل، فلا يخالطونهم ولا يتاجرونهم عراة حاسرين، لا يعلم ما غذاؤهم ولا كيفية سيرتهم».[1]

سكان بلاد علوة

بلغت الجماعات السكانية التي وردت في المصادر العربية اثنتي عشر جماعة هم: (العنج، والديجون، وأهل تفلين، والكرنيكا، ومرنكة، وكرسي، وأندا، وتكنة، ونوبة النيل الأبيض، والأحديين، والتبان، وكنكا). وقد ورد القليل من الوصف العام للسكن، وتناولت المصادر في أغلب الأحيان الجماعات السكانية باختصار شديد بلغ في بعض الأحيان ذكر اسم الجماعة السكانية فقط.

وقد تطرّق ابن سليم في تناوله العام للسكان إلى ما يوضّح تطوُّر الفكر الديني، إلى جانب الدين المسيحي لمملكة علوة فذكر: «وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدّم ذكره أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى، ويتقرّبون إليه بالشمس، والقمر، والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس، والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة. وذكر أنه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده؟ فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، وسأله عن دينه؟ فقال: ربي وربك الله، وربُّ الملك، وربُّ الناس كلهم واحد. وإنه قال له: فأين يكون؟، قال: في السماء وحده. وقال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابّهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله، فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوه. وسأله هل أرسل فيكم رسول؟، قال: لا. فذكر له بعثة موسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وما أيِّدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا، فقد صدقوا، ثم قال: قد صدّقتهم إن كانوا فعلوا».

ويقودنا ذلك إلى الإشارة إلى ما تناولتُه كثيراً في محاضراتي للطلبة، وفي وبعض المقالات إلى أن التوحيد هو الدين الذي بدأت به حياة البشر.[2] فقد كان آدم عليه السلام موحِّداً، وكذلك كل الأنبياء جاءوا بعقيدة التوحيد. وقد أخبرنا القرآن الكريم في عدد من الآيات أنه

---

[1]. الموضع نفسه.

[2]. انظر على سبيل المثال: أحمد الياس حسين، نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ، منشورات الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، 2001 م؛ وكذلك: أحمد الياس حسين، «بداية التاريخ البشري بين المفهومين الإسلامي والغربي: أسئلة ابتدائية»، دراسة منشورة في: مجلة التنوير، مركز التنوير المعرفي، الخرطوم، العدد رقم (12)، يناير، 2012م.

أرسل رسله لكل البشر على مدار التاريخ منذ عصر آدم وحتى عصر نبينا محمد، ولذلك ذكر مفسّرو القرآن الكريم، أمثال ابن كثير وغيره، أن عدد الأنبياء يقدَّر بعشرات الآلاف. ولذلك يبدو أثر التوحيد واضحاً في ما نقله ابن سليم عن أهل مملكة علوة مثل قولهم «ربي وربك الله، وربُّ الملك، وربُّ الناس كلهم واحد».

وفيما يلي ما ورد في المصادر العربية عن السكان:

■ العنج

وردت إشارات قليلة ومقتضبة في المصادر العربية عن العنج، فقد جاءت الإشارة ثلاث مرات في كتاب (تشريف الأيام والعصور) لابن عبد الظاهر (ت 792هـ/ 1292م) عن العنج. المرة الأولى وردت ضمن عدد من أسماء المناطق التي أرسل إليها السلطان المملوكي قلاوون (678هـ - 689هـ/ 1280م - 1290م) الأمير علم الدين سنجر المعظّمي سفيراً. ولم يوضّح الكاتب مواقع تلك المناطق التي أُرسلت إليها السفارة، كما لم يتمكّن الباحثون من تحديد أماكن تلك المناطق التي رجَّحوا وجودها في مناطق البجة، ومملكة علوة. وقد ذكر الكاتب من بين الأماكن التي وصلت إليها السفارة منطقة (صاحب العنج).[1]

ووردت الإشارة إلى العنج مرتين، أثناء الحملة التي أرسلها السلطان المملوكي خليل بن قلاوون، والتي خرجت نحو عام 689هـ/ 1290م بقيادة الأمير عز الدين الأفرم (ت 692هـ/ 1292م) لتأديب ملك المقرة سمامون لخروجه عن طاعة المماليك. وقد طاردت الحملة جنوبي مدينة دنقلة أحد الأمراء الخارجين على السلطان ويدعى (آني). وذكر الكاتب أن الحملة وجدت من أخبرها أن الأمير آني:

«له يومان مذ رحل إلى جهة الأنج [العنج]، فتبعه العسكر مسافة أخرى، وعادوا بعد أن قتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا حريمهم، وأخذوا مالهم، ورجعوا بغنيمة عظيمة. ولم يسلم الملك آني إلا ومعه سبعة أنفار، وما أخَّر العسكر من لحاقه إلا شدّة العطش، ولأن البلاد التي وصلوا إليها بلاد خراب، مأوى الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام».[2]

ويواصل الكاتب حديثه، أنه بعد رجوع الحملة من مملكة مقرة، وصل كتاب من ملك الأبواب -في أول بلاد علوة- إلى السلطان المملوكي يذكر فيه أنه تأخّر عن الحضور إلى

---

[1]. ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 197.

[2]. المصدر نفسه، ص 199.

الأبواب السلطانية، لأنه كان يطارد الملك آني، و«أن بلاد الأنج تغلّب عليها ملك غير ملكها، وأنه متحيِّل في أخذها منه، وإذا أخذها صار جميع بلاد السودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته».□

يلاحظ أن اسم العنج لم يظهر في المصادر العربية إلا في نهاية القرن السابع الهجري (الـ 13 الميلادي)، عندما بدأ المماليك تدخُّلهم في شؤون مملكة مقُرة المسيحية. وكانت المصادر السابقة لهذا التاريخ تتحدَّث عن المملكتين الكبيرتين؛ مقُرة وعلوة، وما يتبعهما من مناطق وسكان. وبالطبع فإن اسم العنج لم يظهر في القرن السابع الهجري، وقت ظهوره في المصادر العربية، ولا بدّ أن الاسم كان معروفاً ومستخدماً في الداخل للدلالة على منطقة (بلاد العنج)، كما يشير أيضاً إلى السكان، كما سيتضح ذلك من نَص الدمشقي الآتي. ويدل ذلك أن الاسم كان معروفاً وسائد الاستعمال في الداخل، ولم يكن معروفاً للمسلمين في مصر.

وليس من السهل التعرُّف على موقع بلاد العنج من خلال ما ورد عن حملة عز الدين الأفرم. وقد ذكر المؤلف أن عز الدين الأفرم تعدّى مدينة دنقلة ثلاثة وثلاثين يوماً في مطاردة الأمير، أو الملك كما يطلق عليه أيضاً، (آني). ولو اعتبرنا أن الحملة (تعدّت) دنقلة -كما عبَّر ابن عبد الظاهر- ثلاثة وثلاثين يوماً في الذهاب والإياب، تكون قد توغلت فيما بعد مدينة دنقلة نحو خمسة عشر يوماً، قد تكون هذه المسافة جنوباً ووصلت إلى منطقة زانكور في شمال كردفان، كما يرى عدد من الباحثين□، وتكون شمال كردفان هي منطقة العنج على هذا الرأي، وأرى أن هذا الرأي يبدو مقبولاً.

ويرى الدكتور أحمد المعتصم الشيخ، أن الحملة توجّهت شرقاً من دنقلة إلى أبي حمد، ثم دخلت الصحراء شرقاً. وتكون بلاد العنج كما يرى الباحث هي المنطقة الممتدة من أبي حمد شرقاً□. ورغم أني لا أخالفه الرأي في أن بلاد العنج من الممكن أن تكون ممتدة إلى الشرق من أبي حمد، إلا أنني لا أرى أن مطاردة الأمير آني كانت في تلك الجهات. فالحملة قد سارت من دنقلة نحو خمسة عشر يوماً، وهو الوقت الذي يوصلها أبي حمد، إذ المسافة

□. المصدر نفسه، ص 201.

□. Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، p. 185; see also: Arkell، A. History of the Sudan، op، p. 198.

□. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، (بحث قدم لمعهد الدراسات الأفريقية والأسيوية، جامعة الخرطوم)، ص 9.

بين دنقلة وأبي حمد كما قدّرها الباحث بخمسة عشر يوماً، وهي كل الأيام التي سارتها الحملة. فكيف تكون قد توغّلت في الصحراء إلى أن بلغت مناطق الحيوانات التي ذكرت في النّص؟ وبناءً عليه يمكن ترجيح أن بلاد العنج التي أشار إليها ابن عبد الظاهر تمتد في منطقة شمال كردفان.

والمصدر الآخر الذي أشار إلى بلاد العنج هو كتاب الدمشقي (ت 739هـ/ 1328م). فقد نقل الدمشقي عن تجار أسوان أن أصناف النوبة هم: «أنج، وأزكرسا، ووالتبان، وأندا، وكنكا».[1] والجديد الذي أضافه الدمشقي عن العنج ما ذكره من أن العنج يسكنون جزيرة كبيرة من جزائر النيل تسمّى أندا. وهو بهذا يوضح مكاناً آخر للعنج وهو الجزيرة الكبيرة والتي يقصد بها في المؤلفات العربية المنطقة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق، كما سنتعرَّض له لاحقاً. وهذا مكان ثانٍ للعنج إضافة إلى المكان الأول الذي ذكره ابن عبد الظاهر، وهو المنطقة الصحراوية.

ويلاحظ في الرسالة -المذكورة أعلاه- والتي أرسلها ملك الأبواب إلى السلطان المملوكي يذكر فيها «أن بلاد الأنج تغلّب عليها ملك غير ملكها، وأنه متحيِّل في أخذها منه، وإذا أخذها صار جميع بلاد السودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته». توضّح أن مملكة العنج مملكة كبيرة تسيطر على مناطق واسعة، بحيث ذكر ملك الأبواب أن خضوعها يعني خضوع كل السودان.

ويمكن أن نستخلص مما ورد في المصادر العربية عن العنج، أنه كانت لهم مملكة كبيرة وواسعة تمتد في صحراء بيوضة إلى شمال كردفان، كما تمتد في الجزيرة الواسعة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق. ويبدو أن سلطة المملكة المركزية لم تكن قوية على أقليم الدولة، وقد تمتّعت بعض هذه الأقاليم من تحقيق كياناتها المستقلة، مثل مملكة الأبواب، التي خاطبها المماليك مباشرة، إلى جانب بعض المناطق الأخرى التي وصلتها سفارة المماليك والتي -يبدو معقولاً- أن بعضها كان في حدود مملكة علوة.

وإلى جانب ما جاء في المصادر العربية عن العنج، وردت عنهم أيضاً بعض المعلومات في المؤلفات المحلية المطبوعة والمخطوطة. وسنتناول هنا ما ورد عن العنج في كتاب (كاتب الشونة)، الذي أُلِّف في القرن التاسع عشر، وما ورد في مخطوطة شيخ التجانية في كردفان، والتي ترجع أصولها إلى القرن الثامن عشر الميلادي. جاء في مؤلف (كاتب الشونة) ما يلي:

[1]. الدمشقي، نخبة الدهر، مصدر سابق، ص 236.

«إن الفونج ملكت بلاد النوبة، وتغلّبت فيها في أول القرن العاشر بعد التسعمائة، وخطّت مدينة سنار؛ خطّها الملك عمارة دونقس، وهو أولهم. وخطّت مدينة أربجي قبلها بثلاثين سنة؛ خطّها حجازي بن معين، وعلى هذا يتضح أن عمارة أربجي في مدة العنج».[1]

وورد في مكان آخر: «أما الجهة الشرقية، فقد كان بها أولاد عون الله، وهم سبعة رجال في مدة العنج، أي النوبة، وكان أحدهم المسمّى بالضرير قاضياً في مدة العنج قبل مدة الفونج».[2]

وذكر أيضاً: «واتفق عمارة المذكور مع عبد الله جماع القريناتي، من عربان القواسمة، وعبد الله المذكور هو ولد الشيخ عجيب الكافوتة، جد أولاد الشيخ عجيب، وتمّت كلمتهم على محاربة النوبة، وهم العنج ملوك سوبة، وملوك القرى. وتوجّه عمارة وعبد الله المذكوران بما معهما من الجيش، وحاربوا ملوك العنج وقتلوهم وأجلوهم من سوبة.. اتفق رأي عمارة بأن يكون هو الملك عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبة».

ويواصل كاتب الشونة ما حدث بعد انتصار عمارة وعبد الله جماع قائلاً: «أما النوبة فمن بعد ما حصل بينهم من المحاربة والمقاتلة، وصار الظفر للفونج، تفرّقوا شذر مذر، منهم من فر إلى جبال الصعيد، فازوغلي وغيرها، ومنهم من فرّ بالغرب، إلى جبال كردفان، ولم يبق منهم إلا أنفار قليلة دخلوا في الإسلام، وتفرّقوا في البلاد، وسكنوا مع الناس، وتناسلوا فيهم، وهم إلى الآن أنفار قليلون جداً.. وقليل من الناس يعرف أن أصلهم من النوبة، لأن لسانهم الآن عربي حكم لسان العرب».[3]

توضح هذه النصوص حقائق مهمة عن العنج هي:

أولاً: أن زمن حكم العنج وفقاً للمفهوم العام في أذهان السودانيين في ذلك الوقت -كما نقله كاتب الشونة- كان قبل قيام سلطنة الفونج.

ثانياً: أن العنج هم النوبا، ملوك مملكة سوبة، التي هي مملكة علوة. ويبدو واضحاً أن كاتب الشونة يستخدم اسم النوبا مرادفاً للعنج ملوك سوبة.

ثالثاً: يلاحظ أن استخدام كلمة النوبا -المرادفة لكلمة عنج- هنا لا يرجع إلى مدلول

---

[1]. أحمد بن الحاج أبو علي (المشهور بكاتب الشونة)، تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق: الشاطر بصيلي عبد الجليل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، (ب. ت)، ص 4.

[2]. المصدر نفسه، ص 124.

[3]. المصدر نفسه، ص 129.

كلمة النوبة في المصادر العربية، والتي رغم اتساع مدلولها، إلا أننا توصّلنا فيما سبق إلى أن مدلولها الخاص يصدق على المنطقة الواقعة شمال الشلال الثالث، أي منطقة مريس. ومدلول كلمة نوبة العام في المصادر العربية يطلق أيضاً على مملكة علوة وسكانها، ولكنه لا يصدق على كل امتداداتها جنوباً وشرقاً وغرباً. فكلمة النوبة في المصادر العربية لا تصدق على (عربان العنج في منطقة البحر الأحمر).

رابعاً: أن لفظ العنج يستخدم للملوك، ولسكان مملكة علوة الذين تفرّقوا في البلاد بعد سقوط دولتهم، وأنهم اختلطوا بالسكان، ودانوا بالإسلام، وحلّت اللغة العربية محل لغتهم الأصلية، ولم يصبح لهم كيان مستقل يميّزهم عن باقي السكان.

أما عن المخطوطات المحلية، فهي عبارة عن تدوين للروايات الشفاهية التي كانت سائدة إبّان كتابتها، فهي من حيث محتواها لا تختلف عن الروايات الشفاهية كثيراً. اللهم إلا في بعض الأحداث التي عاصرها الكاتب ودوّنها، فتكون أوفر حظّاً في مصداقيتها. ورغم اشتهار طبقات ود ضيف الله بأنها احتوت الكثير من التراث لمنطقة وسط السودان، إلا أن ذكر العنج لم يرد فيما تناولته من أحداث وسير.

وقد ورد ذكر القبائل التي تنتمي للعنج، في مناطق متفرقة من السودان في مخطوطة شيخ التجانية، والتي كتبت بعد قرنين من سقوط مملكة علوة. ومن بين تلك القبائل ذات الأصول العنجية قبائل (التيايسة، والكرتان)، في كردفان. و(الجانجي)، وبعض القبائل على النيل الأبيض. وشمالاً حتى منطقة دنقلة، و(الفنكور، والباجرم، والداجو، والفرتيت)، في دارفور. فالعنج كما يراهم كاتب المخطوط ينتشرون في وسط وشمال وغرب السودان.[]

ثم نأتي للروايات الشفاهية الغنية بتراث العنج. وقد تتبع الدكتور أحمد المعتصم الشيخ تلك الروايات ذات الانتشار الواسع بين كل السكان، في المناطق الواقعة بين الشلال الرابع شمالاً، والنيل الأبيض جنوباً، وبين منطقة الجزيرة منطقة البطانة شرقاً، وشمال كردفان غرباً. واستخلص أن هذه المناطق التي ارتبطت بتراث العنج هي مناطق انتشار العنج قديماً. كما يرى الدكتور أحمد المعتصم أن الحلنقة هم العنج، مستدلاً على ذلك باسمهم الذي يعني في اللغة الأمهرية السوط، وهذا السوط هو ما نعرفه في كل أنحاء السودان بسوط

[] Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1 .p 194 –197.

العنج.[1] واتفق مع الدكتور في كل المقدمات التي ساقها في الربط بين الحلنقة والعنج، ولكنني أرى ضرورة التوضيح أن الحلنقة جزء من الشعب الكبير المعروف بالعنج.

وقد تعددت الروايات الشفاهية عن العنج مناطق النيل ووصلت إلى سواحل البحر الأحمر. فقد نقل أحمد المعتصم عن مخطوطة (واضح البيان في ملوك العرب بالسودان)، لعبد الله بن الأرباب الحسن بن شاور أن عبد الله جماع «خضعت له جميع البلاد إلا منطقة العنج في جهات البحر الأحمر، فتحها ابنه الشيخ عجيب بعد أن علم أن شيخ عربان العنج مخالف للشرع المحمدي».[2]

ويدل امتداد ارتباط تراث العنج حتى البحر الأحمر بالانتشار الواسع للعنج في عصر مملكة علوة، وبما أن كل المادة الواردة عن العنج تربطهم بفترة مملكة علوة السابقة لانتشار الإسلام، ودخول القبائل العربية، فإن ذلك ربما كان مؤشّراً لامتداد حدود مملكة علوة. فهل امتدت حدود مملكة علوة على كل المناطق التي انتشر فيها تراثهم؟. ليس هنالك ما يمنع ذلك، بل هو الأكثر ترجيحاً. كما يلاحظ أن المخطوط وصف العنج بأنهم عرب، كما وصف زعيمهم بشيخ العرب، فعروبة العنج في هذا النص مثل عروبة العبدلاب.

- **الديجيون**

عرَّف ابن سليم الديجون، بأنهم جنس مولَّد بين العلويين والبجة على نهر عطبرة.[3] ويبدو أن وضع ابن حوقل الديجيين على نهر عطبر يحتاج لبعض المراجعة. فابن سُليم زار مناطق النيل، لكنه لم يعرِّج على المناطق الشرقية، وكتب مادته عنها عن طريق الروايات التي وصلته عن الديجيين -كما ذكر- أثناء وجوده في مملكة مقُرة. فأغلب الظن أن الديجيين الذين ذكرهم منسوبون إلى دُجن، وهي منطقة دلتا القاش، فهم (لدجيون) واختلط الأمر على مُخْبر ابن سُليم، وجعلهم على نهر عطبرة بدلاً عن القاش.

- **أهل تفلين**

وردت الإشارة إلى أهل تفلين عند ابن حوقل، ولم يذكر اسمهم، بل نسبهم إلى منطقة تفلين، والتي ذكر أنها تقع بين أعالي خور القاش شرقاً، وحتى حدود مملكة علوة غرباً. قال

---

[1]. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، مرجع سابق، ص 11.

[2]. المرجع نفسه، ص 17.

[3]. المرجع نفسه، ص 100.

ابن حوقل يصف وادي القاش ودلتاه:

«والنهر المعروف بالدجن يأتي من بلد الحبشة، فينقطع في أعمال دجن ومزارعها. ودجن هذه قرى متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع. وإلى وسط هذا الوادي تفلين قرىً أيضاً للبادية منهم، ينتجعونها للمراعي حين المطر. ولهم ملك مسلم يتكلّم العربية من قبل صاحب علوة. ويختص أهل تفلين بالإبل والبقر، ولا زرع لهم، فيهم مسلمون كثيرون من غير ناحية على دينهم يتجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها»[1].

اتفق الباحثون أن الدجن، أو الدكن كما يرد بعض الأحيان، هو وادي ودلتا القاش، وقد عرفت دلتا القاش ببلاد التاكا.[2] ويبدو وادي القاش -من وصف ابن حوقل- مأهولاً بالسكان، وفي وسطه تفلين. وقد يفهم من حديث ابن حوقل أن بعض أهل تفلين مستقرين على الوادي، وبعضهم بدو ينتجعون قرى تفلين للرعي، ولكنه أضاف أيضاً أن أهل تفلين يختصون بالإبل والبقر ولا زرع لهم، وربما أراد بهؤلاء البدو منهم.

ويوضِّح نص ابن حوقل أن حدود مملكة علوة تمتد شرقاً حتى وادي القاش -أي منطقة كسلا الحالية- حيث امتدت مملكة تفلين، والتي كانت تابعة للملكة علوة. كما يوضِّح النص انتشار الإسلام المبكر في المنطقة الشرقية لمملكة علوة، وقيام مملكة إسلامية، وانتشار اللغة العربية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وهو الوقت الذي كتب فيه ابن حوقل. وربما كان انتشار الإسلام وقيام المملكة قد سبقا هذا التاريخ. كما اتضح نشاط مملكة تفلين وعلاقاتها التجارية بالعالم الإسلامي، وقد أشرنا من قبل إلى أن مملكة علوة كانت منفتحة في علاقاتها بالعالم الإسلامي، بعكس مملكة مقُرة.

- **الكرنينا**

ذكر ابن سليم أن الكرنينا «يسكنون الجزيرة الكبرى الواقعة بين البحرين»، ويقصد بالبحرين هنا النيلين الأبيض والأزرق، فهو يعبِّر بـ(البحرين) بدلاً عن النيلين كما يعبِّر عامة السودانيين اليوم. ولم يذكر عنهم سوى القصة التي رواها عن زراعتهم، والتي لخّصها أيضاً أبوصالح الأرمني. وفيما يلي ما أورده ابن سليم:

«ومما في بلده من العجائب: أنّ في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنساً يعرف

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 96.

بالكرنينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر، فإذا كان وقت الزرع، خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، واختطّ على مقدار ما معه. وزرع في أربعة أركان الخطة يسيراً، وجعل البذر في وسطه الخطة، وشيئاً من المزر، وانصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط، قد زرع وشرب المزر، فإذا كان وقت الحصاد، حصد يسيراً منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر، وينصرف، فيجد الزرع قد حصد بأسره، وجرّن، فإذا أراد دراسه وتفريته، فعل به كذلك، وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش، فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح، وقد قلع جميع الزرع، وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين، يزرع جميعها في وقت واحد، وميرة بلد، علوة ومتملكهم من هذه الناحية، فيوجهون المراكب، فتوسق، وربما وقع بينهم حرب». [□]

قال: «وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة، وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين، لا يشكون فيه ولا يرتابون به، ولولا أنّ اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله، لما ذكرت شيئاً منه لشناعته، فأما أهل الناحية، فيزعمون إن الجنّ تفعل ذلك، وأنها تظهر لبعضهم، وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها، وتعمل لهم عجائب، وأنّ السحاب يطيعهم».

- **مرنكة**

ذكر ابن حوقل أن مرنكة تقطن على نهر أور، في أعالي بلاد علوة، والذي يجري من الشرق إلى الغرب، ويصب في النيل، ويقصد بنهر أور النيل الأزرق. ولم يورد عنها سوى أنها قبيلة من النوبة. [□]

- **كرسي**

وصف ابن حوقل كرسي، بأنهم أمة كثيرة من النوبة، وتقع ديارها على نهر أتمتي المتفرع من أعلى نهر أور، ونهر أتمتي هو الدندر. وتمتد ديارهم على النهر حتى بلاد الحبشة.. وأهل كرسي أصحاب زفال، وهو الجلد الذي يتّزرون به عرضاً، ويستخرج طوله من عند الأفخاذ فيغرز عند السرة، فيما انعقد من الزفال. [□] وقد ذكر الدمشقي (أزكرسا)، ووصفهم بأنهم صنف من النوبة، ربما كانوا هم الكرسي رغم أنه وضعهم بعيدين عن النيل.

[□]. ابن سليم، أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 103، وأبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، مصدر سابق، ص 139.

[□]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

[□]. المصدر نفسه.

■ **أندا**

جعل الدمشقي أندا من أصناف النوبة، ويسكنون «جزيرة عظيمة من جزائر النيل تسمى أندا، وهم بها، لا يستترون بشيء البتة». وربما أندا هو اسم الجزيرة الكبرى التي كتب عنها، وعن سكانها، ابن حوقل، وابن سليم.

■ **تكنة**

اتفقت آراء المؤرخين الذين كتبوا عن تكنة -ابن الفقيه، والمسعودي، وياقوت الحموي- على أن موقع تكنة أقصى جنوب بلاد علوة، ولم توصف بانتمائها للنوبة، مثل الكرنينا، وأندا، وكرسي، بل وصفوا بأنهم أمة من السودان عراة، أرضهم تنبت الذهب[□]، وأطنب ياقوت الحموي في وصفهم، وتضمّن وصفه من السمات الخيالية الغريبة التي دأبت المصادر العربية على إيرادها عن الشعوب النائية والبعيدة عنهم، ونثبته هنا كمثال لما يرد في بعض تلك المصادر. قال ياقوت:

«عراة لا يلبسون ثوباً ألبتة، إنما يمشون عراة، وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين، فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوباً لا يقدر على ذلك ولا يفعله، إنما يدهنون أبشارهم بالأدهان. ووعاء الدهن الذي يدهن به قلفته، فإنه يملؤها دهناً، ويركي رأسها بخيط، فتعظم حتى تصير كالقارورة، فإذا لدغت أحدهم ذبابة، أخرج من قلفته شيئاً من الدهن، فدهن به، ثم يربطها ويتركها معلّقة. وفي بلادهم ينبت الذهب».[□]

■ **نوبة النيل الأبيض**

أشار ابن حوقل إلى سكان النيل الأبيض من النوبة، ولم يورد معلومات عنهم، ولم أعثر لهم على ذكر في المصادر الأخرى. ذكر ابن حوقل: «ومن غربي النيل نهر يجري من ناحية الغرب، كبير غزير الماء، يعرف بالنيل الأبيض، وعليه قوم من النوبة».[□]

■ **الأحديين**

تناول ابن حوقل منطقة متوغلة في الصحراء غربي النيل الأبيض، أطلق عليها اسم

□. ابن الفقيه، كتاب البلدان، مصدر سابق، ص 31؛ والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، (موقع الوراق)، ج 1 ص 336؛ المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ص 50. وقد جاءت كتابة الكلمة «بكنة» بالباء، ويبدو أن هنالك خطأً طباعياً أو في النقل، لأن المصادر الأخرى كتبتها بالتاء «تكنة».

□. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

أمقل، ذكر أنها تقع بين علوة وبين الأمة المعروفة بالجبليين. وتقع بلد أمقل على بعد خمس مراحل من علوة، ثلاث منها في الصحراء. وقال إنها:

«ناحية كبيرة ذات قرى لا تحصى، وأمم مختلفة، ولغات كثيرة متباينة، لا يحاط بها، ولا يبلغ غايتهم، يعرفون بالأحديين، وفيهم معادن الذهب الجيِّد، والتبر الخالص، والحديد، متصلين بالمغرب إلى ما لا يعرف منتهاه، زيهم زي المغاربة، أرباب جِمال، وخيل، وبراذين غير تامة الخلق لقصرها وقرب لبودها، وسلاحهم فيه درق كدرق المغاربة بيض وحراب، وسيوفهم أيضاً غير تامة، وفيهم جند يلبسون السراويلات المفتّحة الطوال، ونعالهم كنعال المغاربة، وهم على النصرانية، وهم في طاعة ملك علوة».

- التبان

أشار إليهم الدمشقي، ولم يحدد موقعهم، واكتفى بالقول: «وذكر أنه يوجد بأرضهم معادن الحديد، ولا يعيش بأرضهم حيوان لشدة حرها».[1]

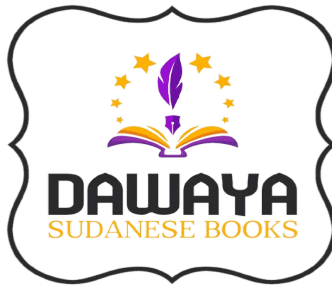
- كنكا

ذكرهم أيضاً الدمشقي ولم يحدِّد موقعهم ولم يورد معلومات عنهم.[2]

---

1. الدمشقي، نخبة الدهر، مصدر سابق، ص 236.
2. المصدر نفسه.

الملاحق



ممالك النوبة المسيحية

مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص 73

النوبة السفلى في الأزمان المسيحية المأثورة

التخوم – في – العمق بين
منطقة تجارة النوبة السفلى
الحرة ومنطقة النوبة العليا المقفولة

آدمز، النوبة رواق إفريقيا، ص 416

النوبة السفلى وبطن الحجر في العصر الإقطاعي

أدمز، النوبة رواق إفريقيا، ص 454

المصادر والمراجع

- إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ مصر البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م.
- أحمد بن الحاج أبو علي المشهور بـ(كاتب الشونة)، تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (ب.ت).
- أحمد المعتصم الشيخ:

1. زمن العنج (بحث غير منشور مقدم لمعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم).
2. التاريخ الثقافي والحضاري لمنطقة التكاكي في الفترة من 1280م - 1480م (رسالة دكتوراه قدمت لقسم الآثار، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 2002م).

- أحمد الياس حسين:

1. الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب (رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب جامعة القاهرة الأم، 1977م).
2. نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ، منشورات الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، 2001 م.
3. الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاجي قرافيكس، كوالالمبور، 2008م.
4. قبيلة جهينة؛ هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث (مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم العدد 15، 2009م).
5. بداية التاريخ البشري بين المفهومين الإسلامي والغربي: أسئلة ابتدائية، (مجلة التنوير، مركز التنوير المعرفي، الخرطوم، العدد رقم (12)، يناير 2012م).

- الإدريسي؛ أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م. (فيما يلي نشير إليه بـ: مسعد، المكتبة السودانية).
- الإصطخري؛ إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك (موقع الوراق).
- آدمز، جون، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة: محجوب التجاني محمود، القاهرة، 2004م.
- ابن إياس؛ محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور. في: مسعد، المكتبة السودانية.

- إيسيدور سافتش كاتس نيلسون، الوضع الراهن وإشكاليات دراسة تاريخ مملكتي نبتة ومروي، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد الثاني، فبراير 2002م.
- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني؛ الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968م.
- ابن بطوطة؛ محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. في: مسعد، المكتبة السودانية.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.
- ابن تغري بردي؛ أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في أخبار مصر وملوك القاهرة. (موقع الوراق).
- توروك، تاريخ ما بعد مروي وآركيولوجيته. ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، أركاماني، العدد السادس 2005 .
- ابن جبير؛ محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار. في مسعد، المكتبة السودانية.
- الجرجاني؛ الشريف علي بن محمد، التعريفات. (موقع الوراق).
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جامعة بغداد، العراق، 1993م.
- الجوهري؛ إسماعيل بن حماد، الصحاح. (موقع الوراق).
- جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، 1978م.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين. (موقع الوراق).
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (موقع الوراق).
- ابن حزم؛ علي بن أحمد، الفِصل في المِلل والنِّحل. (موقع الوراق).
- الحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الأفريقي، وصف إفريقيا. تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 1983م.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق).
- ابن حوقل؛ أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، (مسعد، المكتبة السودانية).
- ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن محمد:

1. المقدمة، (موقع الوراق).
2. العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، في مسعد، المكتبة السودانية، وفي (موقع الوراق).

- ابن دريد؛ أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة. (موقع الوراق).
- الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (مسعد، المكتبة السودانية).
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس. (موقع الوراق).
- سامية بشير دفع الله:

1. تاريخ الحضارات السودانية القديمة: منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة، دار هايل للطباعة والنشر، الخرطوم، 1999م.
2. تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، دار الأشقاء للطباعة والنشر، الخرطوم، 2005م.

- ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. في: مسعد، المكتبة السودانية.
- السخاوي؛ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع، (موقع الوراق).
- السر سيد أحمد العراقي، كسلا: التاريخ والحضارة، الخرطوم، 2010م.
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، (موقع الوراق).
- ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت).
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد المروزي، كتاب الأنساب، (موقع الوراق).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (موقع الوراق).
- أبو شامة، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، في: مسعد، الإسلام والنوبة.
- الشعراني؛ عبد الوهاب بن أحمد، الطبقات الكبرى. (موقع الوراق).
- أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- الصحاري، أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم، كتاب الأنساب، (موقع الوراق).
- الصفدي؛ خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (موقع الوراق).
- ضرار صالح ضرار، سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1991م.
- الطبري؛ محمد بن جرير:

1. تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
2. تفسير الطبري؛ تفسير القرآن المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، طبعة بولاق، القاهرة،

1338هـ. وكذلك: (موقع الوراق).

- ابن عبد الحكم؛ عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- عبد الرحمن حسب الله الحاج، العلاقات بين بلاد العرب وشرق السودان: منذ ظهور الاسلام وحتى ظهور الفونج 911ه/ 1505م. الخرطوم (د. ت)، (د. ن).
- ابن عبد السلام، الشهاب أحمد بن عز الدين محمد، الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت).
- عبد المجيد دياب، تاريخ الأقباط (مقدمة تحقيقه لكتاب تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز للمقريزي)، دار الفضيلة، القاهرة، 1998م.
- ابن عساكر الدمشقي، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، (موقع الوراق).
- العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (موقع الوراق).
- العمري؛ أحمد بن فضل الله ، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود:

1. المختصر في أخبار البشر، في: مسعد، المكتبة السودانية.
2. تقويم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية.

- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. (موقع الوراق).
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، كتاب البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- القلقشندي، أحمد بن عبد الله:

1. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في: مسعد، المكتبة السودانية، وفي (موقع الوراق).
2. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. (موقع الوراق).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء:

1. البداية والنهاية، (موقع الورّاق).
2. تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ.

- كلايدي ونتر، (بينة مروية عن الإمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس)، ترجمة، أسامة عبد

الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية، العدد 5، مارس 2004م.

- الكندي؛ محمد بن يوسف، تاريخ الموالي المصريين، (موقع الوراق).
- أبو المحاسن؛ يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م.
- محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق الدكتور يوسف فضل حسن. الطبعة الثالثة، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1985م.
- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م.
- المسعودي، علي بن الحسين:

1. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م.
2. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978م.

- مصطفى محمد مسعد:

1. الإسلام والنوبة في العصور الوسطى: بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م.
2. المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م.

- المفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (موقع الوراق).
- المقريزي؛ تقي الدين أحمد بن علي:

1. الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان، لبنان، (د. ت).
2. السلوك لمعرفة دول الملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
3. المقفّى، في: مسعد، المكتبة السودانية.
4. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، في: مسعد، المكتبة السودانية.
5. البيان والإعراب، في: مسعد، المكتبة السودانية.

- ابن منظور؛ محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق).

- ناصر خسرو، سفر نامة، (موقع الوراق).
- النويري؛ أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، (موقع الوراق).
- الهمداني؛ الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (موقع الوراق).
- الواقدي؛ محمد بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د. ت).
- ابن الوردي؛ عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، وكذلك (موقع الوراق).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (موقع الوراق)، وفي: مسعد: المكتبة السودانية.
- اليعقوبي؛ أحمد بن إسحاق بن واضح:

1. تاريخ اليعقوبي، المعروف بتاريخ ابن واضح، (موقع الوراق).
2. كتاب البلدان، (موقع الوراق).

- اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، (موقع الوراق)

- H. Keane, Man Past and Present. Cambridge 1899. Cited by MacMichael, A History of the Arabs in the Sudan.
- Arkell, Anthony John, History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press, 1961.
- Bury, History of the Late Roman Empire. New York: Dover Publication, 1958.
- Butler, A. J., "The Treaty of Misr in Tabari" in his book The Arab Conquest of Egypt. Oxford: University Press, 1978.
- Cheikh Anta Diop, The African Origin of Civilization: Myth or Reality. Chicago: Lorance Hill & Books, 1974.
- Crawford, (ed.):

1. Ethiopian Itineraries Circa 14001520-. Cambridge: University Press, 1955.
2. The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester, 1959.

- Fred Wendorf, R. Shcild (1994) "Are the early Holocene cattle in the western Sahara domestic or wild" Journal of Anthropological Archeology, 3 No. 4.
- Hans Bernard, Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data. Clause no. 339 (online)
- Hasan, Yousef Fadl, The Arabs and the Sudan. Khartoum: Khartoum

University Press, 1973.
- http://www.1911encyclopedia.org/Troglodytes (online)
- John of Nikioumm, La Choronique de Jean de Nikiou, in Vantini.
- Kirwan, Notes o the Topography of the Christian Nubian Kingdoms, JEA, XXI, 1934.
- Kerwan, L. P., "A Survey on Nubian Origin", S.N.R. XX 1937.
- MacMichael, Harold Alfred, A History of the Arabs in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd., 1967.
- Quoted by Oric Bates, the Eastern Libyans. London: 1970.
- Palmer, R., The Bornu Sahara and Sudan. London: 1936.
- Said, Rushdi and Faure, H. 1981, "Chronological Framework: African Pluvial and Glacial Epochs in J. Ki-Zerbo (ed), General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.
- Strabo, Book of Geography XVII.
- Trimingham, J. S., Islam in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd., 1965.
- Vantini, Fr. Giovanni. Oriental Sources Concerning Nubia. Poland: Heidelberg and Warsaw, 1975.
- Wacher, John ed.,The Roman World. London: Rutledge, 2002.

رقم الإيداع

2012/318م



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة